شخصية النبي
محمد ﷺ

محمود القليني

دار العلم و الإيمان للنشر و التوزيع

obeikandl.com

١٨٩
م . ا

القليني، محمود .

شخصية النبي محمد صلى الله عليه وسلم / محمود القليني .- ط١.-

دسوق :دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع ،

٢٠٤ ص ؛ ١٧,٥ × ٢٤,٥سم .

تدمك : 5 – 375 – 308 – 977 – 978

١. السيرة نبوية .

أ - العنوان .

رقم الإيداع : ١٥٠٦٤

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة

هاتف : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ - فاكس: ٠٠٢٠٤٧٢٥٦٠٢٨١
E-mail: elelm_aleman@yahoo.com
elelm_aleman@hotmail.com

حقوق الطبع والتوزيع محفوظة

تحـــذيــر:

يحظر النشر أو النسخ أو التصوير أو الاقتباس بأى شكل
من الأشكال إلا بإذن وموافقة خطية من الناشر

2015

obeikandl.com

الفهـــــرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٧
١- عمن ستكتب	٥
٢- فهم الشخصية الإنسانية	٢٥
٣- المؤثرات في شخصية محمد ﷺ	٢٧
٤- شخصية النبي محمد	١٠٣
٥- القرآن وشخصية الرسول	١١٩
٦- شخصية محمد والعقيدة الإسلامية	١٣٩
٧- النبوة	١٧٣
٨- الزوج النبي	١٩٣
٩- أوصاف النبي	٢٤٣
١٠- أعظم الفتوحات	٢٦٩
١١- الفاتح	٢٨٥
الخاتمة	٢٩٥

obeikandl.com

obeikandl.com

إهـــــداء

يارسول الله .... هذا كتابي ،

ما دفعني إلى كتابته إلا حبي فيك ،

وإعجابي وإنبهاري بشخصك الكريم .

وددت أن أظل أكتب وأكتب وأكتب.....

إلى أن ينفد مداد عمري .

obeikandl.com

obeikandl.com

المقدمة

شاءت إرادة الله أن يجعل من الطين بشرا سويا ، فكان آدم عليه السلام .

وشاءت إرادة الله أن يجعل من البشر نورا ، فكان محمد صلى الله عليه وسلم .

وكأن هذا الوجود لم يقدر إلا ليشهد انطلاقات لارتقاءات من الأدنى إلى الأعلى ، بل أن الوجود ذاته لا يتحقق إن لم يضم بين ثناياه درجات ليرتقي ويصعد من خلالها الإنسان ،ويتحقق الوجود أكثر وأكثر ، ويتمكن الموجود أكثر وأكثر إذا استمر ودام وتواصل صعوده على تلك الدرجات ، يدفعه في ذلك وإلى ذلك مدد يستمده من فطرته النقية والسوية - وأيضا - ما ترفده السماء من مدد آخر يعينه في مسيرة الارتقاء ، إذا حالت حوائل بينه وبين الفطرة أن تعينه في صعوده وارتقائه ، وخير الموجودين - أو من قدر له - من جمع بين الفطرة السوية والنقية ومدد السماء ، فهنا يتم الجمع بين الخير والخير ، ويكون هو - الموجود - مجمع أو ملتقى نور على نور .

وهذا متحقق في محمد - صلى الله عليه وسلم - ، ولأمر ما جعله الله - عز وجل - خاتم النبيين والمرسلين ، وكأنه آخر درجة في سلم الارتقاءات ، أو آخر حلقة في سلسلة الصعود إلى أعلى .

إعلام وإخبار أنه - عنده - نهاية الارتقاءات وختام الصعود ، فليس بعده إرتقاء ، ولا يتجاوزه صعود .

ولأنه الخاتم فقد جمع له وجمع فيه كل ما يحتاجه الناس من مدد وعون .

ولأنه الخاتم فقد تجسدت فيه البشرية كأتم وأكمل وأصلح ما يكون .

ولأنه الخاتم فقد تمثلت فيه الإنسانية كأشرف وأرقى وأسمى ما تكون .

ولأنه الخاتم فقد وصل محمد إلى نهاية ما يمكن للقدرة البشرية أن تصل إليه ، ليس هذا فحسب بل تجاوز هذا بمراحل لم يصل إليها نبي أو رسول قبله .

وقد أدرك بنفسه هذا الأمر حتى قال في حجة الوداع وهو يخطب الناس "أيها الناس : إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه أبدا ، ولكنه إن يطمع فما سوى ذلك فقد رضي به ، مما تحقرون من أعمالكم ! فاحذروه على دينكم !"

وفي يوم عرفة من هذه الحجة العظيمة الجليلة نزل قوله عز وجل :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ المائدة ٣

إكمال دين فلا نقص .

إتمام نعمة فلا قصور .

ورضا من الله بأن يكون الإسلام هو الدين المعترف به من قبل الله – عز وجل –

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾

آل عمران: ١٩

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

آل عمران: ٨٥

ما شعور محمد – ﷺ – وهو يتلو تلك الآيات ، وأن دعوته ورسالته قد حازت رضا وقبول الله – عز وجل – ؟

أظن أنه أسعد من وطأت قدماه أرض هذه البسيطة . أن جعل الله دعوته ورسالته مقبولة ومرضي عنها . ولأنه يعلم أنه قد بلغ وأدى ، وأنه لم يكن ليتسنى له ذلك لولا العون والمساعدة والتوفيق من الله ، وأن المنة والنعمة والفضل الذى منحه الله لمحمد لم يمنح مثله لأحد من خلقه ، فقد عبد الله – على قدر ما مكنته قدرته وأكثر – بما يتوازي وهذه المنة والنعمة والفضل ، فكان أعبد العابدين وأخلص الموحدين ، وأقرب المخلوقين إلى الخالق ، وكان – وما يزال – أشد حبا لبني الإنسان، فقد كانت أمنيته الكبرى أن يهدى جميع البشر – بلا استثناء – إلى الله، مهما تكبد من مشاق وتحمل من صعوبات ، دافعه في ذلك أمران :

- أن البشرية لـن يقـدر لهـا الأمـن والاستقرار والسلام إلا إذا وضعت الله نصب عينيها ، وأنه خلق الخلق ليتحابوا ويتعاونوا ويتعاطفوا ويتراحموا ويسود بينهم الحب والمودة .
- أن لله حق على الناس ، وهو التوحيد والعبادة ، وأنه بدون تأدية هذا الحق فلا معنى للوجود ، وأن الإنسان مجرد جرم تائه في الفضاء السرمدي ، لا يدرى لماذا خلق ولا ما جدوى هذا الوجود ، لذا فالتوحيد والعبادة هما ما يجعلان للوجود معنى وقيمة ؛ لأنهما من أقوى الأواصر وأمتن الوشائج التي تربط بين الإنسان ومبدع هذا الوجود .

أدرك محمد – عليه السلام – بفطرته النقية وطبعه القويم تلك الحقائق الكبرى واستطاع بكل كفاءة ومقدرة أن يبسط تلك الحقائق ، بأن يجعلها أسلوب حياة وليست أفكار هائمة في الأذهان أو أقوال حائرة على الألسنة ، وهنا الفرق الشاسع بين محمد وغيره ، أو هذا ما أعطى محمدا هذا الطراز النادر والعظيم والراقي من الشخصية ،إنه لم يكن يدعو الناس أن يتراحموا أو يتناصفوا أو يتعادلوا أو يتحابوا أو يؤثر بعضهم بعضا ، وإنما كان هو نفسه الرحمة والإنصاف والعدل والحب والإيثار ، حينما تقرأ في سيرته ،ينالك العجب ، أن البعض لم يؤمن لأن محمد قد جادله أو ناقشه أو حاوره فأقنعه فأقتنع فآمن ، وأن البعض لم يؤمن لأن نفسه قد خضعت لعظمة القرآن وبلاغته ، ولكن البعض قد آمن بمحمد وبما جاء به ، حينما رأى أفعال وتصرفات محمد ، حينما لمس أسلوب وطريقة محمد في حياته وفي تعامله مع من حوله ، كبيرا أو صغيرا رجلا أو امراة شيخا أو شابا ،حيا أو ميتا مؤمنا أو كافرا ، مخلصا أو منافقا ، صديقا أو عدوا ، حيوانا أو جمادا ، حينما اقترب ودنا من شخصية محمد وبهرته هذه الشخصية في بساطتها ووضوحها ورقيها وسموها وصفائها وأريحيتها ، أدرك أنه أمام نوعية مختلفة من البشر، طراز أخر من الناس ، شخصية ترغمك إراديا واختيارا – وهنا العجب – أن تحبها

وتوقرها وتجلها وتطيعها فيما أمرت به ولم تؤمر به ، بل تدفعك دفعا أن تضحي بأثمن ما لديك في سبيل أن تنال رضاها .

تأمل أخر خطبة خطبها رسول الله وهو في مرضه الأخير ، وتأمل – جيدا – حالته الصحية .

"واشتدت وطأة المرض على رسول الله ، واتقدت حرارة العلة في بدنه .

فطلب أن يأتوا بماء يتبرد به ..ماء كثير !!: ((أهريقوا عليّ سبع قرب من آبار شتى)) .

قالت عائشة : فأقعدناه في مخضب لحفصة ، ثم صببنا عليه الماء ، حتى طفق **يقول** : ((حسبكم ، حسبكم)).

وعندما أحس الرسول بأن سورة الحر تخلت عن بدنه ، استدعى الفضل ابن عمه العباس ، **فقال** : خذ بيدي يا فضل – وهو موعوك معصوب الرأس – **قال الفضل** : فأخذت بيده حتى دخل المسجد ، وجلس على المنبر . **ثم قال** : ((ناد في الناس)). فاجتمعوا إليه .

كانت ظهيرة تظللها الكآبة وتغمرها الرقة ، اشرأبت فيها الأعناق إلى الرجل الذي أحيا موات القلوب ، وأخرجهم وذرياتهم ونسائهم ، من الظلمات إلى النور ، تطلعت إليه الأعين الحائرة ، فرأته متعبا .

انهزمت العافية في بدنه الجلد ، أمام المرض العاتي .

إلا أنه أخذ يحدثهم ويربيهم ، على عهده به دائما . وأنصتوا ، فإذا هم يسمعون منه عجبا .. إنه لما أحس بدنو أجله ، أحب أن يلقى الله وليس هناك بشر يطلبه بتبعه .

إنه تحرى العدالة في شئونه كلها لكن من يدري ؟ربما عرض له سهو مما يعرض لبني آدم ، أو أخطأ ، فحار ، وهو الذي يبرأ من الجور وذويه !

إذا ليخطب الناس في هذا حتى يستريح ضميره .. فقال : ((أما بعد أيها الناس . فإني أحمد الله إليكم الله الذي لا إله إلا هو.

فمن كنت جلدت له ظهرا . فهذا ظهري فليستقد منه ! ومن كنت شتمت له عرضا . فهذا عرضي فليستقد منه !

ألا وإن الشحناء ليست من طبعي ولا من شأني . ألا وإن أحبكم إليَّ من أخذ مني حقا !إن كان له . أو أحلني منه فلقيت الله وأنا طيب النفس .

وقد أرى أن هذا غير مغن عني حتى أقوم فيكم مرارا)) .

قال الفضل : ثم نزل فصلى الظهر . ثم رجع فجلس على المنبر . فعاد لمقالته الأولى في الشحناء وغيرهم .

فقام رجل فقال : يا رسول الله .. إن لي عندك ثلاثة دراهم ؟

فقال : ((أعطه يا فضل)) .

ثم قال النبي : ((أيها الناس : من كان عنده شئ فليؤده .

ولا يقل : فضوح الدنيا . إلا وإن فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة))!

فقام رجل فقال : يا رسول الله عندي ثلاثة دراهم غللتها في سبيل الله .

قال : ((ولم غللتها)) ؟ **قال** : كنت محتاجا ..

قال : ((خذها منه يا فضل)) .

ثم قال : ((أيها الناس .. من خشي من نفسه شيئا فليقم أدع له)) .

فقام رجل فقال : يا رسول الله إني لكذاب ، إني لفاحش ، إني لنؤوم .

فقال النبي : ((اللهم أرزقه صدقا . وإيمانا . وأذهب عنه النوم)) .

ثم قام رجل آخر فقال : والله يا رسول الله إني لكذاب . وإني لمنافق . وما من شئ إلا قد جنيته .

فقام عمر بن الخطاب فقال له : فضحت نفسك .

فقال النبي : ((يا ابن الخطاب .. فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة اللهم أرزقه صدقا . وإيمانا . وصير أمره إلى خير))[1]

١- فقه السيرة – الشيخ محمد الغزالي – صفحة (٣٩٦وما بعدها)

وهذا الكتاب عبارة عن نقاط وخطوط لمحاولة - نرجو من الله أن يوفقنا إليها - تحديد بعض - وليس كل - ملامح وسمات تلك الشخصية التي تعالت أن يحيط بها نظم من الشعر أو نثر من الخطب كما يقول الشاعر ،ومع ذلك فإن شخصية محمد - ﷺ - من البساطة والوضوح ما تجعل أي إنسان يكتب عنه ولكن ليس معنى أن كتبت عن شخصية أو قرأت عنها . أنك عرفتها حق المعرفة فما تزال النفس الإنسانية - للآن - سرا غامضا يستعصي على كل دراسة أو بحث ،فأنت عاجز عن معرفة حقيقة شخصية من يجلس بجوارك ، بل عاجز - وهذه حقيقة - عن معرفة نفسك التي بين جنبيك ، فما بالك بشخصية النبي . والكثيرون يقولون أنهم يعرفون كل شئ عن شخصية النبي محمد منذ أن كان طفلا حتى توفاه الله . حتى أنهم ليلقون الخطب الطوال، ويدبجون المقالات في الجرائد والمجلات ، ومع ذلك فإن الكثيرين يجهلون الكثير والكثير عن محمد . فالمعرفة - هنا - ليست ذات جدوى إن لم تقربك قربا حميما من شخصية النبي ، فقد تقرأ الكتب والمراجع عن شخصية النبي ، ولا تقترب قيد أنملة من شخصيته . وقد تقرأ ورقة واحدة أو تسمع عنه د ^ أو حديثا ، فتشعر أنك تعيش معه تجالسه تناقشه تحاوره تشعر به شعورا حقيقيا ، من لحم ودم وأعصاب ، حدث تواصل فكري ونفسي ووجداني وروحاني ، حدث نوع من ((التشرب)) لشخصياتهم ، وأظن أن الأنبياء لا يرتضون بديلا عن ذلك ، وقدكتبت في أحد فصول كتاب ((شخصية موسى النبي)) " لأنك مع شخصية النبى بصفة عامة مطالب أن تكون قريبا جدا منها وبالطبع هذا القرب ليس مكانيا ولا زمانيا ، لأنه محال ، ولكن القرب العقلى والدنو الوجدانى ، قريبا من تلك الآمال النبيلة والأهداف الشريفة والمقاصد السامية التى يسعى كل نبى أن يحققها ... رغبته الأكيدة والصادقة فى إسعاد البشرية بعد أن يخلصها من كل الشرور والأدران ، أمنيته أن يصوغ من الإنسانية المعذبة المشتتة المتنازعة المتفرقة كيانا واحدا متجانسا متراحما متفقا متوافقا مستمتعا بحياته ، محققا المقصود الإلهى من الوجود الإنسانى .

أن تكون قريبا جدا من تلك الروح المعذبة القلقة التى ما خلقت إلا لتجاهد جهادا عظيما ، وتكافح كفاحا جليلا ، من أجل إنقاذ الغرقى من بحار الإثم ، من أجل إحياء الموتى فى قبور الكفر والعصيان ، من أجل إرشاد الضالين فى صحراء الظلم والاستبداد ، من أجل تنبيه الغافلين عن الغاية والهدف من وجودهم في تلك الحياة .

أن تكون قريبا جدا من هذا الضمير اليقظ دوما ، الذى يضنى ويشقى نفسه من أجل أن يرتفع بالبشرية إلى مكان ومكانة تستشرف منه أنوار العبودية لخالق الكون ؛ لتشهد له بالوحدانية ، لأن جوهر سعادتها فى هذا التوحيد .

ومع موسى النبى – بصفة أخص – مطالب أن تكون مكانه ؛ لتشعر بما يشعر به ، تفكر فيما يفكر فيه ، أن تضع نفسك فى نفس المواقف التى ساقته الأقدار أن يكون فيها ، فهى مواقف نادرة وعجيبة ، لم يسبق لأحد من البشر أو الأنبياء أن مر بها ، مواقف قاهرة لمن لم يؤت قدرا من العزم والقوة والصلابة وإيمانا راسخا ثابتا برسالته .

مطالب أن تغوص فى أعماق وأغوار تلك النفس الجليلة النبيلة ؛ لتصل إلى المكون والمحرك الأول لكل أفعال وتصرفات تلك النفس العملاقة العظيمة .

مطالب أن تستبطن هذا المخلوق المتقد والمشتعل بنار ونور حب العلم والمعرفة ، والمشغوف والمتيم بالوصول إلى أقصى ما يسمح به العقل البشرى ويطيقه ، بل أن يتجاوز ذلك ليعى ويدرك ما وراء تلك الحدود .

مطالب أن تكون موسى الرؤية والإدراك والتصرفات والأفعال .

بغير هذا .... أنت لا تكتب عن النبى .... وإنما عن أى شخص آخر.

بغير هذا .... أنت لا تكتب عن موسى .... وإنما عن شخص آخر يشبهه أو يتسمى باسمه .

بدون كل هذا ، أنت تبعد عن الشخصية ، بل تنأى الشخصية عنك ... وبالتالى تضل عن الحقيقة أو تضل الحقيقة عنك .

ودعنا لا نبالغ – حتى وإن بالغنا – إذا قلنا إن شخصية النّبى هى التى تختار من يكتب عنها.لأنها تضع شرطا واحدا لمن يريد أن يكتب.وهذا الشرط هو((الحب)).

ولا نقصد بالحب هذا الميل أو النزوع الوجدانى الغامض والمبهم فى نفس الوقت نحو شخص بعينه ، وإنما نقصد بالحب هذه الرغبة المتأججة والمشتعلة والمحفزة والمثيرة للإنسان أن يعرف أى شئ وكل شئ ، عن شخصية النبى ، ليست معرفة أو فهم أو وعى أو إدراك عقلانى ، وليست [illegible] وجدانى ، وليست امتزاج كيانى . وإنما نوع من ((التشرب)) إلى حد الإرتواء بشخصية النبى .

سعى حثيث لا ينقطع ولا يتوقف ولا يفتر نحو تلك القمة من الكمال والتمام البشرى .

محاولة نبيلة لسبر أغوار تلك الشخصية التى وقع اختيار الله عليها لتكون رسولا عنه – عز وجل – إلى الإنسانية .

رحلة شريفة مع وفى تلك الشخصية التى نجحت أن تؤدى مهمتها وتقوم بدورها بكل شجاعة واقتدار ، فى أن تمهد وتذلل وتنير وتقيم طريقا إلى الله ، وتأخذ بيد الإنسانية لتهديها إلى خالقها وبارئها ، ومبدع هذا الكون العظيم ، وما فيه من دلائل وبراهين وعظات وعبر ، تمد سبيلا إلى القلب من الإيمان واليقين " [٢]

إذن الأمر مع الأنبياء – صلوات الله عليهم – بصفة عامة ، ومع النبي محمد بصفة خاصة ، أكبر من مجرد قراءة أو كتابة أو بحث أو دراسة ،ولكن الأمر – كما قلت – نوع من ((التشرب)) ، والتشرب في حاجة إلى حب ، والحب في حاجة إلى المعايشة ،والمعايشة في حاجة إلى وقت ، قد يطول مستغرقا العمر كله ، وقد لا نصل إلى تلك الغاية الشريفة ، وقد يقصر ، حتى أنك لا تشعر أنك أنفقت لحظات لتصل ، وليس المهم أن نصل أو لا نصل ؛ لأن هذا الأمر ليس بأيدينا ،ولكن حسبنا أن قمنا بأشرف محاولة وهي الاقتراب والدنو من أشرف وأطهر خلق الله ، محمد رسول الله .

٢- شخصية موسى النبى – محمود القليني – صفحة (٥، ٦)

الفصل الأول

عمن ستكتب ؟

فليس النبي إنسانا من العظماء يقرأ تاريخه بالفكر معه المنطق ، ومع المنطق الشك ، ثم يدرس بكل ذلك على أصول الطبيعة البشرية العامة ؛ولكنه إنسان نجمي يقرأ بمثل (التلسكوب) في الدقة ، معه العلم ، ومع العلم الإيمان ، ثم يدرس بكل ذلك على أصول طبيعته النورانية وحدها .

والحياة تنشئ علم التاريخ ، ولكن هذه الطريقة في درس الأنبياء -صلوات الله عليهم- تجعل التاريخ هو ينشئ علم الحياة ، فإنما النبي إشراق إلهي على الإنسانية يقومها في فلكها الأخلاقي ويجذبها إلى الكمال في نظام هو بعينه صورة لقانون الجاذبية في الكواكب .

○ مصطفى صادق الرافعي

obeikandl.com

حينما هممت بالكتابة عن محمد ﷺ، سألني صديقي : - عمن ستكتب ؟

فقلت له : ـ عن محمد عليه السلام.

فقال متعجبا مستنكرا : ـ لقد كتب الكثيرون عن محمد ، مسلمين وغير مسلمين ، منصفين ومتجنيين ، معجبين وحاقدين ، مقدرين ومدرين ، وبقى كل هؤلاء دون محمد ، فلا المنصفين والمعجبين والمقدرين زادوا محمدا ، ولا أضافوا له جلالا فوق جلاله ، ولا تقديرا إلى قدره ، ولا عظمة ' إلى عظمته .

ولا المتجنيين والحاقدين والمدرين أنقصوا من قدر محمد ، أو سلبوه شيئا أو غضوا من شأن هذا الجلال والتقدير والعظمة .

وتبقى هامة محمد دون هؤلاء وهؤلاء !

فسألته : ـ وهل معنى أن الكثيرين كتبوا عن محمد ألا أكتب أو يكتب عنه أحد بعد ذلك ؟

فأجاب : ـ نعم ، .. فماذا ستضيف أو يضيف غيرك ؟ فلم يتوقف العالم عن الحديث أو الكتابة عن محمد على مدى الألف وأربعمائة عاما ، فقد قيل كل ما يمكن أن يقال وأكثر ، وكتب كل ما يمكن أن يكتب وأكثر ، إلى الدرجة أنك لو نطقت بكلمة ((سيرة)) انصرف الذهن على الفور إلى محمد – ﷺ – ، لقد شغل محمد العالم ، وانشغل العالم به ، فلا تجدن شخصية حظيت بكل هذا الاهتمام ، ونالت كل هذا التدقيق ، وظفرت بكل هذا البحث والدرس ، إلى الدرجة أن تعرف ماذا كان يحب وماذا كان يكره ، وكيف كان يسير ، وكيف كان يضحك وماذا يغضبه وماذا يرضيه ، وماذا يحزنه ، وماذا يسعده ، ومتى كان يبتسم ، ومتى كان يضحك ... وأوصافه وسماته الخَلقية والخُلقية ، وجميع أقواله سجلت من المحيطين به بالصوت والصورة والإيماءة والإشارة ، حتى خلجاته النفسية ومشاعره الوجدانية لم يغفلوا عنها ... فقل لي بربك ماذا ستقول بعد كل ما قيل ؟ !

وماذا ستكتب بعد كل ما كتب ؟!

وماذا ستضيف بعد بكل ما أضيف ؟!

فسألته : - وهل تظن أننا حينما نكتب عن محمد رسول الله نضيف إليه شيئا لم يضف ، أو نكتب بشأنه شيئا لم يكتب ، أو نقول بحقه شيئا لم يقل ؟

- هذا ما أظنه ، وهذا ما أحسبه .
- لا ، ليس هذا .

فقال لي صديقي منفعلا وغاضبا : ـ إذن لم تكتب عن محمد ، إذا لم يكن هذا ما تقصده ؟ أم أن الأمر بالنسبة لكم معشر الكتاب مجرد تسويد عدد من الصفحات والسلام ؟

فابتسمت ابتسامه هادئة ، وطلبت من النادل أن يحضر لصديقي فنجانا من القهوة ، وسادت فترة صمت بيننا ، وحينما شرب القهوة ، وعاد إلى هدوئه ونظر إلي متحفزا ، قلت له :

- أنا إذا كنت أكتب عن محمد ، فأنا أكتب عنه كي آخذ منه ، استلهمه استرشد به ، استعلم منه ، استنير به ، استهدي به ، نحن حينما نكتب عن محمد ، لا نضيف له شيئا بالمرة ، وإنما هو الذي يضيف إلينا ، إن عصرنا – وكل العصور – بما يطرأ عليها من فساد واعوجاج وانحراف وابتعاد عن الحق واختلاط بالباطل ، في حاجة إلى قيمة ، ومبدأ ، والقيم والمبادئ كثيرة ، ولكنه في حاجة إلى قيمة من لحم ودم وأعصاب ومشاعر وعواطف في حاجة إلى شيء مجسد يسير بين الناس يختلط بهم ، يتعاطى معهم ويتعاطون معه ، إن عصرنا – وكل العصور – ليسوا في حاجة إلى قيمة مجردة ، لا توجد إلا في الضمائر والعقول ، إن أعظم ما حققه محمد – وكل ما حققه عظيم – أنه قيمة في حد ذاته ، وفي نفس الوقت هو إنسان من لحم ودم عاش على تلك الأرض مثل الملايين ، طعم مما يطعمون ، وشرب مما يشربون ، وعانى مما يعانون وتألم كما يتألمون ، وكانت تنتابه كل المشاعر والأحاسيس والأفكار ، التي

تنتابهم ، ومع كل هذا هو مميز عن ملايين الملايين في كل العصور . وهو ﷺ – أحسن رد للذين يفرقون بين العالم الواقعي وعالم المثل . ويرون ألا التقاء بينهما ، ((محمد)) نقطة أو مرحلة أو برزخ ، يمثل التقاء العالمين أو تجسيد العالمين في شخص واحد . ففيه كل ما يتصف به العالم الواقعي والإنسان الواقعي من حياة وحيوية ، ووعي بكل قضايا وأزمات ومآزق ومشكلات الواقع، وفيه كل ما يموج به عالم المثل من حب الخير والعدل والجمال ، ليس هذا فحسب . بل استطاع أن يجسد الحب والخير والعدل والجمال تجسيدا حقيقيا .

فإذا قدر للحب أن يسير على الأرض ويخاطب الناس ويخاطبونه ، فهو حب .
وإذا قدر للخير أن يوجد بين الناس يتعاطون معه ويتعاطى معهم ، فهو خير
وإذا قدر للعدل أن يسود بين الناس يؤيدهم ويتأيد بهم ، فهو عدل .
وإذا قدر للجمال أن يضوع بين الناس يباركونه ويباركهم ، فهو جمال .

فقال لي صديقي : ـ ألا ترى معي أنك بهذا الوصف لرسول الله أضفت عليه كثيرا من السمات المثالية ، وهذا على حساب السمات والصفات الواقعية والبشرية ... وعلى قدر علمي ها الرسول نفسه كان يؤكد في كل آن وحين ، وكل مناسبة على الجانب البشري من شخصيته ؟

فقلت : الأجيال التي ارتبطت بمحمد – وكل الأجيال مرتبطة به ـ كانت ظمآنة إلى المثال أو القيمة ، والظروف التي تعرضت لها من انعدام أو ندرة ما تنشده جعل الظمأ يكاد أن يقتلها ، لذلك تواضعت آمالها ، وتضاءلت أهدافها ، ودانت طموحاتها ، وبحثت وأجهدها البحث عن أي شيء يسد هذا الفراغ ، ويملأ هذا الخواء الذي تشعر به ، وحينما التمست محمدا ، وجدت فيه كل ما تطلبه وأكثر عثرت على كل ما تنشده وأكثر ، نالت من خلاله كل ما تتمناه وأكثر ... لقد أرضى محمد في كل تلك الأجيال – كنبي ورسول وقائد ومصلح وثائر وكأب وزوج وصديق

وبشر وإنسان – كلّ ما تحلم به . ويبقى عند محمد ما زاد عن تلك الأجيال . كان بمثابة مخزون هائل وفريد ونادر مما قد تطلبه الأجيال في مستقبلها . هنا لا تلوم الأجيال أن تنظر إلى محمد كنبي وأكثر ، كرسول وأكثر ، كإنسان وأكثر . كبشر وأكثر .

- ولكن أليس هذا – في حد ذاته – إسراف من الأجيال ، وأكاد أقول أنه خطأ لأنه أخرج صورة النبي من إطارها الصحيح ، بعد أن أضفوا ملامح ليست من ملامحها وسمات ليست من سماتها ؟

- أنا معك ، فكثير من سمات وملامح صورة النبي في الأذهان ، الأجيال هي التي قامت برسم بعض من تلك الملامح والسمات ، دفعتها إلى ذلك ظروفها وأحوالها ، فقد مرت الإنسانية – ضمن ما مرت به – بمراحل مجاعات في الطعام نالت من كيانها المادي ، – أيضا – مرت بمراحل مجاعات في القيم والمبادئ والمعايير الخلقية نالت من كيانها الروحي ، وفي مراحل المجاعة في الطعام من يقدم لك رغيفا فأنت تضفي عليه من الأوصاف والسمات ما يخرجه عن حقيقته ، كذلك من يداوي ويعالج أمراض الروح وجروح الضمير في مراحل مجاعات الروح والضمير تضفي عليه الإنسانية الكثير من الأوصاف والنعوت التي قد تخرجه عن حقيقته .

ومع كل ذلك تبقى حقيقة محمد أنه بشر نبي ورسول إنسان ، وتلك الحقيقة شاهدة وماثلة ، لا أحد ينكرها ، فقد كان الصحابة يعاملونه على ضوء من تلك الحقيقة ،– حتى أزواجه رضوان الله عليهن – فكثيرا ما يغفلن وينسين أنه نبي ، ويختلفن معه ، ويراجعنه ويعترضن عليه ، ويأتي القرآن ويأخذ برأي أحد الصحابة ، ويعرض عن رأي النبي ، ولا يتم هذا في الخفاء ، بل على رؤوس الأشهاد وفي آيات قرآنية صريحة تتلى كل آن وحين ، ويتعبد بها في الصلوات والأذكار .

وتأبى حقيقة محمد إلا أن تؤكد وتبرهن وتدلل على أنه بشر . وبلسانه هو ((أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد وتمشي في الأسواق)) .

قال : ـ كل ما قلته الجميع يعرفه ويفهمه . والناس ليسوا في حاجة إلى مزيد .

قلت : ـ هذا ما اختلف معك فيه .... فالناس في حاجة إلى المزيد والمزيد .

قال : ـ كيف ؟

قلت : ـ الناس في حاجة أن تتحول تلك المعرفة وهذا الفهم إلى حالة من المعايشة . وحالة من ((التشرب)) وتنعكس تلك الحالة على أسلوب حياتهم وطريقة تفكيرهم . ونمط مشاعرهم وأحاسيسهم . فهناك فرق كبير بين أن تقرأ عن النار وتعرف وتفهم عنها كل شيء . وبين أن تحترق بها . وفرق كبير بين أن تعرف الكثير عن الماء وما تمد الجسم من حياة وارتواء . وبين أن ترتوي بها . وتنعم بهذا الري . مع الأنبياء بصفة عامة . ومع النبي محمد ـ ﷺ ـ بصفة خاصة . أنت في حاجة أن تتقمصهم . تتمثلهم . تستحضرهم .أن يكون بينك وبينهم نوع من التواصل الدائم والمستمر . إلى الدرجة التي تجعلك تتطبع بطبعهم تتصف بصفتهم تتسم بسمتهم . تتشكل بشكلهم .تفكر كما يفكرون . تشعر بما يشعرون .

قال : ـ ولكن هذا أمر عسير غاية العسر . ثم كيف الوصول إليه ؟

ابتسمت له قائلا : ـ ليس أمرا عسيرا . لأن أي اقتراب أو دنو من هؤلاء الصفوة مهما كان ضئيلا فهو مكسب عظيم . مجرد أن تتجه وتحدد طريقك نحوهم فهذا ـ في حد ذاته ـ فوز عظيم . أما كيفية الوصول إلى هذا . فمجرد أن تصح النية ويصدق العزم . فلابد أن تصل .

صمت صديقي قليلا مفكرا ثم قال فيما يشبه الاستسلام : ـ الآن اقتنعت بموضوع كتابك . تعال إلى العنوان . أو اسم الكتاب . ما تقصد بشخصية محمد ؟ !

هل ستقوم بتحليل شخصيته ـ ﷺ ـ لتخرج علينا بشيء لا نعلمه ولا نعرفه وتغوص في الشعور واللاشعور . وتنقب في الوعي واللاوعي . وتأتي بالشواهد

والمواقف لتدلل أن محمدا تعرض لمشاكل ومآزق في طفولته وسني صباه ، وأن كل هذا كان له أثر في تشكيل شخصيته وتحديد علاقته بمن حوله ، وبالتالي تكوين فكره ونظرته وآرائه وأفعاله وتصرفاته ... كل هذا يتم من خلال تطبيقك لأحدث النظريات الشخصية وآراء أصحاب المدارس والمذاهب النفسية ؟!!

قلت له : ـ أولا كفاك سخرية بي وبما أكتبه .

- أنا لا أسخر . ولكني أتعجب .
- وما العجب في ذلك ، ألسنا متفقين على أن محمدا – ﷺ – بشر .
- لا شك في هذا .
- إذن نحن متفقان أن ما ينطبق على الشخص العادي ينطبق على محمد وأن الرسول الكريم كان يخضع ويتأثر بكل ما يتأثر به الإنسان العادي بحكم أنه في الأصل بشر .
- لا شك في هذا .. ولكن ألا ترى معي أنك لو تناولت شخصية الرسول وأخذت تعمل فيها أفكارك وتأملاتك ، وتطبق تلك النظريات العرجاء والآراء الشوهاء لعلم الشخصية وعلم النفس ، ألا ترى أن هذا غبن عظيم وظلم كبير توقعه على الشخصية ؟
- حتى لو طبقنا النظريات والآراء ، على شخصية الرسول ، فليس في شخصية الرسول ما نخجل منه . أو نخشى أن نعرضه للبحث والدرس وما ظنك بإنسان كان كل من حوله يسجلون كل لفتة وكل همسة وكل إيماءة وكل لفظة ... يفعلون كل هذا وهم في قمة الحب والتفاني والإخلاص لنبيهم ؟

وما ظنك بإنسان كان عتاب الله – تعالى – ومراجعته له ، في قرآن يتنزل به ملك الوحي على رسول الله ، ثم يقوم الرسول بتبليغه لأصحابه بدون أدنى تغيير أو تعديل أو تحريف ، ليقرأ على الملأ ويحفظ ويتعبد به ؟ فلم

توجد شخصية من قبل - ولن توجد من بعد - أحيطت بهذا السجل الدقيق والشامل والعميق والصريح والجريء والواضح لكل جزئيات ودقائق وظواهر وخوافي حياتها سواء النبوية أو البشرية .... وإليك سجل كل أنبياء ورسل الله ، تفحصه وأدرسه وحلله كما تشاء ، فلن تخرج بعد كل هذا الفحص والدرس والتحليل بمعلومات أو أخبار ، تساعدك في تصور كامل لشخصية تامة ومكتملة ، فأنت لا تدري عن الأنبياء والرسل السابقين ماذا كانوا يأكلون وماذا كانوا يحبون ، وما هي أوصافهم الخلقية والخلقية ، وما نواحي ضعفهم وما أخطائهم .... ألخ .

بينما مع محمد - ﷺ - فأنت واجد كل ما تبتغيه وأكثر ، واجد كل ما تريده وزيادة .... محمد فتح للبشرية عالم النبوة المغلق الممنوع المحجوب ؛ لتدخله البشرية من أوسع أبوابه ، وتجول وتتجول فيه ، محمد استطاع أن يسد الفجوة الهائلة بين البشري والنبوي ، وأعطى للإنسانية نموذجا كيفية كون النبي بشرا ، أو البشري نبيا ، وكيف يتعايش الاثنان في شخص واحد معه تجد كل صفات البشري كأكمل وأتم ما يكون البشري ، معه تجد صفات النبي كأمل وأتم ما يكون النبي ، معه - وليس مع غيره - تجد التوازن والتعادل والتوافق والاتفاق بين الاثنين كأكمل وأتم ما يكون التوازن والتعادل والتوافق والاتفاق .

صمت صديقي قليلا مفكرا فيما قلت ، ثم قال : - إذا كان هذا هو الإطار أو النهج ، أو الطريقة التي ستتناول بها شخصية محمد - ﷺ ، فأنا أوافقك على العنوان .

قلت - إذن أنت وافقتني على العنوان كما وافقتني على المضمون ؟ -

قال : - نعم . **قلت :** - وماذا تريد الآن ؟

قال : - أن أقرأ الكتاب . **قلت مبتسما :** قريبا إن شاء الله .

obeikandl.com

الفصل الثاني :

فهم الشخصية الإنسانية

والنفس كالطفل إن تهمله شب على ... حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم
فاصرف هواها وحاذر ان توليه ... إن الهوى ما تولى يُصم أو يَصم
وراعها وهي في الأعمال سائمة ... وإن هي استحلت المرعى فلا تسم
كم حسنت لذة للمرء قاتلة ... من حيث لم يدر أن السم في الدسم
واخش الدسائس من جوع ومن شبع ... فرب مخمصة شر من التخم

٥ الإمام : البوصيري

obeikandl.com

obeikandl.com

هناك طريقتان لفهم الشخصية الإنسانية فهما صحيحا :

الأولى : أن نسبر غور الشخصية من خلال دراستها دراسة شاملة ، ومعرفة المؤثرات التي أثرت فيها على مدى مراحل عمرها ، وأيا من من تلك المؤثرات كان أثره عميقا وممتدا ، وكان له قسط كبير في تشكيل الشخصية وصياغة طبعها وتحديد ميولها وأهدافها وطموحاتها . وإذا قدر لنا إنجاز هذا الأمر على أكمل وأتم وجه ، نستطيع أن نفسر كل أقوال الشخصية ، ونحلل أفعالها وتصرفاتها ، وندرك الدوافع والبواعث التي تحرك الشخصية ؛ لأننا إذا أدركنا أعماق الشخصية فقد سهل علينا بعد ذلك فهم الشخصية في ماضيها وحاضرها بل التنبؤ والتوقع لما سوف تفعله والطريقة والأسلوب الذي ستتخذه وتعالج به مختلف وكافة المشاكل والأزمات التي تصادفها وتعترض طريقها .

الثانية : أن ندرس ونحلل ونفسر كل أقوال وأفعال وتصرفات الشخصية لنتمكن من خلال هذا من رسم صورة كاملة وتامة للشخصية ، بحكم أن الأقوال والأفعال تكشف وتظهر طابع وطراز الشخصية ، وتعلن لنا ما خفي وتوارى أو ما استبطنته الشخصية .

ورب معترض على تلك الطريقة ، بحجة أن الشخصية لن تقول ولن تفعل إلا ما يتوافق مع الصورة التي تريدها أن تنقلها للآخرين ، فهنا عنصرا الإرادة والقصد متوافران ، وهذا قد يضلل الدارس للشخصية .

والرد على ذلك ، أن الدارس لن يكتفي بفعل أو موقف صادر عن الشخصية وإنما سيدرس مواقف وأفعال كثيرة للشخصية في مختلف مراحل العمر ، وفي أحوال وظروف متعددة للشخصية ، في حالة رضاها ، وفي حالة غضبها ، في حالتها والأمل يدفعها في طريقها ،وفي حالتها والإحباط يعوق مسارها ،وفي أحوالها العادية والمعتادة ،وهي محاطة بالمآزق والأزمات . إذا تم رصد وتسجيل كل هذا وكذلك الأخذ في الاعتبار انطباعات وآراء المحيطين بالشخصية ، في تلك الحالة لن

تستطيع الشخصية - مع توافر كل تلك الأمور - أن تبدل أو تغير من جوهرها الحقيقي، ولن يكون الأمر عسيرا على الدارس - بعدما تجمعت له كل تلك الدلائل والشواهد - أن يخرج بتوصيف صادق وحقيقي للشخصية.

ولكن أي الطريقتين أفضل، أو أقدر على إعطائنا صورة صادقة أو توصيف حقيقي للشخصية؟

في الحقيقة ليس هناك أفضلية، ولكن ظروف أو طبيعة الشخصية هي التي تحتم الطريقة التي يستعين بها الدارس، وما يتوافر لدى الدارس من معلومات وبيانات وإحصاءات.

فإذا كان لدينا بيانات مستفيضة عن أقوال وأفعال ومواقف الشخصية وليس لدينا أي معلومات كافية عن المؤثرات والمواقف التي تعرضت لها الشخصية فإن الطريقة الثانية هي التي تفرض نفسها، أما إذا كان لدينا بيانات مستفيضة عن تاريخ وماضي الشخصية ومراحل نموها وتطورها، فإن الطريقة الأولى هي الأفضل أو الأيسر.

○ عقبتان

الدارسون للنفس الإنسانية تجابهم عقبتان:

- مدى تعقد وتشابك واستعصاء تلك النفس على الفهم، وأن تفك هذا التعقيد، وتبسر هذا التشابك، وتذلل هذا الاستعصاء، أنت في حاجة إلى جهد خارق ووقت مديد.
- أن الدارس للنفس الإنسانية في الأصل هو إنسان، فموضوع الدراسة النفس الإنسانية، والقائم بالدراسة إنسان، والمناهج التي تطلق في الدراسة نتاج تفكير، وتأمل إنساني بحت، فمهما تسلح الباحث بالنظرة الموضوعية والتجرد فإن كل هذا لا يخرجه عن كونه إنسانًا، ولا ينفي عنه نفيا قاطعا إنه جزء مما يدرسه ويبحثه ويفحصه، "تعد دراسة النفس

البشرية والتوصل إلى كنهها وأبعادها ومكوناتها من الأمور الصعبة ؛ لأن النفس الإنسانية .. بل الطبيعة البشرية ذاتها .. شديدة التعقيد أو هي في الواقع محيرة ومثيرة !!

ولعل هذه الصعوبة تدفعنا إلى محاولة دراسة الطبيعة الإنسانية دون أن نغرق في متاهات النفس ، وميتافيزيقا الإنسان وعلى الرغم من هذا الاتجاه نحو دراسة الطبيعة الإنسانية فإن الصعوبة قائمة أيضا ..لأنه لا يوجد شيء على ظهر هذه الأرض محير ومثير للمشكلات والمتاعب مثل الإنسان ، ذلك الذي صنع صنعا عجيبا وفريدا ومخيفا "[٣]

ويزداد الأمر صعوبة وعسرا وتعقيدا لهؤلاء الذين يدرسون الشخصية الإنسانية ؛ لأنهم بعد تغلبهم على العقبتين السابق ذكرهما ، مطالبون بتصنيف النفس إلى أصناف ، واستخلاص السمات الجسمية والنفسية والعقلية والفكرية التي تميز كل صنف ، ولابد أن تكون تلك الصفات في مجموعها نظامًا متكاملاً.ليس هذا فحسب ، بل يتسم هذا النظام بسمة الثبات – وإن يكن نسبيا – فأي صفات لا تكون في مجموعها نظاما متكاملا يعطي للشخصية وحدتها المستقلة ، في صفات مستبعدة، وأي نظام – للشخصية – لا يوسم بالثبات هو أيضا مستبعد."الشخصية: نظام متكامل من الصفات الجسمية والسمات النفسية التي تتميز بالثبات النسبي والتي تميز الفرد عن غيره من الأفراد كما تحدد أساليب نشاطه وتفاعله من البيئة الخارجية المادية والاجتماعية التى يعيش فيها.

وترتكز هذه التعريفات على مجموعة من الأركان الرئيسية المميزة للشخصية الإنسانية وهذه الأركان هي :

التميز :بمعنى أن كل فرد يتميز بخصائص شخصية تخالف تلك الخصائص المميزة لغيره من الأفراد : أي أن الشخصية الإنسانية تختلف ممن شخص إلى آخر.

٣- الإنسان وصحته النفسية – د . سيد صبحي – صفحة (٧)

الحركيـة : بمعنى أن الشخصية الإنسانية هي محصلة التفاعل للعلاقة الحركية المستمرة بين الإنسان والبيئة المحيطة به أي أن الشخصية الإنسانية هي نتاج التفاعل الاجتماعي .

الشمول: بمعنى أن الشخصية الإنسانية تنظيم من سمات *traits* وخصائص معينة تميز الفرد وتحدد استعداده وتعبر عن مجموعة من توقعات لتصرفاته في المواقف المختلفة " [٤]

إذن الشخصية هي مجموعة الصفات والخلال والسمات الفكرية والنفسية والجسدية والوجانية التى تمكنني أن أحدد أو أحصر فردا بعينه لا يتشابه مع الملايين غيره ، وهي تشمل في مفهومها نوعا من التحديد القاطع الجامع المانع. وهي تتسم بالثبات والتغير في آن واحد ، بمعنى أن الصفات والسمات التي تميز الشخصية ثابتة ومستقرة ، بينما هناك نوع من الحركة والتفاعل والتبدل والتحول في المشاعر والأفكار والرؤى والمواقف والمراحل العمرية ، استجابة لمبدأ النمو والتطور. " ((فالشخصية)) كلمة واحدة في اللغة ، ولكننا نخطئ أبعد الخطأ إذا تصورناها شيئا واحدا لأنها تنطوي تحت عنوان واحد وهي أشياء لا تحصى من الغرائز والمدارك والأحاسيس وعلاقات المجاوبة بينها وبين العالم الذي تعيش فيه وهي بهذا الخليط الواسع في حركة دائمة لا تستقر على وجهة واحدة برهة من الزمن ولا تعهدها في الصحة ولا في الشباب كما تعهدها في المرض أو في الهرم ، ولا تصور فيها النزعة الواحدة من مصدر واحد في جميع الأوقات والأحوال .

فهي تختلف بين حالة وحالة ، وتختلف بين سن وسن وتختلف على حسب العلاقة بينها وبين هذا الإنسان وذاك الإنسان وتختلف على حسب العلل والبواعث التي تحركها إلى الأعمال " [٥]

٤- المصدر السابق – صفحة (٦٠)
٥- المرأة في القرآن – عباس محمود العقاد – صفحة (٤٩)

نعم إن حصر الإنسان داخل إطار شخصية محددة ومميزة ، وأن يكون هذا التحديد والتمييز صادقا ومستوفيا وشاملا ، فهو من العسر بمكان ، ولكنه جهد شاق يقابله مكسب عظيم ، أنك تستطيع أن تفسر وتحلل وتعرف كل ما يخص الشخصية . لا شيء أمامك مبهم أو غامض أو مستغلق . لا شيء متوارٍ أو خفي أو يكتنفه الظلام ، كل شيء مبرر ومربوط بأسبابه وعلله . والشخصية أمامك كيان متكامل ونظام متماسك متناغم بديع ، يتفاعل ويتعاطى مع كل من حوله ، ويمر بمراحل نمو وتطور وفقا للسنن التي تحكم أو تضبط النفس الإنسانية .

والإنسانية اليوم في حاجة ماسة – عن ذي قبل – أن تقف طويلا أمام تجربة شخصية استطاعت أن تقود العالم إلى الخير والعدل والأمن والسلام، وكانت أدواته ووسائله الحكمة والموعظة الحسنة . وكان هدفه وغايته تطهير النفس الإنسانية من أدرانها وأوشابها ، ليسهل بعد ذلك إقناعها بالصورة المثلى والجديدة التي يجب أن يكون عليها الإنسان

○ **دراسة شخصية الرسول :**

وتعد دراسة شخصية محمد – ﷺ – مغنما عظيما ومكسبا كبيرا لعلم دراسة الشخصية ؛ لأن كل ما يحتاجه الباحث أو الدارس موجود وبوفرة ، وموثق توثيقا صادقا ، فهناك نص مقدس ، يعالج ويغطي مساحة من شخصية ونفسية الرسول ، ويكشف عن أدقّ الخوالج النفسية له ، وهو القرآن الكريم . وأيضا هناك نص بذلت فيه مجهودات جبارة وطاقات من العسير تقديرها لتوثيقه وتصنيفه في مستويات ودرجات من القوة والصحة ، وهي أحاديث الرسول . فهذان مصدران يمنحان الدارس والباحث – بسخاء – كل ما يحتاجه . ثم هناك مصدر ثالث – وإن لم يرق إلى مستوى المصدرين السابقين من حيث الصحة والصدق والتوثيق ، إلا أنه يمدنا بمعلومات ضافية – وهو آراء ونظرة وانطباعات المحيطين بالنبي .

وبذلك تتوافر مادة لا حد لثرائها ، وهذا في حد ذاته يمثل صعوبة لأي باحث لأنك أمام طوفان وفيض لا ينقطع من المعلومات عن شخصية الرسول ، ولا نستطيع أن تأخذ هذا وتترك ذاك ، لأن كل كبيرة وصغيرة لها قيمتها واعتبارها وتكشف عن جانب هام من جوانب شخصية الرسول ، ولن يستطيع أي باحث أن يلم ويجمع كل ما يتعلق بشخصية الرسول ، لأن هذا خارج الطوق والقدرة والسعة هذا بالإضافة إلى أن هذا يمثل ثقل على القارئ ، وغير المتخصص ، الذي لا يريد أن يعرف كل شيء ، وإنما أشياء ، وفي نفس الوقت تلك الأشياء التى يعرفها لا تضيع عليه فائدة ونفع الأشياء التي لم يعرفها ، بمعنى أنه – القارئ – يريد أن يخرج له من هذا الكم الهائل من المعلومات والمواقف والفعال والروايات والآيات بشخصية أو طراز نمط شخصي يعرفه ويألفه ويدركه مستوعبا كل ملامحه وسماته وصفاته وخلاله ، عند ذلك يستطيع أن يتغلغل في أعماق الشخصية ، ويعرف دوافع الأفعال وسبب التصرفات ومحرضات الأقوال ، يستطيع أن يستحضر شخصية الرسول في زمنه ووقته ، ويعرض عليه المشاكل والمآزق والأزمات ، ويسأل نفسه : ماذا كان سيفعل الرسول ، وماذا كان سيقول ، وماذا كان سيتصرف ؟ ويخرج بالإجابة الصحيحة ، وهي وإن لم تكن متطابقة تمام التطابق مع شخصية الرسول ، إلا أنها لا تبتعد كثيرا ، على الأقل إن لم يوافق الرسول عليها ، فقد لا يرفضها ، لأنها تقضي حاجة أو تحل مشكلة من مشكلات زمننا وعصرنا بم يتناسب مع ظروفنا وأحوالنا.

إذا نجحنا في فعل ذلك ، فسنجد الرسول بيننا ، في حياتنا اليومية ، في البيت ، في الشارع ، في العمل ، في أوقات جدنا ، وفي ساعات لهونا ، في حالات رضانا ، وفي ظروف غضبنا ، مستهدين ومسترشدين به ، في عسرنا ويسرنا ، في رخائنا وشدتنا .

○ المنهج :

ومنهجنا في تلك الدراسة أننا سنختار بعض المواقف ، وليس كل ، وبعض الأقوال ، وليس كل ، وبعض المشكلات والمآزق ، وليس كل ، تلك المواقف والأقوال والمشكلات والمآزق ،التي تساعدنا أن نكون صورة – نأمل أن تكون – كاملة ومتكاملة ، تامة ومتممة ، لشخصية الرسول ، وافية ومستوفية ، بكل أبعادها الإنسانية والبشرية والنبوية ، فهنا تعادل وتوازن دقيق ومحكم في الشخصية ، فلا جانب طغى على جانب ، ولا جانب انتقص من جانب .

فهو بشر في قمة بشريته ... بدون زيادة أو نقصان .

وهو إنسان في قمة إنسانيته ... بدون زيادة أو نقصان .

وهو نبي في قمة نبوته ... بدون زيادة أو نقصان .

وهو رسول في قمة رسالته ... بدون زيادة أو نقصان .

ولم يكن هناك تصارع بين تلك الجوانب ، ولا اختلاف ولا تنازع ، وإنما كل جانب كان يتمم بقية الجوانب ويعضده ويؤازره ويؤكده ، فبشريته لم تنتقص من نبوته ، وبشريته لم نطلمس أو تمحو نبوته .

والذي سيرجح اختيارنا لتلك المواقف والأفعال والتصرفات والأقوال دلالتها الواضحة والمباشرة والأكيدة والصادقة على شخصية الرسول ، وكونها أحدر من غيرها على جلاء هذا التكامل النادر والعجيب ، ولا نبالغ إذا قلنا أنه تكامل وتتام لا مثيل له من قبل ، ولا من بعد ، " وإنما يعنينا من الحادثة التي نعرض لها ومن الفترة التي نستبينها أنها وسيلة إلى مقصد واحد : وهو التعريف بالنفس الإنسانية في حالة من أحوال العظمة والعبقرية أو حالة من أحوال النبل والأريحية فإن جاوزنا هذا المقصد إلى غيره فإنما نجاوزه لجلاء فكرة تحيط بأطوار التاريخ

الإنساني وتخرجه من غمـ التيه والظلمة تسلك به مسلكا غير مسلك التخبط والضلال " [6] .

وفي دراستنا تلك قد نقترب اقترابا شديدا من الرسول ، وقد نبتعد عن الرسول ، وقد نتجه ناحية اليمين ، أو ناحية اليسار ، لكي تكون الصورة أقدر على الإلمام بكل الملامح والسمات ، ولنستطيع أن نضع الصورة داخل الإطار الصحيح والصادق والمناسب لها ، لنكون – نحن – أقدر وأجدر على الوصول إلى حقيقة شخصية الرسول ؛ لأن تلك الدراسة متعلقة بنا ، وليس بشخصية الرسول ، فلن تضيف شيئا للرسول ، بل أنها قاصرة وناقصة ، إذا انتظرنا منها أن توفي حق الرسول ، لأن إذا الله وفّى حق أحد ، فإن كل محاولة لتوفية هذا الذى وفاه حقه مقدر لها الإحباط والفشل ، لأن ليس بعد توفية الحق من جانب الله معقب .

تلك الدراسة متعلقة – في المقام الأول – بنا ، كيف يجب أن ننظر للرسول ؟

كيف يجب أن نفكر فيه ؟

كيف يجب أن نتصوره ؟

كيف يجب أن نتعاطى معه ، نتعامل معه ، نتشارك معه ، نتقاسم معه أوقات الفرح والسعادة والأمن والسلام ؟ نتقاسم ساعات الحزن والألم والمعاناة والشدة والقلق ؟ .

وتلك الدراسة ليس من هدفها إضفاء جلالا وعظمة إلى شخصية الرسول لأنه كان أول من سيعرض ويرفض تلك الدراسة ، فقد كان يضيق بالمدح والثناء لأن المادح والممدوح قد يسوقهما ويدفعهما المدح إلى طريق لا يحمد عقباه ، هذا إلى الكذب والمبالغة والتزييف ، وذاك إلى الكِبْر والعُجْب والغرور ، وهذه في حد ذاتها سمة من سمات شخصيته ، أنه عليم وخبير بمسالك النفس الإنسانية ، وكان

٦- ذو النورين – عثمان بن عفان - عباس محمود العقاد – صفحة (٧)

النفس بكل ما تحويه من نوازع ودوافع وغرائز سجل فتح له . فهو يطلع عليه ويطلع الآخرين يستهدي ويهدي ، يسترشد ويرشد . فهو كما قال عن نفسه :

(أنا مدينة علم) وستظل شخصية محمد يجد فيها أبناء كل زمان ما يبتغونه من مثل وأسوة ، مهما اختلفت الأزمنة والأمكنة والظروف والأحوال والشخصيات . إلا انه لسعة تلك الشخصية وعمقها وشمولها وثرائها غير المسبوق وتجذرها فى الطبع الإنساني فإنها ما برحت معينا لا ينضب ، ورافدا ثريًا لا يجف وغيثًا لا ينقطع يروى ظمأ العطشى للهدى والرشاد ، ونورا يهدي الضالين والحائرين .

obeikandl.com

الفصل الثالث

المؤثرات في شخصية محمد - صلى الله عليه وسلم -

" كل ما يمكن أن نجزم به من هذه الحالة أو من غيرها أن محمدا قد تكون ليتلقى الوحي الإلهي ، وأن لهذا التكوين استعدادا لابد أن يلحظ من أوائل صباه ، لأن البنية الحية لن تتهيأ له في أيام ولا في أشهر ولا في سنوات ، ولن تستطيعه إلا إذا تمت أهبتها له والمولود في صلب أبيه ، ولا نقول في المهد أو في الرضاع ."

o عباس محمود العقاد

obeikandl.com

obeikandl.com

لاشيء يحدث فجأة مهما كان هينا في هذا الكون الواسع ، قضى بذلك النظام الذي يهيمن على مقدرات هذا الكون الذى أراده الله – عز وجل – فالثمرة التى يقطفها الإنسان من الشجرة ، هناك العديد والعديد من العوامل والمناصر والأحوال والظروف التى تعاونت وتضافرت وتكاملت وتنامت لتكون فى النهاية تلك الثمرة .. كل هذا استغرق زمنا لا يزيد ولا ينقص ، فكل شئ محدد بوقت وميعاد .

حتى قطرة المطر التى تساقطت ... كل شئ بمقدار وكل شئ بوزن ونسب محددة ومقدرة ، وهناك فترة من الإعداد والتمهيد ، والتهيئة ، وهناك كذلك المقدمات والإرهاصات ، لا شئ يحدث فجأة ، وإن حدث فهذا ما نظنه ، وهذا ما نراه بأعيننا فقط ؛ لأنه غابت عنا – ونحن فى قبضة الغفلة – المسببات والمهيئات التي كانت سببا فى ذلك ، فتلك قوانين بنى وصمم عليها الكون ... السبب والمسبب.. العلة والمعلول .

الشخصية الإنسانية لا تستثنى من هذا الأمر ، فهى تخضع وتتأثر لما يخضع له ويتأثر به كل شئ فى هذا الكون ، ولا نبالغ إذا قلنا إن أكثر شئ يظهر هذا الأمر بجلاء ووضوح هى الشخصية الإنسانية ، لأن هنا يتوافر ما لا يتوافر مع أى شئ آخر فى الكون ، وهما عنصر الوعى والإرادة .

فلا نستطيع أن نحصر جملة المؤثرات التى تعرضت لها الشخصية أو صاغت وكونت الشخصية بمعزل عن هذين العنصرين ، وأى تنظير للشخصية الإنسانية يستبعد هذين العنصرين هو تسطيح يهبط بالشخصية الإنسانية إلى درك من الضعة والدناءة ويسلبها أهم وأجل ما وهب الله – عز وجل – الإنسان فالشخصية الإنسانية لا تستجيب استجابة عمياء ، ولا تتأثر تأثرا سلبيا بالمؤثرات التى تحيط بها ، وإنما الوعى والإرادة يتدخلان فى هذا ، لذلك قد تجد شخصيتين

تعرضنا لمؤثر واحد ، ولكن التأثر والإنطباع وردود الفعل تأتى مختلفة باختلاف الشخصيات ، وهذا راجع – ولا شك – إلى عنصرى الإرادة والوعى .

إذن لكى ندرس الشخصية لابد وأن نعرف جملة المؤثرات المتعددة والمختلفة التى أثرت وتأثرت بها الشخصية ، وفى نفس الوقت ندرس مدى وعى الشخصية فى الاستجابة لتلك المؤثرات ، ومدى قوة إرادتها ، هل خضعت لتلك المؤثرات خضوعا تاما ، أم تحدت وقاومت تلك المؤثرات ؟

○ اليتم :

ربما يكون أول مؤثر وأقواها تأثر به محمد هو مؤثر اليتم ، فقد عانى من أثاره وهو ما يزال جنينا فى بطن أمه ، فقد شاءت الأقدار أن تمضى الزوجة أشهر الحمل الطويلة وهى تعانى من أحزان الترمل والفقد ، فما هى – بعد أن مات عنها زوجها ، ولم تهنأ بنعيم الأنس والائتناس به سوى مدة وجيزة ، بعدها حمل الناعى خبر موته فى أثناء رحلة خرج فيها فيمن خرج – قد ترملت ولم يمضى على زواجها ستين – سبع فى أشهر الأقوال .

ويستطيع أن تتصور مدى لوعة وحزن الزوجة الشابة حينما كانت تمضى سحابة نهارها وهى تتذكر كلماته وإيماءاته وابتسماته وضحكاته ، وهى تقضى ليلها مستحضرة ملامحه وقسماته الوضيئة كى لا تبهت من ذاكرتها على مر الأيام وكر الليالى .

ولكن حزن الأم لم يكن حزنا متلفا للنفس ، ولا هو من النوع الذى يسلم النفس إلى اليأس والقنوط ؛ لأنه نتيجة لعدم اكتمال رجاء وعدم تمام أمنية ، وعدم تحقق أمل ، فالرجاء موجود ، ولكنه لم يكتمل ، والأمنية موجودة ولكنها لم تتم والأمل موجود ولكنه لم يتحقق ... فقد كانت الزوجة تتمنى أن يكون زوجها بجانبها والجنين المبارك فى بطنها ، وهما الاثنان يرقبان فى فرح ولهفة نموه

Obeikandl.com

ينتظران أن يخرج إلى الوجود ، ولكن ها هو الزوج يرحل بدون أوبة ، وها هى تحاول أن تجعل من الجنين عوضا عن فقد الزوج ، فهى تستمد منه ما يؤنس وحشتها ويداوى حرمانها ، ويضمد جراحها ، فكل حبها وتعلقها بالزوج تحول إلى هذا الجنين ، لذلك لم تورث جنينها أثناء فترة حملها أى من مشاعر الحزن واليأس والاضطراب العصبى والقلق ، وربما هذا ما دفع فئة من الباحثين أن ترجح أن (عبد الله) والد الرسول لم يمت إلا بعد مولد ابنه ، وأن أشهر الحمل مضت فى أمن وسلام ، لم تعان منها أو خلالها أى حزن أو ألم نفسى ؛ فقد جاء الوليد معافى من كل وأى اضطرابات نفسية أو انحرافات عصبية ، أو هزات وجدانية . وفاتهم أن هناك من النساء من تخلق من اليأس أملا ومن الضيق فرجا ، ومن الظلمة فجرا وضياءا ، هؤلاء النسوة وهبهن الله قوة وإصرارا وإرادة وعزيمة للتغلب على العقبات ومواجهة الصعاب ، والاستبشار والتفاؤل فى أحلك اللحظات واسوأ المواقف " غير أنا نجد عند بعض المفكرين المحدثين – أذكر منهم أستاذنا أمين الخولى – ميلا إلى الرواية القائلة بأن محمدا ولد قبل أن يموت أبوه ، وهم لا يستندون فى ذلك إلى دليل نقلى بقدر ما يستأنسون مما اطمأن إليه علم النفس الحديث من صلة الجنين بأمه وأثر حالتها المعنوية على كيانه كله : جسما وخلقا وأعصابا ، وحياة ((محمد)) – ﷺ – تشهد بسلامة بنائه وصحة أعصابه ، فلقد خاض معارك تكفى واحدة منها لامتحان أصلب الرجال عودا وأثبتهم جنانا وأجلدهم أعصابا فكان فيها جميعا البطل المظفر ، وهذا – عندهم – يرجح ، إن لم يثبت أن أمه لم تروع وهى حامل بموت زوجها ، بل أمضت أشهر الحمل آمنة مطمئنة هادئة ، لا يئودها حزن ولا يمضها ثكل ولا يرهقها شجن .

ولا نمارى فيما لهذا الرأي من قوة ووجاهة ، لكن يعوزه الدليل النقلى الذى نعده حاسما فيما نحن فيه ، فلقد رأينا أكثر الرواة الأول ، لا يشيرون إلى خلاف أنه ﷺ ولد يتيما ، وهذا الرأى حملنا على أن نلوذ بالفن لكى نحمل الرواية

المشهورة أقصى ما تحليق احتمالـه من توفير الراحة النفسية للأم الحامل ، رغم حزنها الثقيل وثكلها المفجع فاطمأننا إلى أن الجنين نفسه كان عاملا هاما فى عزائها ، وان شعورها به يتقلب بين أحشائها ، قد آنس وحشتها وهون عليها ما كانت تلقى من حزن لعله كان يكفى لأن يتلفها لو لم ينزل الله سكينته عليها ويملأ دنياها فهذا التراث الحى الغالى الذى أودعه عبدالله إياها قبل أن يموت معاشت به وله "[7] .

نعم... أورثته شيئا من الحزن وحب العزلة والميل إلى الوحدة والصمت وصفاء النفس وسلامة الفطرة ، وأيضا قوة الإرادة والإصرار .

ولم لا نقول إن وجود مثل هذا الجنين فى أحشاء أى امرأة كفيل أن يمنحها كل تلك الصفات ، فهى لم تكن على تلك الدرجة من التفاؤل وقوة الإراده والتحلد فى مواجهة المحنة والشدة إلا بسبب وجود هذا الجنين واحتواء كيانها عليه ؟ فكل الأخبار والأحداث التى رويت – وهى لا يتطرق إليها الشك – تقول إن هذا الطفل أى مكان يوجد فيه تحل فيه البركة والأمن والسلام ، فلا شك أن كيان الأم تلبست بها كل تلك الصفات حينما اشتمل كيانها على هذا الجنين .

ويخرج الوليد إلى العالم جميلا وضيئا وسيما ، فقد ورث عن أبيه جمال الخلقة " ولا نكران لما كان عليه ((عبدالله))من الوسامة والوضاءة وغضارة الشباب ، سواء حفظت لنا السيرة قصة من تلك القصص أو جاءتنا غفلا منها فقد حفظت لنا رؤية العيان أنه كان وأخوته يطوفون بالكعبة مع أبيهم فيأخذون بالأبصار ولم يصف الواصفون بنى هاشم بدمامة أو معابة فى الخلق والصورة، حتى فيما وصفهم به الشانئون وطلاب العيوب "[8]

٧- أم الرسول محمد أمنة بنت وهب – د. بنت الشاطئ – صفحة ١٢٥وما بعدها
٨- مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية – عباس محمود العقاد – صفحة (٢٢٣)

وغزت الفرحة والسعادة قلب كل من رأى أو سمع بمولد الطفل فى بيئة يولد فيها الأطفال كل آن وحين ، حتى أن عم الطفل ((أبو لهب)) كافأ الجارية التي حملت إليه خبر مولد الطفل بأن أعتقها ، ولكن كما أن الأحزان قد يرغم الإنسان على مكابدتها ، قد يرغم أيضا على الأفراح والتنعم بها .

وما هى إلا أسابيع أو بضعة أشهر حتى تسلمه أمه إلى مرضعته ، ويمضى الطفل سنواته الأولى فى مضارب (بنى سعد) وتلك البادية كان لها أثر محمود على شخصيته ومنطقه وصفاء ذهنه وطبعه بالطابع البدوى من صدق وصراحة ووضوح وجرأة وقوة واعتماد على النفس " وأقام محمد فى الصحراء ترضعه (حليمة) وتحضنه الشيماء ويجد هو فى الصحراء وخشونة عيش البادية ما يسرع به إلى النمو ويزيد فى وسامة خلقه وحسن تكوينه . فلما أتم سنتيه وآن فصاله ذهبت به حليمة إلى أمه ثم عادت به إلى البادية رغبة من أمه فى رواية ، ومن حليمة فى رواية أخرى . عادت به حتى يغلظ وخوفا عليه من وباء مكة . وأقام الطفل بالصحراء سنتين أخريين يمرح فى جو باديتها الصحو الطلق لا يعرف قيدا من قيود الروح ولا قيود المادة "[9]

شخصية إنسانية فى بداية تكوينها تستمد مقوماتها من الزمان والمكان وكان للمكان تأثير قوى ، حتى أن الرسول لم ينس تلك السنوات وأقر بأنها كان لها تأثير طيب وحميد " وأقام محمد - ﷺ - فى بنى سعد إلى الخامسة من عمره ينهل من جو الصحراء الطلق روح الحرية والاستقلال النفسى ، ويتعلم من هذه القبيلة لغة العرب مصفاة أحسن التصفية حتى لقد كان يقول من بعد لأصحابه ((أنا أعربكم أنا قرشي واسترضعت فى بنى سعد من بكر) وتركت هذه السنوات الخمس فى نفسه أجمل الأثر وأبقاه "[10]

---

٩ - حياة محمد – محمد حسين هيكل – صفحة (١٠٣)
١٠- المصدر السابق – صفحة (١٠٥)

ويعود الصبى إلى أمه ؛ لينعم بقربها وتسعد بأنسه وحبه . ترى فيه صورة الزوج الحبيب . فبعد مرور تلك السنوات لم تنسه . كيف تنساه وها هو الآن يذكرها به . فالصبى شديد الشبه بأبيه .

وتصحب الأم ابنها أو رجلها لتزور قبر زوجها . وتلك الزيارة – بعد مرور تلك السنوات – لتدل دلالة قوية على عظيم نبل تلك الشخصية وعظيم وفائها وشدة حبها لزوجها . وهو وإن مات فإن حبه لم يمت فى قلبها . ولم تستطع السنوات أن تنال من سمو وفائها له " رأت ((آمنة)) – وفاء لذكرى زوجها الراحل – أن تزور قبره ب ((يثرب))فخرجت من ((مكة)) قاطعة رحلة تبلغ خمسمائة كيلو متر فى الذهاب غير مثليتها فى الإياب . ومعها فى هذه السفرة الشاقة ابنها ((محمد)) ﷺ . وخادمتها ((أم أيمن)) . وعبد الله لم يمت فى أرض غريبة فقد مات بين أخواله بنى النجار "[11]

رحلة تضم الصبى وأمه وخادمتها . وكأن الأم اختارت هذا لتكون هى وابنها فقط . إنها رحلة فى المشاعر والأحاسيس . تعطى الأم الحنون الكثير من الحب والعطف . ويأخذ الابن من أمه الكثير من الرعاية والاهتمام والحدب .... لا بل كان هناك ثالث يشاركهما فى تلك الرحلة . وهو الزوج الغائب . فلا شك أن حديث الأم طوال تلك الرحلة عن زوجها . قصت كل ما تعرفه . وكل ما تشعر به نحوه من حب على مسامع ابنها . ولا شك أن الصبى تشرب وتأثر بالكثير من أمه ومما سمعه عن أبيه . فهو المقصود من تلك الرحلة . وإلا لو كان الأمر متعلقا بالزوجة لذهبت وحدها وجنبت ابنها وعثاء السفر ومشقة الطريق . إنها ليست رحلة إطارها الزمان والمكان . ولكنها خرجت من هذين الإطارين الضيقين لتنقل الصبى إلى عالم رحب من المشاعر والإحاسيس مستمد من ذكرى أب وزوج . ولكن الذكرى هنا يحفها الشجن والأسى . ولا شك أن تلك الرحلة – أثناء الذهاب – قد

١١- فقه السيرة – الشيخ محمد الغزالى – صفحة (٥٦)

أصلت فيه وأكدت مشاعر فقده للأب ، وزادته قربا والتصاقا – عن ذي قبل – بأمه " وقد ظل محمد عليه الصلاة والسلام لدى أخواله قريبا من قبر أبيه نحو شهر ، ثم قفل عائدا إلى مكة ، وإذا المرض يلاحق أمه ويلح عليها في أوائل الطريق فماتت بـ ((الأبواء)) وتركته وحيدا مع الخادم المشدوهة لحال طفل يفقد أباه وهو جنين ويفقد أمه وهو ابن خمس سنين !إن المصاب الجديد نكأ الجروح القديمة "[١٢]

خرج الصبي ومعه أمه ليزور قبر أبيه . ويشاء القدر أن يعود إلى مكة بلا أم أيضا ، أي قلب يتحمل كل تلك الآلام والمشاعر وهو ما يزال غضا طريا ؟ وتشاء إرادة الله أن يتحمل وحده الصدمة وهو يرى أمه تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وتدفن على مرأى ومسمع منه ... إنه عائد إلى مكة من رحلة الألم والشحن واليتم " وعادت أم أيمن بالطفل إلى مكة منتحبا وحيدا يشعر بيتم ضاعفه عليه القدر فيزداد وحشة وألما ، لقد كان منذ أيام يسمع من أمه أنات الألم لفقد أبيه وهو ما يزال جنينا، وها هو ذا قد رأى بعينه أمه تذهب كما ذهب أبوه . وتدع جسمه الصغير يحمل هم اليتم كاملا ، وزاد ذلك في إعزاز عبد المطلب إياه ، مع ذلك بقيت ذكرى اليتم أليمة عميقة في نفسه حتى وردت في القرآن إذ يذكر الله نبيه بالنعمة عليه فيقول ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ ﴾ الضحى: ٦ ـ٧ "[١٣]

إنه صهر وصقل للشخصية ، ولا يصهر ولا يصقل الشخصية مثل آلام وأحزان وأشجان اليتم ، وما حدث لمحمد نوع من التمحيص ، رفع لقدرة التحمل توطين النفس وتمرينها وتدريبها وهي ما تزال في ضحاها ؛ لتكون قادرة – بعد ذلك – على تحمل جميع أنواع الأزمات والمحن ، ليس هذا فحسب ، بل تكون قادرة على الارتقاء والارتفاع فوق تلك الأزمات والمحن ، فهناك خيط موصول بين الألم والحزن وتلك النفس، فما تكاد تنتهي الأم من حديثها عن الأب الفقيد ، ويمتلئ

١٢- المصدر السابق – صفحة (٥٦)
١٣- حياة محمد – محمد حسين هيكل – صفحة (١٠٦)

قلب الصبى بمشاعر اللوعة نحو أب لم يره حتى يتجرع الآم اليتم بفقد أمه " ومن اليسير أن نعلم وقع هذه الفاجعة فى نفس الصبى اليتيم ، فيجدد له مصابه فى أبيه . فلا يكاد يبرح ضريحه حتى يقف على ضريح أمه مهجورا فى عرض الطريق .

إلا إن هذه الفاجعة بما تدل عليه أهم فى دراستنا هذه مما خلفته فى نفس الصبى الصغير. مصابه فى أبيه و مصابه فى أمه . ولم يزل صبيا صغيرا حين أطبق عليهما مصابه فى جده الذى ضمه إليه بعد فقده أبويه . لو نفس صغيرة تتابعت عليها هذه الضربات فى صباها لسحقتها واستنزفت كل ما حوته من عطف وأمل فلا تعيش – إن عاشت بضرباتها – إلا كما تعيش الأشباح فى ظلمات الحياة .

فإذا وجبت لنا وقفة عند هذه الضربات التى تلقاها الصبى فأول ما نقف لديه وأولاه بالوقوف الطويل أنها دلالة على القوة فى مكمنها وعلى الروح العظيم الذى تجلى بعد ذلك فى تاريخ بنى الإنسان كفؤا لأعظم الأعباء وأفدح الخطوب . وتلى ذلك وقفتنا أمام العطف الذى أفادته تلك النفس القوية من ضربات تسحق ما دونها وتنزف منها كل عطف وأمل . وقد خرج الصبى من تلك الضربات القاصمة بالعاطفة الزاخرة التى تشمل العالمين ، عالم الحياة وما بعد الحياة ، مذ كان أحب الناس إليه فى عالم آخر لا تبديه له هذه الحياة . وجاءت بعثته إلى الناس كافة باسم الله الرحمن الرحيم ، ولعله أول فتح أطل عليه من فتوح عالم الغيب فاستمد منه بعد ذلك قوته التى دان لها هذا العالم المشهود دنياه بعد ذلك أوسع من دنيا الناس ، وأعم من دنيا الأحياء ، وحاجز الموت عنده برزخ تتصل به الدنيا والآخرة ، ويعيش فيه الحى والميت ولا ينتقل فيه الخلق فى دنياهم ليهلكوا آخر الدهر بل ليعيشوا آخر الدهر خالدين " [14]

ضربات قاصمة ومزلزلة لتنزع منه أى ميل إلى الدعة أو الرخاوة وتزرع مكانهما أن الحياة جهاد وكفاح ونضال . لقد نزع القدر منه أى سند يستند

١٤- مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية - عباس محمود العقاد - صفحة (٢٣٢ ــ ٢٣٣)

إليه ، أو حصن يتحصن به أو ملجأ يلجأ إليه ، ليتعود ويتعلم أن كل هؤلاء ليسوا موجودين خارج ذاته ، وإنما داخل ذاته ، لأنه سيأتى حين عليه يكون وحيدا فى مواجهة العالم بدون سند أو حصن أو ملجأ ، نعم إن كل هذا ترك ندوبا غائرة فى تلك النفس لا تمحو ، فقد كان محمد متواصل الأحزان مهمومًا ، ميالاً إلى العزلة صموتًا ، سريع التأثر ، متأجج الشعور والإحساس ، يقظ الوجدان ، حيى الضمير. إن تلك الذكرى لم تمح من ذاكرته " ومع ذلك بقيت ذكرى اليتم أليمة عميقة فى نفسه ، وطالما حدث أصحابه بعد مبعثه عن رحلته تلك الأولى ، حديث محب ليثرب ، محزون لما تحوى القبور من أهله بها . وفى الخبر أن رسول الله ﷺ زار قبر أمه بالأبواء فبكى وأبكى وروى عن ((عائشة)) رضي الله عنها أنها قالت : ((حج بنا رسول الله ﷺ حجة الوداع ، فمر على قبر أمه وهو باك حزين مغتم ، فبكيت لبكائه ﷺ)) "[15].

بعد مضى كل تلك السنوات يبكى حينما يمر على قبر أمه ، إن هذا لا يكون إلا إذا كانت حادثة الموت قد أثرت فيه أبلغ تأثير .

لا أب .

لا أم .

كنبت وحيد فى صحراء قاحلة محرقة ، يكاد الظمأ أن يقتله ، ويمضى الصبى سنوات عمره متنقلا بين كفالة جده ومن بعده عمه ، ومهما كان حدب وعطف وحب الجد والعم ، فإنهما لا يعوضان ما يمنحه الأب وما تسخو به الأم ، ولا شك أن عدم وجود الأب والأم قد أورث الصبى إحساسا بالحرمان والفقد ، وظمأ دائم إلى الحب والحنان ، ففى تلك السنوات الإنسان أشد ما يكون حاجة إلى الأب أو الأم ، فهو فى مرحلة نمو وتكوين وجدانى ونفسى وعقلى ، هناك شئ يكون فى حاجة إلى الإمداد والعطاء ، فى حاجة إلى عناصر أساسية لا غنى عنها ولا

١٥- أم الرسول آمنة بنت وهب – د. بنت الشاطئ – صفحة (١٦٨)

بديل لها ولا عوض عنها . لكى يكون الكيان سليما معافيا . وليس معنى ذلك أن الكيان النفسى والوجدانى قد أصيب بنقص أو انحراف أو اضطراب . ولكنه يكون لديه ميل أكثر من غيره . وحاجة أشد من غيره إلى هذا الشئ الذى عانى من نقصه أو كابد من حرمانه . وقد يمضى هذا الإنسان عمره لا يشعر بهذا النقص أو الحرمان ذلك حينما تهيأ له الأقدار من يروى هذا الظمأ ويسد هذا النقص ويرضى هذا الشعور . وقد يتسامى هذا الإنسان ويرتفع وبدلا من أن يشعر بالنقص والحرمان والظمأ ويطلب ويستمد من الآخرين . نجد فيضا من العطاء والرى والمعونة للآخرين لا سيما للذين عانوا ومروا بما مر به ... يرى فى كل يتيم نفسه . ويشعر بالحب والعطف . فهذا اليتيم فى مسيس الحاجة إلى اليد الحانية التى تمتد إليه تمسح جراحه . وتكفكف دمعه . كما كان وهو صغير .يرى فى كل أم أمه العطوفة الحانية التى حرم منها . يرى فى كل رجل أباه الذى لم يره ولم ينعم بعطفه . لا يرى فى اليتيم إنسانا فى حاجة إليه بل اليتيم هو نفسه . يجسد معاناته .

هنا الشخصية انتصرت على نفسها ... تسامت ... ارتفعت فوق الآمها بجراحها . تحررت من قيودها . فالنفس الإنسانية لها مواقف إزاء ما تتعرض له من محن وشدائد ومصاعب على مدار حياتها :

- أما أن تأخذ موقف المنتقم ممن كان سببا فى تلك المحن والشدائد . ترى فيمن حولها السبب - بطريق مباشر أو غير مباشر - فيما حدث لها . هنا أصبحت النفس قوة انتقام فى حد ذاتها . طاقة ثأرية مدمرة تريد أن تطفأ نارها بأن تحرق كل من تصادفه فى طريقها . وفى النهاية تحرق ذاتها .
- أن تأخذ موقف المسامح لما حدث لها وتصفح عمن كان سببا فى هذا وتنسى أو تتناسى كل تلك المحن والشدائد . وإن كان يظل قابعا فى أعماق تلك النفس إحساس بالألم والمرارة . ولكن كل هذا لا يتطور إلى

سلوك أو أفعال معبرة ، مجرد إحساس ومشاعر تؤلم صاحبها إن استعاد ذكراها وملابساتها

- حينما تتجرد النفس من ذاتيتها الضيقة التى كابدت وعانت وتألمت وتفصل بينها وبين تلك الآلام والمعاناة والمكابدة ، وتخرج من هذا النطاق بعملية أو بتجربة إدراكية ومعرفية ، تؤكد أن هناك أفرادا يعانون ويكابدون ، والنفس هنا لا يشغلها شاغل ولا يقلقها أمر سوى معالجة ومداواة هؤلاء الأفراد ، ورفع الحرج والعنت والشدة عنهم ، هو لا يداوى ولا يعالج ذاته ، ولكنه يعالج الجنس البشرى كله ، أو قل أن ذاته ذابت وانصهرت ، أو أن نفسه اتسعت ورحبت وسمت وارتقت لتجسد الجنس البشرى أو يتجسد فيها الجنس البشرى ، نرى هذا فى الشهداء والثوار والمصلحين والأنبياء ، وعلى رأسهم محمد سيد الأنبياء .

فى ضوء هذا المؤثر (اليتم) تتضح الكثير من جوانب شخصية محمد فهناك جانب هام من جوانب شخصيته وهى (الرحمة) ولا نقصد أن نقول أن الرحمة جانب أو مظهر أو خصيصة من خصائص شخصيته فقط ، بل أن شخصيته طبعت وصيغت وتكونت على الرحمة وبالرحمة ، وأن كل تصرفاته وأفعاله والمحرك الأساسى لتلك الشخصية هى الرحمة ، والمفسر والموضح لكل الأقوال والتصرفات .

وتأصلت تلك الصفة وتعمقت وتغلغلت فى شخصيته حتى صارت فطرية وغريزية ، فلا هو الذى أودعها ، ولا يملك أن ينتزعها ،وإنما هو مدفوع إليها دفعا مساق إليها ، ولا يظن ظان إن إرادة محمد هنا غائبة أو مسلوبة ، بل لا تظهر إرادته كأوضح وأكمل ما تكون الإرادة إلا وهو يتصرف بمقتضى تلك الفطرة والغريزة ، لأنه يفعل هذا بكل الحب والرضا ، وأظن أن من يفعل شيئا دافعه الحب والرضا لن يكون مسلوب الإرادة .

صفته ... الرحمة . ثم تتجسد تلك الرحمة فى صور متعددة ، فهو رحمة فى صورة الزوج ، وهو رحمة فى صورة الأب ، وهو رحمة فى صورة الصاحب وهو رحمة فى صورة القائد وهو رحمة فى صورة الرسول وهو رحمة فى صورة النبى.

ومن أجل هذا ... لا نستطيع أن نقول أن محمدا كان زوجا وكفى بل أكثر من ذلك

وإنه لم يكن أبا وكفى ، بل أكثر من ذلك .

وإنه لم يكن صاحبا وكفى بل أكثر من ذلك .

وإنه لم يكن قائدا وكفى بل أكثر من ذلك .

وإنه لم يكن رسولا وكفى بل أكثر من ذلك .

وإنه لم يكن نبيا وكفى ، بل أكثر من ذلك .

وقد يقال إن كل الأزواج رحماء ، وكل الآباء رحماء ، وكل الرسل والأنبياء رحماء ولكن الرحمة مع محمد تختلف عن الرحمة مع غيره ، فمع غير محمد تجئ الرحمة على قدر دواعيها ، فإذا كان الأب رحيما ، فقد تمتنع الأبوة وتمتنع تبعا لذلك الرحمة أو قد تقل أو تزيد .

ولكن محمد رحيما بالمرأة حتى ولم لم يكن زوجا ، ومحمد رحيما بالأبناء حتى ولو لم يكن أبا ، ومحمد رحيما بالرجال حتى ولم يكن صاحبا أو صديقا ومحمد رحيم بالجنس البشرى حتى لو لم يكن نبيا أو رسولا .

السبب الرئيسى والجوهرى فى تعدد زوجاته هو الرحمة . فهو رحيم بالمرأة التى مات عنها زوجها ولا كفيل لها ، وهو رحيم بالمرأة الشريفة التى وقعت فى الأسر فرحمها من ذل المهانة والضعة ، وهو رحيم بالمرأة التى تخلى عنها قومها لأنها ... الدعوة الجديدة . وهو رحيم بالمرأة التى أسنت ولم يعد يرغب فى ... أحد من الرجال ... وكان محمد يستطيع أن يعوض هؤلاء النسوة بأى صورة من صور التعويض والجبر والمواساة بالمال أو يزوجهن بأحد من أصحابه ، ولكن

obeikandi.com

تأبى رحمة محمد إلا أن تشمل هؤلاء النسوة . وهو رحيم بذكرى المرأة سواء كانت زوجته – خديجة رضى الله عنها – أو من كانت تعرفهن . وهو رحيم كأب بالأطفال ويتضح ذلك من مسلكه تجاه (زيد بن حارثه) إلى الدرجة التى يدعيه ابنا له . وهو رحيم بأولاده . انظر إلى فرحته وابتهاجه يوم ولد ابنه (إبراهيم) وانظر إلى حزنه ولوعته لموته . " ولد إبراهيم !

ولد الطفل الذى نظر أبوه إليه يوم مولده فامتد به الأمل مئات السنين بل ألوف السنين . وتخير له الاسم الذى وراءه أعقاب كأعقاب جده الأعلى . ليكون أبا ويكون له أحفاد ويكون لأحفاده من بعدهم أحفاد .

ثم مات ذلك الطفل الصغير.

ومات ذلك الأمل الكبير.

مات كلاهما والأب فى الستين .... أى صدمة فى ختام العمر ؟ أى أمل فى الحياة ؟ الدين قد تم، وهذه الآصرة قد انقطعت . فليس فى الحياة ما يستقبل وينتظر : كل ما فيها للاشاحة والإدبار .

مات الطفل ولما يدرك السنتين .

مصاب صغير إن كانت المصائب تقاس بسنوات المفقودين .

ولكن المصائب فى الأعزاء إنما تقاس بمبلغ عطفنا عليهم . والصغير أحوج إلى العطف من الكبير المستقل بشأنه .

إنما تقاس بمبلغ تعويلهم علينا . وتعويل الصغير على وليه أكبر من تعويل الكبير وإنما تقاس بمبلغ الأمل فيهم والأمل يطول فى بداءة الطريق وقد يقصر فى منتصف الطريق .

ما تخيلت محمدا فى موقف أدنى إلى القلوب الإنسانية من موقفه على قبر الوليد ذارف العينين مكظوم الوجد ضارعا إلى الله .

نفس قد نفثت الرجاء فى نفوس الألوف بعد الألوف ، وهى فى ذلك الموقف قد انقطع لها رجاء عزيز: رجاء وأسفاه لا يحييه كل ما ينفثه المصلح فى الدنيا من رجاء .

وكأنى بمحمد كان يومئذ أقرب إلى قلوب الخالفين من بعده مما كان مع الجالسين حوله ومع أقرب الناس إليه "

" وبمقدار هذا الفرح الطهور يوم الاستقبال . كان الحزن الوجيع يوم الوداع:

خرج الرجل الذى اضطلع بأعباء الدنيا ومن فيها وهو لا يضطلع بحمل قدميه : خرج يتوكأ على صديق عطوف إلى حيث يحمل الوليد آخر مرة فى حجره الأبوى قبل أن يودعه حجر التراب . وكان يستقبل الجبل بوجهه فقال : يا جبل ! لو كان بك مثل ما بى لهدك . ولكن إنا لله وإنا إليه راجعون .

أى والله ! إنها لإحدى الفواقر التى يحملها اللحم والدم ولا تحملها صخور الجبال . وصرخ أسامه حين بكى رسول الله . فنهاه رسول الله وقال : البكاء من الرحمة والصراخ من الشيطان " [١٦] .

- كذلك دفعه إحساسه باليتم إلى العزلة والابتعاد عن قومه وفيما يخوضون فيه فلم تقص السيرة عن أى علاقة نشأت بين محمد وبين المحيطين به فى سن تنشأ العلاقات وتتوثق ، فقد كان قليل الاختلاط حتى بمن يقاربونه فى السن والمنشأ . وربما هو الذى مال إلى أن يعمل بحرفة الرعى لأن تلك المهنة لا تتطلب أن يتعامل أو يختلط بالآخرين ، بل تتيح له أن يمارس ما تميل إليه نفسه من العزلة والوحدة والتأمل والتفكير . وأن يمضى سحابة نهاره فى حضن الطبيعة بسمائها الصافية ، وهواؤها العليل وسهولها المنبسطة وجبالها الوقورة ، وربما أحياء مكة اللاهية وما يخوض فيه شبابها وفتيانها لم يكن يحرك فى نفسه ما تحركه وتثيره الإنفراد بنفسه ، فهو يجد الراحة كل الراحة

١٦- عبقرية محمد – عباس محمود العقاد – صفحة (١٤٢) وما بعدها

فى هذا الابتعاد وتلك العزلة وبقدر ضعف علاقاته وهوان ارتباطاته بهذا العالم بقدر قوة ومتانة علاقته بعالم آخر يجد سلواه وعزائه . وليس معنى ذلك أن فى شخصية محمد نوعا من الانحراف أو عدم التكيف مع من حوله . فهو يشعر بكل ما يدور حوله ويعيه ويدركه وتميل نفسه إلى ما تميل إليه نفوس الشباب والفتيان فى تلك المرحلة من العمر . ولكن هو لا يجد متعته وسعادته فيما يجدها الشباب " روى ابن الأثير : قال رسول الله ﷺ : ((ما هممت بشئ مما كان الجاهلية يعملونه غير مرتين . كل ذلك يحول الله بينى وبينه. ثم ما هممت به حتى أكرمنى رسالته . قلت ليلة للغلام الذى يرعى معى بأعلى مكة : لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب . فقال : أفعل . فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفا فقلت : ما هذا ؟ فقالوا عرس فلان بفلانه . فجلست أسمع فضرب الله على أذنى فنمت فما أيقظنى إلا حر الشمس فعدت إلى صاحبى فسألنى فأخبرته . ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك . فسألنى فأخبرته . ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك . ودخلت مكة فأصابنى مثل أول ليلة ... ثم ما هممت بعده بسوء "

وإن كان بعض علماء الحديث يضعف هذا الحديث . إلا أنه يدل على ما تتصف به شخصية محمد . أو لا يخالف ولا يعارض المشهور عن سيرته . فهو يريد أن يسمر ((كما يسمر الشباب)) ولكن هذا الخاطر كان ابن لحظته . فلم يسبقه تمهيد ولا إعداد ولا تهيئة ولا مواعدة . ولم يتخذ له صاحبا فى هذا الأمر . وكأنه نوع من حب الاستطلاع أو الفضول ليس أكثر . ولو اعترضه أى معترض ولو كان هينا ما ذهب . وربما لو سار بعض الوقت فى طرقات مكة لعاد من حيث أتى . ثم أنظر ((فجلست أسمع)) فهذا الأمر لا يعنيه فى قليل أو كثير . ثم نام . نعم فليس هذا ما يمتعه . وليس هذا ما يشوقه وليس هذا ما يدخل السرور إلى قلبه . فكل هذا غريب عنه . وليس هنا مكانه ... ثم يكرر الأمر مرة أخرى . ويحدث ما حدث فى

المرة الأولى . وينام ولا يستيقظ إلا فى الصباح ! ولو كرر محمد ما فعله ألف مرة لنام ألف مرة . لسبب بسيط ، أنه كون له عالما . هذا العالم يجد فيه ما يشتهيه من متع الروح وما تميل إليه نفسه من هدوء وسلام وسكينة ، وما يهفو إليه عقله من تأمل وتفكر وما يستريح إليه ضميره من أمن وإنشراح ، وما تطلبه نفسه من سعادة وسرور .

أما وأن هذا عالمه ، الذى يرضى فيه روحه وعقله وضميره ونفسه ، فما شأنه بعد ذلك بعالم الناس ، وما ضره إن فاتته متعة أو لذة أو بهجة من هذا العالم؟ بل هو لا ينتظر أو يتوقع أى شئ يسره من هذا العالم ، فلديه رصيد وزخيرة هائلان من المشاعر والأحاسيس والخواطر ما يجعله يزهد ويرغب عن عالم الناس وما يخوضون فيه .

إن يُتمَ محمد قد جنبه الكثير والكثير . لقد ابتعد به مسافة عن الناس ، وما يشغلهم . هذا الابتعاد مكنه أن يضع كل شئ فى مكانه الصحيح بدون إفراط أو تفريط ، كما أن هذا الابتعاد أعطاه الفرصة أن يتأمل ويطيل التأمل ويفكر ويمد فى حبال التفكير . نعم إنه لم يصل إلى نتيجة عملية من هذا التأمل ، ولم يحصل على أمور عقائدية نتيجة هذا التفكير . ولكنه نوع من الإدراك الذى بدأ ينمو ، ووعى أخذ يتسع ، ومشاعر وإحاسيس طفقت تتسامى وترتقى .... ذات قلقة غير راضية عن هذا الوجود الفقير من متع الروح ، وغير قانعة بما عليه الناس من التهالك على متع الجسد ، وزاهدة فيما هم يدينون به من دين ويعتقدون من عقائد

" ونحن موقنون من مطالعة سيرة محمد عليه الصلاة والسلام بأنه طراز رفيع من الفكر الصائب والنظر السديد وأنه - قبل رعى الغنم وبعده وقبل احتراف التجارة وبعدها - كان يعيش يقظ القلب فى أعماق الصحراء ، صاحيا بين السكارى والغافلين .

obeikandl.com

وجو الجزيرة العربية يزيد خمول الخامل وحدة اليقظان . كالشعاع الذى ينمى الأشواك والورود معا . وقد كان محمد ﷺ يستعين بصمته الطويل . صمته الموصول بالليل والنهار . صمته المطبق على الرمال الممتدة والعمران القليل كان يستعين بهذا الصمت على طول التأمل . وإدمان الفكر واستكناه الحق ودرجة الارتقاء النفسى التى بلغها من هذا النظر الدائم أرجح يقينا من حفظ لا فهم فيه أو فهم لا أدب منه . ومثله فى احترام حقائق الكون والحياة أولى بالتقديم من أولئك الذين اعتنقوا الأوهام وعاشوا بها ولها " [١٧]

○ الفقر:

لا أحد ينكر أن للفقر تأثيرا كبيرا على الشخصية الإنسانية . فكثيرا ما كان الفقر هو المحرك الأساسى والرئيسى لبعض الثورات وللحركات الإصلاحية ؛ لأن الفقر بمثابة عوار أو عيب يعيب المجتمع الذى يوجد فيه . أو هو دلالة واضحة وأكيدة أن هناك خللا فى نظام هذا المجتمع . وأن هناك قوة مهيمنة أو قانون مسيطر تمثله أو تجسده مجموعة من الأفراد يفرضون نظرتهم أو فكرهم وأن تلك النظرة أو الفكرة تعتمدان على استغلال الآخر استغلالا غير إنسانى . وبمرور الوقت وتنامى واستفحال هذا الاستغلال تتكون مجموعتان أو فئتان : التى تملك كل شئ والتى لا تملك أى شئ . إلا بما تسمح به الطبقة الأخرى هذا إن سمحت . وينقسم المجتمع أو الجماعة أو العالم إلى هاتين المجموعتين . وينشأ الصراع بينهما . قد يكون مستترا أو معلنا . مباشرا أو غير مباشر . متخذا صورته الصريحة والحقيقية أو مرتديا أقنعة أو صورا كاذبة . وإن كانت تلك الأقنعة والصور لا تغير من حقيقة الصراع .

١٧- فقه السيرة – الشيخ محمد الغزالى – صفحة (٦٠)

وكانت نتيجة الصراع فى أغلبها دموية . دفعت الإنسانية فيها الكثير من دم أبنائها . وللأسف كانت الدائرة تدور على الفقراء . الذين لم يكن أمامهم إلا أمران : الخضوع والاستكانة وبذلك يقدمون حياتهم وثمرة جهدهم للأغنياء أو الثورة وبذلك يقدمون حياتهم ودمائهم ؛ لأنهم هم أول وقود لإشعال أى ثورة. فهم فى الحالتين يتكبدون الخسارة والبوار . حتى وإن قدر للفقراء الفوز والنجاح فإنهم بعد فترة يستغلون تحت أى شعار أو وراء أى أقوال براقة ؛ لأنهم لم يتعودوا أن يقودوا . وإنما ينقادون " فالمجتمعات القائمة كلها فى العالم اليوم . امتداد لهذا المجتمع الأول الفاسد الذى قام فى غفلة من الزمان . فالصراع متصل ما استمرت هاتان الطبقتان : إحداهما تعيش على حساب صاحبتها . لأنهما طبقتان متخارجتان – بلغة أهل الفلسفة _ كسب إحداهما خسارة الأخرى ولا بد .

وما التاريخ فى حركته . منذ الأزل إلى اليوم . إلا تاريخ هذا الصراع تطور بالناس – فى زعمهم – أطوارا ثلاثة . هى أطوار الحضارات الثلاث التى عرفها التاريخ : حضارة الرق والعبيد . وحضارة الإقطاع . ثم ما نحن فيه اليوم من الحضارة (البرجوازية) . أو حضارة المال ورؤوس الأموال " [١٨]

وعلى ما يبدو أن مشكلة الفقر من المشاكل التى ستظل مستعصية لا تجد لها الإنسانية الحل المثالي . وإنه إذا وجد شخصان فقط على وجه الأرض سيكون إحداهما فقيرا والآخر غنيا . وكأن الفقر والغنى أمران قدريان لا تستطيع الإنسانية الانفكاك منهما .

وليس للفقر تأثير متشابه على النفوس الإنسانية . فقد يدفع نفوسا إلى الجريمة والإفساد . ويشعل فيها مشاعر الحقد والكراهية والانتقام . ويؤجج عوامل الغضب والثورة والدمار . وقد يدفع نفوسا إلى الصلاح والاصلاح ويشيع فيه مشاعر الحب والتعاطف . ويؤصل أفكار المساواة والعدل والسلام بين الناس .

١٨- الإسلام والفكر المعاصر – د. حلمى مرزوق – صفحة (١٠)

فقد يتعرض شخصان لمؤثر واحد ويكون التأثر والوقع مختلفا ، ويرجع هذا إلى النفس ومعدنها . فإذا كان معدنها أصيلا فإن كل ما يصدر عنها طيبا وخالصا حتى لو كانت المؤثرات التى تعرضت لها مؤثرات قاسية وسيئة وطاحنة . فالله - عز وجل - خلق للنفس الإنسانية قدرة هائلة على التكيف ، وقلنا فيما سبق أن هناك عنصرين : الإرادة والوعى . تستطيع النفس أن تملك أمرها وتخرج من المآزق والأزمات كأحسن ما تكون . وكذلك لديها الوعى لتفاضل وتختار مع أى المؤثرات تنساق وتندفع ، ومع أى المؤثرات تتوقف وتعترض .

وقد كان للفقر تأثير قوى وشديد على شخصية محمد ، وقد يعيش الفقير فى مجتمع لا يشعر فيه بوطأة الفقر وثقله على نفسه . وقد يعيش الفقير فى مجتمع يشعر بحرج وعنت ما يسببه له الفقر . ومع هذا فإن هذا الحرج والعنت لا يترك ندوبا غائرة فى النفس ولا إحساسًا بالمرارة والأسى . فالمجتمع يراعى تلك الفئة - ما أمكنه - طالما لا يستطيع معالجتها العلاج الجذرى . وهذا واجب وفرض ، لأن إذا كان الفرد هو المسئول الأول عن فقره ، فإن المجتمع يعتبر المسئول الأكبر عن فقره .

وكان محمد يعيش فى مجتمع يجعل الفقير يشعر بوطأة وثقل الفقر ، ويجعله يشعر بالحرج والعنت ، ويجعله يترك ندوبا غائرة فى النفس ، ويخلف فى نفسه إحساسا بالمرارة والأسى . وكان مجتمعا لا يرعى فئة الفقراء بل يقسو عليهم قسوة لا تليق بالإنسان . بل قد يكون الفقر من أيسر السبل التى تدفع الفقير أن يقع فى أسر الرق والاستعباد ، ودفع - كذلك - البعض أن يجنى على نعمة الوجود بأن حرض بعض الآباء أن يقتلوا أولادهم ، وكان الفقر السبب الرئيسى وراء غارات بعض القبائل على القبائل الأخرى كى ينقذوا أنفسهم من مخالب وأنياب الفقر والحرمان . وكان القتل وسفك الدماء أهون عليهم من معاناة الفقر... إلى تلك

الدرجة نجح المجتمع المكى أن يجعل من الفقر شبحا مرعبا يلاحق الفقراء فى هجعتهم ويقظتهم ، فى منامهم وواقعهم .

وعلى قدر هذا الفقر المدقع الذى قد يدفع صاحبه إلى القتل أو قد يفقد وجوده أو حريته ويعانى ما يعانيه من بؤس ، على قدر الغنى الفاحش الذى يدفع صاحبه إلى الجبروت والطغيان والانغماس فى الشهوات والملذات بكل صورها وأشكالها ويمكنه المال من أن يسحق آدمية وإنسانية الآخرين .

فى هذا المجتمع المال هو القيمة الوحيدة المعترف بها ، أو هو مصدر القوة أو هو القانون الذى يحكم الجميع ويهيمن على مقدرات الناس .

ومحمد قدر له أن يولد فقيرا ، وزاد من إحساسه بالفقر يتمه . فقد يولد إنسان فقيرا ، ولكن وجود الأب يخفف من الإحساس بهذا الأمر . . فمجرد وجود الأب نوع من الإحساس بالقوة والاستغناء عن الآخرين .

وقد يكون الإنسان يتيما ، ولكن وجود المال يخفف عنه الإحساس بآلام اليتم إنه لن يمحيها ، ولكن اليتم لن يكون له هذا الإحساس اللاذع والوخذ المؤلم للوجدان وسيكون فى وجود المال سلوى وعزاء لليتيم . ويجد من الآخرين الرغبة فى إرضائه أو على الأقل لن يجد منهم الصدود والزهد فيه كما حدث مع محمد والمرضعات فقد صددن عنه وزهدن فيه . فما ترجو مرضع من يتيم وفى نفس الوقت فقير ؟

والذى زاد من إحساسه بالفقر أكثر . ما طبع عليه من الإحساس بالعزة والكبرياء والإعتداد بالذات ، ورثهم عن أجداده . فهم أسياد مكة شرفا ومكانة بلا منازع " ولد محمد – ﷺ – من أسرة زكية المعدن نبيلة النسب جمعت خلاصة ما فى العرب من فضائل ، وترفعت عما يشينهم من أوضار قال رسول الله – ﷺ – عن نفسه : ((إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بى هاشم " [١٩]

١٩- فقه السيرة – الشيخ محمد الغزالى – صفحة (٥٠)

نعم ، كان النبى من أسرة عريقة فى النسب وجمعت بين الثراء فى الفضائل والمكرمات ، والغنى فى المال ، وكان المال لديها وسيلة لتأصيل مكانتها الأدبية فى مكة " لقد كان بنو هاشم – أسرة النبى – أصحاب رئاسة ، كانت لهم أخلاق رئاسة عرفوا بالنبل والكرم والهمة والوفاء والعفة وبرزت كل خليقة من هذه الخلائق فى حادثة مأثورة مذكورة فلم تكن خلائقهم هذه من مناقب الأماديح التى يتبرع بها الشعراء ، أو من الكلمات التى ترسل إرسالا على الألسنة ولا يراد بها معناها .

كان هاشم غياث قومه فى عام المجاعة ، فبذل طعامه لكل نازل بمكة أو وارد عليها ، وسمى بالهاشم من ذلك اليوم لهشمه الثريد ودعوة الجياع إلى قصاعه . ومما يروى عنه إنه كان أول من سن الرحلتين لقريش رحلة الصيف ورحلة الشتاء وحقيقة ذلك مما يخلص لنا من سوابق الرحلات أنه كان يحمى تلك الرحلات وينظمها فنسب إليه أنه أول من سنها ، ومكانته فى غير قريش وفى مدن التجارة خاصة تدل عليه مصاهرته لبنى النجار فى المدينة ، وزواجه من سلمى بنت عم الخزرجية التى كانت – لشرفها وعزتها – تأبى أن تتزوج إلا أن يكون أمرها بيدها ولو لم يكن لهاشم مقامه فى الحجاز كله لما أصهر إلى القوم ولا ارتضى القوم هذه المصاهرة من رجل يزور مدينتهم زيارة الطريق بين مكة والشام "[٢٠] .

هذا فيما يخص جده الأعلى ، أما فيما يخص جده الأقرب " وقد اتفقت الروايات كلها على صفات عبد المطلب قبل الاتفاق على أخباره ، واتفقت الصفات والأخبار معا على ملامح شخصية قوامها الإيمان والحزم والوفاء وضبط النفس فى مواجهة القوة والخطر بعزيمة لا تتهور فى غير جدوى ، ولا تنكص على عقبيها خوفا من فوات الجدوى وكلها صفات جديرة بآباء الأبناء والمرسلين "[٢١] .

٢٠- مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية – عباس محمود العقاد – صفحة (١٩٢)
٢١- المصدر السابق – صفحة (٢٠٠)

حينما يرث محمد تلك الصفات والمكرمات والفضائل عن آبائه وأجداده فإن الفقر – وإن كانت لا ترفضه ولا تتبرم به – يكون له وقع غريب وعجيب على النفس ، لا يجعلها تشعر بالدونية والضعة ، ولكنه يؤجج فيها مشاعر الاعتزاز والإباء إنه بمثابة إنذار وإحساس بالخطر على النفس فتجد النفس مدفوعة إلى أن تعتصم وتلجأ إلى صفاتها الحميدة وخلالها الطيبة . فكل هؤلاء عوضٌ عن المال ، بل المال يتضاءل ويحقر بجوار تلك المكرمات والفضائل . فالمال أعجز وأهون من أن يوفر لصاحبه أو يجلب لمالكه مثل تلك الأشياء ، وربما قول عمه (أبو طالب) وهو يعرض ابن أخيه فى حفل زواجه من (خديجة) رضي الله عنها يلخص تلك المعانى ((إن محمدا لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا . وإن كان فى المال قلا فإنما المال ظل زائل وعارية مسترجعة ..)) .

لم ينل الفقر من اعتزاز محمد بنفسه أو نسبه . ولم ينل من شرفه ونبله . ولم يجعله يشعر بالحرمان أو الانكسار . وكل ما فعله الفقر فى شخصيته دفعه أن يعاهد نفسه أن يكون مع هؤلاء الفقراء بفكره وعقله ووجدانه . بل آثر أن يعيش عيشتهم ويسلك مسلكهم . لا يريد أن يفارق هؤلاء الصنف الضعيف المطحون المسحوق فى الحياة . ليظل موصولا بهم وموصولين به . ولا يغفل عنهم طرفة عين ولا يوجد إنسان على وجه الأرض فى تاريخ الإنسانية الطويل استطاع بمقدرة وكفاءة أن يعالج مشكلة الفقر . مثلما عالجها محمد . فقد عالجها علاجا جذريا وما تسنى له ذلك إلا بأن يكون واحدا منهم . فقد آلى على نفسه إلا أن يتخذ هذا المسلك . لأنه رأى أنه من الخطل أو من الزيف أن يعالج مشكلة الفقر وهو يعيش معيشة الأغنياء والسراة .لقد جرب الفقر وعاناه وعاش معه سنوات طويلة . ولم يزده هذا إلا قوة وصلابة وتصميما فى رفع الحرج والعنت عن هؤلاء . وأيقظ فى نفسه مشاعر العطف والحنو والحب لهم . فما له لا يعيش بقية حياته على هذا النمط والوتيرة التى عاشها فى صباه وطفولته ؟!

كان لليتم تأثير على شخصية محمد .

وكان للفقر تأثير على شخصية محمد .

وكان لليتم والفقر ممتزجان تأثير ثالث على شخصية محمد . وحينما امتزجا فى نفس محمد جعلاه يشعر أنه غريب عن المجتمع والمجتمع غريب عنه ، إنه لا يستطيع أن يتكيف أو ينسجم أو ينخرط مع من حوله .

فى البداية كان ابتعاد مرده الجفوة أو الكراهية ، أو قل إحساس ينتاب النفس أن لديه الكثير من الآلام والأحزان واقترابه من الناس وانخراطه قد يزيد من تلك الآلام والأحزان أو قد يثيرها أو يؤججها . مثل هذا الإنسان الجريح جرحا بليغا يتجنب – ما أمكنه ذلك – أن يعيش أو يسير بين الناس خوفا من أن يلمس أحد جراحه أو ينكأها أو يزيدها جرحا جديدا ، فهذا انطوى على نفسه يلعق جراحه علها تشفى مع مرور الأيام أو لعله يجد فى نفسه القوة على أن يتحملها ، وكان اشتغاله فى فترة الصبا بالرعى من أنسب الحرف التى تناسب حالته النفسية فهى تنأى به عن الناس وتجعله يعيش فى عالم آخر .

ومع مرور الوقت ، ومع طول التفكير والتأمل ، أصبح الابتعاد عن الناس يحقق له راحة واطمئنانًا وسلامًا وهدوءًا نفسيًا ، ومع هذه الراحة والهدوء والاطمئنان والسلام اتخذ موقفا عقليا وعمليا من المجتمع حوله ، فليس هذا العالم ولا هذا الوجود قدرا مقدرا على الإنسان ، فقد يرفضه فى قرارة نفسه ويتخذ منه موقفا إن لم يكن معارضا فليس هو بالقابل به أو الموافق عليه ، هذا الشخص يصنع لنفسه عالما آخر موازيا للعالم الواقعى الذى لا يرفضه رفضا كليا ، ولا يقبله قبولا تاما يجد كل السعادة حينما يخلو إلى نفسه ، متمركزا حول ذاته ، فذاته هى مركز هذا العالم الخاص به ، بعيدا عن ضجيج ولغط وصخب الناس حوله ، معرض وزاهد فيما ينغمس فيه الناس ، وهذا يفسر أمورا كثيرة فى حياته :

- فعلاقته الاجتماعية لم تكن متعددة أو متنوعة ، اللهم إلا ما يمت إليه بصلة القرابة والنسب . فلم يؤثر عنه أنه كون صداقات ، وإن كانت فالبكاد تعد على أصابع اليد الواحدة
- الحرف التى مارسها كانت الرعي والتجارة . ولا أظن أن الأمر طال به فى هاتين الحرفتين ، ولم ينبغ فى أى أمر مما قد ينبغ فيه رجل من قومه . فلا هو بالشاعر ولا الكاتب ولا الخطيب ولا القائد ... كيف ينبغ فى أمر من الأمور المتصلة بهذا العالم وهو لم يكن خالصا له ، وإنما كان عقله وفكره مشغولا ومعلقا بأشياء أخرى .
- احتياره غار حراء ليعتزل فيه . فالغار بعيد ومنعزل انعزالا تاما عن مكة وإن كان الانعزال والابتعاد مجرد رغبة طارئة تنتابه لاكتفى أن يقوم بهذا الابتعاد والانعزال فى بيته أو فى مكان قريب من مكة . أما أن يكون المكان بهذا الابتعاد والانعزال . ويداوم عليه بصفة دائمة ومستمرة لا تنقطع فإن هذا الأمر متعلق بجوهر شخصيته . ومكون من مكونات تلك الشخصية . فهو يريد أن يكون فى مكان ليس من هذا العالم . حتى يستطيع أن يتصل بعالم آخر . هو لا يعرفه ولا يتبين ملامحه ، ولا أبعاده ولكن شيئا غامضا يدفعه ويسوقه أن يستحضره ويعيشه بكل حواسه اشتغل فى طفولته راعيا فلم يمتز عن زملائه فى شئ غير استقامه سيرته وكرم شمائله وبعده عن السفاسف. فلما كبر اشتغل بالتجارة فكان كاوسط أهلها لم يبز أمثاله فى شئ غير أمانته فى الأداء . وعدالته فى المعارضة .

كل إنسان كتب له النبوغ فى عمل من الأعمال يظهر عليه ميل إليه فى طفولته . فمن قدر له أن يكون شاعرا أو كاتبا أو خطيبا أو حكيما و قائدا نمت حضرته عليه فندرت منه ، وهو طفل ما يدل على ما سينبغ فيه ، ولم يظهر على

محمد بن عبد الله ما يدل على ما سيؤل إليه غير ميل كان فيه إلى السكينة والتفكير وكلما تقدمت به السن ازدادت حاجته إليها حتى تأدى به ذلك إلى تمضية أيام بلياليها فى غار بقرب مكة يقال له حراء ، فكان يمضى فيه ثلاثة أيام وتارة سبعة وتارة تسعة وتارة شهرا ، يمكث فيه وحده متفكرا متدبرا . هذه هى الصفة التى ميزت محمد بن عبد الله عن غيره من أهل جيله ، وهى صفة لا يجوز أن تغفل أو أن يمر بها مرا ، لأنها مظهر ما استتر فى سويداء نفسيته من النزوع إلى أفق الروح والاتصال بعالم الملأ الأعلى ، وما لازمت هذه الصفة نفسا بشرية إلا وجهتها هذا التوجيه الروحى على قدر ما فيها من قوة ، ولقد كانت هذه الصفة مستوعبة شعور محمد استيعابا لا يدع لغيرها مكانا فيه ، بدليل لجوئه إلى غار موحش أياما وليالى متوالية يمضيها فى التفكير وتلمس المخرج من الحيرة . من أى ضرب كانت هذه الحيرة ؟ من الضرب الذى يشغل الكملة من أصحاب القلوب والبررة من أولى العزم تخليص النفس من ظلمات المادة وتخليص الغير منها "[٢٢]

وإن كان محمد سار على عادة بعض العرب فى الانقطاع والانعزال فترة من الوقت يتعبدون فيها إلا أن الأمر مع محمد كان أعمق وأصل . فلم يكن الانعزال والوحدة تعبد فحسب ، وإنما كان حاجة نفسية ، وراحة روحية ، فترة من الوقت تهدأ وتسكن وتصفو نفسه ، ليس هذا فحسب ، بل تسمو وتترقى ...اقتراب حميم من الذات ، ومعرفة يقينية بأحوالها ، وإدراك واع لطبيعتها وتصالح واتفاق مطلق مع نفسه وذاته ، كانت أمامه مدارج لانهائية تترقى فيها نفسه . إنها فترة تجميع خالص لقوى النفس ، تنظيم وإعداد لقدراتها ، معرفة واعية لمخزون طاقاتها ، محو وتبديد وتطهير وتذكية لما قد يعكر صفو تلك النفس إبعاد أى تشويش ، وإزاحة أى عرقلة لدرجة استعدادها لاستقبال ما ترسله السماء ، إنارة لكل مناحى وجوانب النفس ، بحيث لا يبقى منحى أوجانب خفى أو مبهم أو متوارعنه .

٢٢- السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة – محمد فريد وجدى – صفحة (٨٦- ٨٧)

ولا نعرف على وجه الدقة والتحديد ماذا كان يفعل أثناء خلوته وانعزاله تلك المدة ، وإن كنا ندعى أنه كانت تتفتح أمامه عوالم من المشاعر والإحاسيس وضروب وسبل من التأمل والتفكير ، وإنه بدأ فى نلمس أطراف أو ملامح عالم لا يسعى إليه سعيا حثيا فقط ، بل هذا العالم بجماله وبهائه وقدسيته وسموه يجذبه فى رفق ولطف شيئا فشيئا ، ويشعر بعملية انسلاخ من حالته البشرية ، وإن أحواله الأرضية تزايله ليتلبس بأحوال أخرى كلها [illegible] سعادة وأمن وسلام

" قد كان من عادة العرب إذ ذاك أن تنقطع مفكروهم للعبادة زمنا فى كل عام يقضونه بعيدا عن الناس فى خلوة يتقربون إلى آلهتهم بالزهد والدعاء ويتوجهون إليها بقلوبهم يلتمسون عندها الخير والحكمة وكانوا يسمون هذا الانقطاع للعبادة التحنف والتحنث وقد وجد محمد فيه خير ما يمكنه من الامعان فيما شغلت به نفسه من تفكير وتأمل ، كما وجد فيه طمأنينة نفسه وشفاء شغفه بالوحدة يتلمس أثناءها الوسيلة إلى ما لم يبرح شوقه يشتد إليه من نشدان المعرفة واستلهام ما فى الكون من أسبابها . وكان بأعلى جبل حراء – على فرسخين من شمال مكة – غار هو خير ما يصلح للانقطاع والتحنث . مكان يذهب إليه طوال شهر رمضان من كل سنة يقيم به مكتفيا بالقليل من الزاد يحمل إليه ، ممعنا فى التأمل والعبادة بعيدا عن صخب الناس وضوضاء الحياة ، ملتمسا الحق والحق وحده ، ولقد كان يشتد به التأمل ابتغاء الحقيقة حتى لقد كان ينسى نفسه وينسى طعامه وينسى كل ما فى الحياة ؛ لأن هذا الذى يرى فى حياة الناس مما حوله ليس حقا . وهناك كان يقلب فى صحف ذهنه كل ما وعى فيزداد عما يزاول الناس من ألوان الظن رغبة وازورارا " [٢٣] .

وما كان يفعله محمد كان يفعله بجهد بشرى خالص ، هو لا يدرى لماذا ... إن ما يفعله يحقق له السعادة والراحة والسلام ، ولا نستبعد رعاية وعناية وتوفيق

٢٣- حياة محمد – محمد حسين هيكل – صفحة (١٤٥ وما بعدها)

السماء له ، لأن ما يحدث داخل الغار يعجز أى بشرى أن يصل إليه بدون عون من السماء . فالمهمة التى سيؤديها محمد والدور الذى سيقوم به . ليست مهمة بشرية خالصة . وليس الدور محدود بزمان ومكان أو على قدر طاقة البشر ، أما والأمر كذلك فلابد أن تكون للسماء فى هذا الإعداد والتهيئة دور ما .

فى ضوء هذا التصور من الممكن أن نفهم حادثة شق الصدر . فما الذى حدث بالضبط وبالدقة وبكافة التفاصيل ؟ .

فى مكان محدد وفى زمان محدد وفى ظرف محدد وفى مرحلة محددة وفى حالة محددة تعهد ملكان محمدا بإعداد وتهيئة . أما صورة وكيفية الإعداد والتهيئة فالجزم هنا يفتح الباب لاعتراضات بعضها مبرر وبعضها لا مبرر له .والنفى هنا تهور ومصادرة لأساس من أسس الرسالات السماوية . وهو أن لا أحد من البشر يمكنه تلقى الرسالات بدون إعداد أو تهيئة مسبقة ، ويختلف هذا الإعداد وتلك التهيئة على قدر تلك الرسالة ، فإذا كانت هى آخر الرسالات من السماء إلى البشر وإذا كانت للبشر أجمعين ولكل زمان ولكل مكان ، وتتضمن معجزة من أعظم وأكبر وأقدس المعجزات ، فعلى قدر هذا يكون الإعداد والتهيئة .

وحينما ننظر إلى ما فعله وأنجزه محمد على مدى الثلاثة والعشرين سنة وهذا التغير الجذرى والشامل فى العالم وفى النفس الإنسانية ، فلابد أن يكون هناك مراحل من الإعداد ووسائل وأساليب من التهيئة تخضع للعقل وللطبيعة البشرية وسنن الكون ، وبعضها خارج نطاق العقل وفوق الطبيعة البشرية . " وشئ واحد هو الذى نستطيع استنتاجه من هذه الآثار ، إن بشرا ممتازا كمحمد لا تدعه العناية غرضا للوساوس الصغيرة التى تناوش غيره من سائر الناس ، فإذا كانت للشر ((موجات)) تملأ الآفاق ، وكانت هناك قلوب تسرع إلى التقاطها والتأثر بها فقلوب النبيين ـ بتولى الله لها ـ لا تستقبل هذه التيارات الخبيثة ، ولا تهتز لها.

وبذلك يكون جهد المرسلين متابعة الترقى لا فى مقاومة التدنى ، وفى تطهير العامة عن المنكر لا فى التطهر منه ، فقد عافاهم الله من لوثاته .

عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : ((ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينة من الملائكة . قالوا وإياك يا رسول الله ؟ قال : وإياى ، إلا إن الله أعاننى عليه فأسلم ، فلا يأمرنى إلا بخير)) .

وفى حديث عائشة ، قال لها رسول الله ﷺ : ((أغرت)) ؟ قالت : وما لمثلى لا يغار على مثلك ؟! فقال لها رسول الله ﷺ ((لقد جاءك شيطانك)) قالت أومعى شيطان ؟ قال : ((ليس أحد إلا ومعه شيطان)) . قالت : ومعك ؟ قال : ((نعم ولكن أعاننى الله عليه فأسلم ، أى انقاد وأذعن فلا يستطيع أن يهجس بشر .

ولعل أحاديث شق الصدر تشير إلى هذه الحصانات التى أضفاها الله على محمد ﷺ فجعلته من طفولته بنجوة قصية عن مزالق الطبيعة الإنسانية ومفاتن الحياة الأرضية " [1] .

٥ الوراثة :

قد يظن البعض أن العوامل الوراثية تؤثر فى الشخصية تأثيرا قسريا أى بدون إرادة من الشخصية ، وهذا خطأ ، فليست الوراثة قوالب جامدة تصوغ الشخصية وتشكلها تشكيلا لا انفكاك منه . فلا العلم أثبت أن للوراثة كل هذا التأثير ، ولا الواقع المشاهد أكد على هذا الأمر ، ولا المنطق والعقل أقرا بذلك ، لأن بيد الشخصية – وقد توافر لها الإرادة والوعى – أن تفسح من مجالات للتأثيرات الوراثية ، وتصل بها إلى أقصى مدى وأبعد شوطا ، وتؤصلها وتؤكدها ، بل تضف إليها من عندها ما يؤكدها ويجعلها قانونا معترفا به ، وبيد الشخصية – كذلك – أن تحصر تلك المؤثرات الوراثية فى أضيق نطاق ، بل أن تعمل على تبديدها ومحوها والخلاص منها بل وتأتى من التصرفات والأفعال ما يناقضها ويعارضها .

١- فقه السيرة – الشيخ محمد الغزالى – صفحة (٥٥)

إذن الوراثة ليست ضربة لاذب ، وإن جازت قوانين الوراثة على كل الكائنات ، فإنها لا تجوزمع الشخصية الإنسانية ، لأن هنا يتوافر عنصر الإرادة والوعي .

وقد تقوى العوامل الوراثية فى عائلة من العائلات ، وتصبح تلك العوامل عناوين يندرج تحتها الأجداد والأباء والأبناء ، ويصبح كل فرد ينطق بأثر تلك العوامل ، وتصبح العائلة مميزة وفارقة بين الكثير من العائلات ، ويعترف لها من حولها بتلك المميزات التى اتصلت بين الأفراد ، ويقوم أفراد تلك العائلة بتأصيل والتأكيد على تلك الميزات . والعمل على نشرها وذيوعها والدعوة إليها لا سيما وإذا كانت تلك المميزات والصفات تدعو إلى الفخر والاعتزاز . فهى تقود وتدفع أصحابها إلى الشرف والأريحية والنبل .

وتتوزع تلك الصفات والخلال بين أفراد العائلة بنسب متفاوتة ، فمنهم من تظهر فيه تلك الصفات ظهورا جليا وواضحا ، ومنهم من تظهر فيه بصورة ضعيفة ومتوارية وغير مباشرة ، ومنهم من تتجسد فيه تلك الصفات ويجسدها باللحم والدم والأعصاب . وبالتالى يتحول إلى قيمة في حد ذاته أو معايير ومقياس يقاس به الأشياء والنظائر .

ونحن هنا لن نتحدث عن أباء وأجداد النبى لنثبت الأثر الطيب والذكى والطاهر الذى ورثه الأباء والأجداد للنبى ، لأن البرهان القاطع والدليل الناصع على طيب ونقاء وطهر هولاء هو النبى ذاته ، فبه يدلل ويبرهن على كرم أجداده وليس العكس ، ولكن جريا على سنن الوراثة واسترشادا واستهداءا بقول الرسول ﷺ ((تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس)) وقوله : ((ولم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذبا ، ولا تتشعب شعبتان إلا كنت فى خيرهما)) .

واتساقا لدراستنا لشخصية النبى ، سنقف وقفة مع الآباء والأجداد لندلل أن الشخصية لا تتكون من فراغ ، أو تكون نهبا لأى تأثيرات عشوائية ، أو تخضع لمؤثرات تعتمد على الصدفة ، بل لنؤكد أن هناك أسسا ثابتة إن توافرت لها الظروف والأحوال سيكون لها تأثير بالغ فى الشخصية. وخروج النبى من تلك العائلة ليس بالمستغرب ولا هو بالعجيب، بل لم تكن هناك أسرة أخرى مرشحة لخروج النبى من بين أبنائها إلا تلك الأسرة ، فلها تاريخ مشرف فى خدمة بيت الله الحرام وخدمة زواره ، والأثر الطيب والعظيم الذى تركته فيمن حولها ، وتلك الألسنة التى تقر وتعترف وتشهد بما حظيت به تلك العائلة من المكرمات والمناقب التى لم تأت مصادفة ، ولكن كانت من خلال المجاهدة والكفاح والتضحية بذات النفس وذات اليد والزام النفس بأسلوب معين فى الحياة ، ليس فقط لينالوا الحمد والثناء من الناس ، ولكن لأن تلك طبيعة وخليقة فى شخصياتهم ، " منذ ثبت للبيت الحرام تلك المكانة العالية بين العرب كافة وجبت له أمانة الخدمة بما له من حق محفوظ وشرف ملحوظ ، ووجب لخدامه السمت الذى يجمل بهذا المقام وهو فوق مقام الرئاسة الدنيوية ، وعلى مثابة من مقام العبادة والتقديس ، ولم يقم بهذه الأمانة أحد كما قام بها أجداد النبى من بنى هاشم ، فقد حفظوا حقها ، وعرفوا سمتها ، بل طبعوا عليه فطرة بغير كلفة ، وبدا منهم الإيمان بها فى مأزق الشدة التى يمتحن فيها الإيمان بحب النفس وحب البنين فيغلب الإيمان على حب المرء لنفسه وحبه لبنيه "[٢].

وأى جماعة أو فئة أو عائلة تتصف بتلك الصفات ، لابد وأن تمتحن وتمحص ليعرف هل الاتصاف بتلك الصفات للشهرة والصيت ولمنفعة مادية ، أم

٢- مطالع النبوة المحمدية أو مطالع النور – عباس محمود العقاد – صفحة (١٨٩)

أن الأمر أمر صفات جوهرية فى الشخصية ... وعائلة النبى أبتليت بعائلة أخرى أرادت أن تنازعها وتنافسها فى تلك المكانة ، وهى عائلة (حرب بنى أمية) .

" وقد تنافس بنو هاشم وبنو أمية على هذا الشرف ، فأسفرت المنافسة بينهما عن فارق فى الطباع ملحوظ الأثر فى خلائق الأسرتين من أيام الجاهلية إلى ما بعد الإسلام بعدة قرون ، ومهما تجد من ندين متناظرين فى هاشم وأمية إلا وجدت بينهما هذا الفارق على نحو من الأنحاء .

كان بنو هاشم أصحاب عقيدة وأريحية ووسامة . وكان بنو أمية أصحاب عمل وحيلة ومظهر مشنوء ، وينعقد الاجماع أو ما يشبه الاجماع على أخبار الجاهلية التى تنم على هذه الخصال فى الأسرتين ، ويبقى الكثير منها إلى ما بعد قيام الدولة الأموية فلم يفندوه ، ومن هده الأخبار أخبار المنافرات المتتالية. تجمعها منافرة حرب وعبد المطلب إلى نفيل جد عمر بن الخطاب . إذ يقضى لعبد المطلب ويخاطب حربا قائلا : ((أتنافر رجلا هو أطول منك قامة وأعظم منك هامة وأوسم منك وسامة ، وأقل منك لامة ، وأكثر منك ولدا ، وأجزل منك صفدا وأطول منك مذودا : أبوك معاهر وأبوه عف : وزاد الفيل عن بلد حرام)) .

ويقول الكلبى فى أبناء عبد المطلب ((كانوا إذا طافوا بالبيت يأخذون بالأبصار)) "[٢٦] .

وتتجمع كل تلك الفضائل والمكارم والمحامد فى شخص واحد ، وتتكثف وتتركز ليكون بمثابة العنوان أو البرهان على أن تلك العائلة عريقة وأصيلة هى تلك الصفات ، وأن كل من حولها من عائلات قد ينسوا أن ينافسوها أو يجاروها فيما تفوقت فيه .... وهو عبد المطلب جد النبى . " كان عبد المطلب متدينا صادق اليقين مؤمنا بمحارم دينه فى الجاهلية لأن ثقة الإيمان طبيعية فى وجدانه وهو أول من

٢٦- المرجع السابق صفحة (١٩٠)

حلى الكعبة بالذهب من ماله . ويعنينا أنه كان فى الحق نمطا فريدا بين أصحاب الطبائع التى فطرت على الاعتقاد ومناقب النبل والإيثار.

فلم تكن مناقبه من مناقب الطابع والوتيرة التى تتكرر على صورة واحدة بين المتصفين بها ، ولم يكن كرمه ولا حزمه ولا شجاعته من قبيل الصفات التى تعرف بهذه الأسماء فى جميع الكرماء وذوى الحزم والشجاعة .

بل كانت مناقبه مطلبية تدل عليه ولا تصدر من غيره وكانت كلها مزيجا من الأنفة والرصانة والاستقلال ومواجهة الغيب على ثقة وصبر وأناة " [٢٧] .

" هذه هى ((المطلبية)) التى نعنيها فى خصال هذا الرجل العظيم لا تهور مع القوة الطاغية ولكن لا خضوع لها بل وضع لها فى موضعها ، وقول يناسب كل مقام . فإذا خامر الظن أحدا لا يفهم معنى هذه الأنفة التى تأنف من التهور كما تأنف من الجبن . فهناك الجواب الفعال الذى يغنى ما ليس يغنيه المقال · ما سألت عن الإبل لأننى أضن بأثمانها فإننى قد وهبتها بعد ذلك للبيت ، ولكنى سألت عنها لأنها موضع سؤالى وتركت السؤال عن البيت لأن استجداء الرحمة من أبرهة ينفى الثقة بالبيت وبالله " [٢٨] .

سيد مكة ، وخادم شريف وعزيز ونبيل من خدام البيت الحرام ، أصبح التدين لديه فطرة وغريزة مركوزة فى طبعه ، وملمح أصيل من ملامح شخصيته تفيض منه فيضا على أبنائه ، ويتلقونها كخير ما يتلقى الأبناء عن الآباء . وقد كان لديهم الاستعداد الفطرى والتقبل الوراثى والترحيب الخلقى ، عائلة لا نظير لها فى الاعتصام بالفضائل والخلق الكريم " أسرة لا تخرج النبوة ، وما خرجت قط من خير منها ، ونشأة النبى ﷺ فيها أصدق المقدمات التى قلنا أنها مقدمات التمهيد

٢٧- المرجع السابق صفحة (١٩٤)
٢٨- المرجع السابق صفحة (١٩٦)

والتحضيرَ إلا أنها كسائر المقدمات التى مهدت من جانب لتقيم المصاعب كلها من جانب آخر.

أسرة عزيز الآباء والأجداد . فخرها بالنسب أعظم من كل فخر وسيادتها بالخلائق الموروثة أثبت من كل سيادة "[٢٩].

وكان عبد المطلب – جد الرسول – قد نذر نذرا إن ولد له عشرة بنين لينحرن أحدهم عند الكعبة " وتوافى بنوه عشرة آنس منهم المقدرة على أن يمنعوه ؛ فدعاهم إلى الوفاء بنذره فأطاعوا . وفى سبيل هذا الوفاء كتب كل واحد من الأبناء اسمه على قدح ، وأخذها عبد المطلب وذهب بها إلى صاحب القداح عند هبل فى جوف الكعبة . وكانت العرب كلما أشتدت الحيرة فى أمر لجأت إلى صاحب القداح كى يستفتى لها كبير الآلهة الأصنام عن طريق القداح . وكان عبد الله بن عبد المطلب أصغر أبنائه وأحبهم لذلك إليه فلما ضرب صاحب القداح القداح التى عليها أسماء هؤلاء الأبناء ليختار هبل من بينها لينحره أبوه . خرج القدح على عبد الله فأخذ عبد المطلب الفتى بيده وذهب به لينحره حيث كانت تنحر العرب عند زمزم بين أساف ونائلة . إذ ذاك قامت قريش كلها من أنديتها تهيب به أن لا يفعل وأن يلتمس عدم ذبحه عن هبل عذرا . وتردد عبد المطلب لدى إلحاحهم . وسألهم ما عساه يفعل لترضى الآلهة ؟ قال المغيرة بن عبد الله المخزومى : إن كان فداؤه بأموالنا فديناه وتشاور القوم واستقر رأيهم على الذهاب إلى عرافة بيثرب لها فى مثل هذه الأمور رأى . وجاءوا العرافة فاستمهلتهم إلى الغد ثم قالت لهم كم الدية فيكم ؟ قالوا عشر من الأبل قالت فارجعوا إلى بلادكم ثم تقربوا وقربوا عشرا من الأبل ثم اضربوا عليه وعليها بالقداح . فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا الإبل حتى يرضى ربكم . وقبلوا وجعلت القداح تخرج على عبد الله فيزيدون فى الإبل حتى بلغت مائة عند ذلك خرجت القداح على الإبل . فقالت قريش لعبد المطلب وكان

٢٩- المرجع السابق صفحة (٢١٥)

أثناء ذلك واقفا يدعو ربه : قد رضى ربك يا عبد المطلب قال عبد المطلب : لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات ، وفى المرات الثلاثة خرجت القداح على الإبل فأطمأن عبد المطلب إلى رضاء ربه ، ثم تركت لا يصد عنها إنسان ولا سبع "[30].

هذه الحادثة – الفداء – تدل بلسان الواقع والوقائع على مقدار ما بلغته العاطفة الدينية والطبيعة التى جبلت على الإيمان والوفاء بما يقتضيه هذا الإيمان يقوم عبد المطلب بنذر للآلهة ، ويرزق بعشرة أبناء ، وبدون تردد أو مراجعة يأخذ الابن الذى وقع عليه الاختيار للفداء وهو والد النبى ، ويقصد به مكان الذبح كى يوفى بنذره ، الغريب فى الأمر أنه لا هو تراجع ، ولا أحد من الأبناء راجعه ، ولا عبد الله اعترض على هذا الأمر ، لقد استسلم الجميع ؛ لأنهم رأوا أن عدم إيفاء النذر قد يتسبب فى غضب الآلهة ، وهم يقدمون بالتضحية بكل غال فى سبيل رضا الآلهة أو قل أن تلك غريزة تتنزى فى كيانهم وشخصياتهم ، أنهم طالما وعدوا لا بد أن يفوا بهذا الوعد ؛ لأن نقض العهد والاخلال بالوعد نوع من اللؤم لا يليق بهم ويعارض ويخالف ما طبعوا عليه " ومن ارتضى قصة النذر هذه فنصيب عبد الله عنده أعظم من نصيب أبيه ، لأنه سلم حياته فدية لأحوته ، ولم ينكص عن طاعة أب وطاعة رب ومن يفعل ذلك ينبئ عن إيمان قوى بالواجب وإقدام على الموت فى ريعان الشباب ، وقد كان له أن يتمحل المعاذير فلا تعوزه الحيلة ، فكأى من رجل لا ينكر الدين ولا يمرق منه إذا سامه الدين ما يعز عليه لم تتعذر عليه الحجة للتحلل من فرائضه والاجتراء على أوامره ونواهيه "[31]

هذا هو الجد .

وهذا هو الأب .

وهؤلاء هم الأعمام .

٣٠- حياة محمد – د. محمد حسين هيكل – صفحة (٩٥)
٣١- طوالع البعثة المحمدية أو مطلع النور – عباس محمود العقاد – صفحة (٢٢٦)

لم تعد العاطفة الدينية لديهم تتملكهم فى أوقات معينة ، أو فى أماكن وأحوال وظروف محددة ، ولكن العاطفة الدينية تملأ أفئدتهم كل وقت وكل حين . لا بل هم يجسدون تلك العاطفة وهذا الميل كأروع وأقوى وأجمل ماتكون العاطفة ويكون الميل .

وكأن كل تلك الروافد كانت تصب فى مجرى واحد متجمعة لتمد هذا النهر المقدس بمياه مباركة طيبة . إنها أرومة طيبة وما كانت لتخرج إلا غصنا ذكيا طاهرا نقيا ، لقد كان محمد يمثل قمة وذروة هذا التمام والكمال والنزوع والميل الدينى . بما أعدته وهيئته الوراثة ، وجاءت النبوة لترتفع بهذا الإرث لتطوف به وتشرف به إلى أفق عليا من التمام والكمال الإلهى .

ولكن محمد – ﷺ – لم يستقبل تأثيرات الوراثة استقبالا غفلا ، ولكنه نقاها وصفاها لتتفق وتنسجم مع الفطرة السوية . فقد أخضع كل ما يتنزى فى كيانه من عاطفة وميل ونزوع للتأمل والنقد . إن تلك الأيام والشهور التى قضاها منفردا ومنعزلا لم تمض بدون أن يكون لها ثمرة أو نتائج للتفكر والتأمل . ولسائل أن يسأل : إذا كان أجداد وآباء محمد بهذا الشغف والولع الدينى فلماذا لم يسر محمد على طريقتهم . لقد أعرض عما كان يعبد ويقدس ويبجل أهله وقومه . لقد خالفهم فى كل شئ وعارضهم ، فلم يسجد لصنم ، ولم يطف بوثن ، ولم تلمس جوارحه أى ميل أو نزوع نحو عبادة العرب ؟.

" ولا يخفى أن الوراثة فى الطبائع لا فى الشعائر وظواهر العبادة فمن كانت عنده عقيدة الإيمان بالغيب والعلو بما يؤمن به عن عوارض الأهواء واللذات وهان عليه نسيان المنافع والشهوات فى سبيل رضاه ، وطابت نفسه بالفداء وفرائض الطاعة والوفاء ، فهذه هى الطبيعة التى تورث على اختلاف الشعائر والعبادات ومثلها فى ذلك مثل الشجاعة فى القتال ومثل السخاء بالمال ، فإن الابن الذى يرث الشجاعة من أبيه ولا يرث منه ميدانه ولا تتوقف شجاعته

الموروثة على سلاحه فقد يحارب الابن بسلاح لم يعرفه أبوه وفى ميدان غير ميدانه وقد يبذل المال لإقامة مسجد ولم يبذل أبوه المال إلا لنحت صنم أو ذبح قربان على وثن ولا غضاضة على ما ورثه من شجاعة ولا ما ورث من سخاء . وهذه الطبيعة هى التى ينظر إليها فى مناقب الأسرة الموروثة فلو كان عبد المطلب ينافق بالتدين ليخدع به قومه . ويتذرع به إلى الرئاسة عليهم - لما كان هو عبد المطلب الذى يورث منه خصال الصدق والإيمان . ولكنه تورث منه هذه خصال الصدق والإيمان . ولكنه تورث منه هذه الخصال حين يصدق فى معتقده بالكعبة وبالعزى . وحين يدين الناس بما يدين به فى نفسه فى رئاسة هؤلاء الناس "[٣٢] .

وحينما يختار عبد المطلب لأحب أبنائه - عبد الله - زوجة فإنه سيختار امرأة كريمة المنبت طيبة الأصل . أسرتها تشابه أسرته فى الكثير من الفضائل والمكرمات وتجاريها فى الخصال والمناقب . ولا شك ان الرجل قد بحث كثيرا عمن تناسب ابنه أو عن تلك العائلة التى سيرتبط معها برباط النسب والمصاهرة أو أن تلك العائلة لابد أن تكون من أشرف وأكرم وأعز العائلات فى مكة . فوقع اختياره على تلك الفتاة الكريمة لابنه العزيز عليه " أبوها ((وهب)) سيد بنى زهرة وجدها عبد مناف من زهرة الذى يقرن اسمه بابن عمه عبد مناف من قصى فيقال: ((المنافان)) وتعظيما وتكريما . وجدتها لأبيها : ((عاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال السلمية)) إحدى اللواتى اعتز بهم الرسول فقال : ((أنا ابن العواتك من سليم)) .

ولم يكن نسب ((آمنة)) من جهة أمها دون ذلك عراقة وأصالة . فهى ابنة ((برة بنت العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى)) وجدتها لأمها ((أم حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصى)) ووالدة أم حبيب ((برة بنت عوف بن عبيد بن عويج بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر)) .

٣٢- المرجع السابق صفحة (٢٠٤)

سلالة عريقة أصيلة . أنبتت ((آمنة)) لتضلع بعبئها الجليل فى أمومتها التاريخية ووراثات مجيدة . أهدتها إلى ولدها فجمعت له عز المنافين : ((عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، وعبد مناف بن قصى بن كلاب وجعلته ﷺ يعتز بنسبه فيقول من حديث رواه ابن عباس : ((لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة ، مصفى مهذبا ، لا تتشعب شعبتان إلا كنت فى خيرها)) .

وعن ((أنس)) أنه قال : ((قرأ رسوا الله ﷺ : ((لقد جاءكم رسول من أنفسكم)) - بفتح الفاء - وقال : أنا أنفسكم نسبا وصهرا وحسبا)) [٣٣] .

◦ أثر الوحى فى شخصية محمد ﷺ

لقد كان للوحى أثر بالغ فى شخصية محمد ، وهذا الأثر يمتد حتى قبل أن ينزل الوحى عليه ؛ لأن نزول الوحى يستدعى إعدادا وتهيئة ، ولا نبالغ إذا قلنا وما يزال الشخص جنينا فى بطن أمه بل قبل ذلك وهو فى صلب أبيه " كل ما نجزم به من هذه الحالة أو من غيرها أن محمدا قد تكون لتلقى الوحى الإلهى ، وأن لهذا التكوين استعدادا لابد أن يلحط من أوائل صباه لأن البنية الحية لن تتهيأ له فى أيام ولا فى شهر ولا سنوات ، ولن تستطيعه إلا إذا تمت أهبتها له والمولود فى صلب أبيه ولا نقول فى المهد أو فى الرضاع " [٣٤]

فالتهيئة والإعدادا يمتددان على مدى الحياة وبصفة مستمرة لا تتوقف فلابد وأن تكون كل خلية من خلايا هذا الشخص على استعداد وقابلية وتقبل وقدرة وتحمل واستيعاب وفهم لما يأتى به الوحى ، ولا يتوقف الأمر على ذلك بل تأتى مرحلة أخرى وهى مرحلة التبليغ ومكاشفة العالم بما نزل عليه ، واتخاذ وتبنى كل الطرق والأساليب لإقناع العالم بقبول ما أتى به الوحى ، والقدرة على قبول

٣٣- أم الرسول محمد آمنة بنت وهب - د. بنت الشاطئ صفحة (٧٩ - ٨٠)
٣٤- عبقرية محمد - عباس محمود العقاد صفحة (١٥٥)

التحدى والوقوف موقف الند للند إذا أعلن الآخرون على الدعوة وصاحبها العداء ، وتلك مرحلة أخرى من مراحل الدعوة ، بل أهم وأخطر المراحل لأنها نوع من الابتلاء والامتحان للدعوة وأصحابها ، ولا يظهر جوهر الدعوة ومعدن أصحابها إلا فى لحظات الشدة والتمحيص ، ولابد أن تتعرض الدعوات لتلك اللحظات ، ولابد أن يكون صاحب الدعوة معدًا ومهيأ للصمود ومواجهة ما تأتى به الأحداث من تمحيص وصهر وزلزلة .

○ إعداد الذات :

ولأن الوحى أمر عظيم وجليل شأنه . فإن الذات الإنسانية قد لا تتحمله لأن قدرات الذات الإنسانية جد محدودة . وهذا الأمر يفوق قدرات أى ذات إنسانية ، بل إن ذات النبى لتجهد وترهق أيما جهد وأيما إرهاق وهى تتلقى الوحى " من الأقوال المتواترة أنه كان ﷺ إذا نزل عليه الوحى نكس رأسه وكرب لذلك وتربد وجهه وأخذته البرحاء حتى أنه ليتحدر منه مثل الجمان فى اليوم الشاتى وسمع عند وجهه كدوى النحل . وقد يصدع فيغلف رأسه بالحناء . وقد شاب فقال : شيبتنى هود وأخواتها . وعدد حين سئل عن أخواتها سورا أخرى فى القرآن الكريم [35] "

نعم إن الأمر جليل ، أمر هذا الوحى ، وكما قال الله عز وجل ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ المزمل ٥

" هو هذا القرآن وما وراءه من التكليف .. والقرآن فى مبناه ليس ثقيلا فهو ميسر للذكر ، ولكنه ثقيل فى ميزان الحق ، ثقيل فى أثره فى القلب : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ الحشر:٢١ فأنزل الله على قلب أثبت من الجبل يتلقاه . وإن تلقى هذا الفيض من النور والمعرفة واستيعابه ، لثقيل ، يحتاج إلى استعداد طويل .

٣٥- عبقرية محمد – عباس محمود العقاد – صفحة (١٥٦)

وأن التعامل مع الحقائق الكونية الكبرى المجردة ، لثقيل يحتاج إلى استعداد طويل وإن الاتصال بالملأ الأعلى وبروح الوجود وأرواح الخلائق الحية والجامدة على النحو الذى تهيأ لرسول الله – ﷺ – لثقيل ، يحتاج إلى استعداد طويل .

وإن الاستقامة على هذا الأمر بلا تردد ولا ارتياب ، ولا تلفت هنا أو هناك وراء الهواتف والجواذب والمعوقات ، لثقيل يحتاج إلى استعداد طويل . " [٣٦] .

وخلال هذا الاستعداد ، الذات فى حاجة إلى أن تكون نفسها وليس شيئا آخر ، لا تشتت ، لا تصارع ،لا شواغل ، لا تجاذب ، لا شك ،لا إرتياب ، لا خور ، ولا ضعف ، لا كدر ، لا ظلام ، لا إبهام ، لا غموض .

حالة نادرة من الخلاص الوجودى ، لتعود أشد اتصالا بجوهر الوجود الحق ـ لا شئ يعين ويساعد الذات للوصول إلى تلك الحالة مثل العزلة والخلوة ، فهما تتيحان للذات أن تستدعى ما فى داخلها من قوى وطاقات أن تصل وتتصل جوهر وحقيقة هذا الوجود " كانت الخلوة لمحمد أعظم مرب ، فقد صفت قلبه من كل مشاغل هذا العالم ، ولذلك اطلقت عليه الآثار ((صفاء الصفاء)) وتشربت روحه رويدا رويدا روح الصحراء التى لا تحد ، فبصرته بعظمة الله اللانهائية ، وفى الصحراء اتصلت أسرار الطبيعة بأعماق نفسه وغمرته فى قوة حتى لقد أوشكت أن تخرج من فمه تلك الحقائق الخالدة التى انتزعت من كارلايل ، المفكر الإنجليزى المشهور ، صيحة الإعجاب التى يقول فيها : ((حقا إن أحاديث هذا الرجل قد صدرت مباشرة عن قلب الطبيعة ومن الطبيعى أن تجتذب أفئدة بنى البشر فيستمعوا إليها ويجب أن يستمعوا إليها أكثر مما يستمعون إلى غيرها ؛ فكل ما عداها هباء إذا قورن بها " [٣٧] .

٣٦- فى ظلال القرآن - سيد قطب - المجلد السادس - صفحة (٣٧٤٥)

٣٧- محمد رسول الله - ايتيين دينيه وسليمان إبراهيم - ترجمة عبد الحليم محمود ومحمد عبد الحليم محمود- صفحة (١٠١)

" إن هذا التأمل ليس إلا بوتقة تصهر فيها العواطف والأفكار الناشئة ليخرج منها مطهرة صافية ، إنه مصنع تكتيل القوى الروحية رغم أنها خفية وأنها لا شعورية ، هذه القوى الكامنة التى تتكتل بالمراقبة والتأمل تمكث مستترة مجهولة حتى من هؤلاء الذين تنطوى عليها جوانحهم ؛ وما مثلها فى ذلك إلا مثل النار الكامنة فى أشجار الغابات ، فإذا ما أثارتها شرارة واحدة اشتعلت ملتهبة جارفة صاعدة إلى عنان السماء فتبهر العالم " ٣٨ .

٥ الثمرة ...... النتيجة – العودة إلى الفطرة :

كان محمد يقترب شيئا فشيئا – ببطء ولكن فى ثقة ، فى تمهل ولكن فى قناعة كاملة – من حالة من حالات التواجد تعلو فوق الزمان والمكان ، لا ندرى ما هى ، ولا نستطيع أن نرجع مشاعره وأحاسيسه فى تلك الحالة ، وربما هو لا يدرى حقيقتها ، حالة تجد فيها الروح ما تبتغيه ، ما تصبو إليه .

أو منطقة أو بقعة يقترب منها تحتويه أو تشتمله ، نشبع فيه فيوض من الأمن والسلام والسكينة ، مهد روحانى تظلله أطياف مقدسة وتنتشر على جوانبه أنوار ملائكية ، تهدهده أصوات صادرة من عوالم علوية تسرى إلى القلب فتنتشر فيه السعادة والسرور والإنشراح .

إنه إنجاز روحانى لنفس ما فتئت يتردد فى جوانبها البحث عن الحقيقة يدفعها شوقها للبحث عمن يرشدها ، يهديها سواء السبيل .لقد تخلص محمد ﷺ خلال الخمس عشرة سنة – سنوات التأمل – من كل الحجب التى تحجب الفطرة السوية كما خلقها الله ، كل ما من شأنه أن يكدر أو يعكر صفاء تلك الفطرة أو يطمس ملامحها ومعالمها ، أو يغير من طبيعتها أو يحول من مسارها أو يبدل من نهجها ، رحلة للعودة إلى النبع الصافى والمصدر الإلهى ، إنها عملية تجلية وصهر وصقل لكى يتألق المعدن الأصيل لهذه النفس النبيلة ، لقد وصلت

٣٨- المرجع السابق – صفحة (١٠٣)

النفس بعد كل هذا إلى أبواب عالم آخر. وصلت إلى الحدود، حيث نهاية عالم وبداية آخر. أوشكت فترة الإعداد والتهيئة على النهاية. مرحلة انتهت لتبدأ المرحلة الكبرى، إن النفس الآن فى كامل لياقتها أنها فى حالة صفاء لا مثيل له وشفافية لا نظير لها، حالة من الوعي والإدراك بكل خلجاتها وسكناتها بالوجود حولها،كل حواسها متنبة متيقظة لأقل نأة أو همسة أو هزة. إن مراكز الاستقبال فى نفسه فى كامل استعدادها، وبالفعل استقبلت مراكز الاستقبال نوعا من البث والإرسال ولكنه بث تجريبى أو إرسال أولى للتدريب والتمرين " قال رسول الله. ((طيلة العشرة شهور التى تقدمت الوحي، كان يتخلل نومي نور باهر يشبه فلق الصبح وكنت حينما ابتعد عن الديار أسمع أصواتا تنادي يا محمد! يا محمد! فكنت أنظر يمنة، ويسرة ومن خلف فلا أرى إلا شجيرات وصخورا فيأخذني القلق والحيرة، إننى ما أبغضت شيئا بغضى للكهان والسحرة وقد خشيت أن أكون قد أصبحت على غير علم منى واحدا منهم فيكون الذى يناديني - خفيا مستورا – تابعا من الجن الذين يتحدثون إلى السحرة والكهان بخبر السماء فيساعدونهم بذلك على القيام بمهمتهم الآثمة "[٣٩].

- الحالة استغرقت عشرة شهور.
- تلك الفترة التى سبقت الوحى.
- نور باهر يراه كفلق الصبح أثناء نومه.
- يسمع أصواتا – وليس صوت واحد - تنادي عليه باسمه.
- لا يرى مصدر الصوت.
- إحساس بالقلق والحيرة ينتابه.
- الخوف أن يكون قد تحول – على غير علم أو إراده أو وعى منه – إلى واحد من الكهان أو السحرة.

٣٩- المرجع السابق – صفحة (١٠٣)

- الشك في أن يكون الذي يناديه تابعا من الجن .

ولنا أن تساءل : ما حقيقة هذا النور الباهر الذي يراه أثناء نومه ؟

وما مصدر تلك الأصوات ؟

كل هذا أدخل على محمد الشعور بالقلق والحيرة .

تحول القلق والحيرة إلى إحساس بالخوف .

الخوف أن يكون قد تحول إلى كاهن أو ساحر ، فهو يمقتهم أشد المقت .

على هذا فالذي يناديه تابع من الجن !

o محنة شخصية ومأزق نفسي

هذه الحالة إذا انتابت شخص غير محمد ، قد لا يشكل الأمر لهذا الشخص أي محنة أو مأزق ، وقد لا يعير الأمر أي اهتمام ، حتى لو اهتم به فماذا يفعل ؟

ولكن الأمر مع محمد غير ذلك ، لقد حاول وجاهد طوال السنوات الماضية – وعلى مدى الخمس والعشرين سنة – إلا يكون شيئا غير محمد .. لقد ابتعد بقدر ما يستطيع عن كل ما يشغله عن ذاته أو يؤثر في ذاته أو يغير أو يبدل من ذاته . إنه لا ينتمي إلى أي شئ ولا يتبنى أي شئ . إنه صفاء خالص لا يشوبه شئ ، إن متعته وسعادته وأمنه وسلامه في هذا الصفاء الوجودي الوحداني . إن اختياره هذا المكان النائي البعيد المنعزل عن العالم ليدل دلالة واضحة وقاطعة على المسار والنهج الذي اختارته تلك الذات لنفسها .والمداومة على هذا البعد والعزلة أياما وليال وشهور ليدل – أيضا – إن هذا الأمر أصيل في الذات . بل هو من مكونات الشخصية وأسسها .

فما هذا الذي يغزوه ؟

وما هذا الذي يخترق جدران تلك الذات ؟

أهذا هو نهاية المطاف ؟

أهذا هو نتيجة العزلة وطول التفكير والتأمل ؟

أم أن ما يحدث مقدمة لشئ – وليس نهاية – يشعر به شعورا مبهما يكاد لا يتبينه ؟

شئ ما يقترب من ذاته ، ولكنه لا يدرك حقيقته .

ولأنه كان فى حالة صفاء مع ذاته وفى حالة وعى وصدق وقرب ، فإن أى تغيير طفيف وتبدل هين يشعر به ، وعلمته الخلوة والعزلة والتأمل والتفكر أن يكون رقيبا على ذاته ، بل مستكشفا ومتنبئا بما قد يطرأ على تلك الذات من تبدل أو تغير.

وها هو يشعر إن هناك تبدلا وتغيرا .

وهو لا يدرى أهذا التبدل والتغير صادر من خارج الذات ، أم نابع من الذات نفسها ؟

كذلك لا يدرك نوعية هذا التغير والتبدل .

ولأنه يجهله فهو يخشاه .

ولأنه لا يعرف حقيقته فهو يخافه .

ولأنه لا يتيقن من شئ فهو يشك فى كل شئ .

" فنحن مضطرون إلى أن نرى فى هذا الشك نتيجة لحالة شخصية عارضة وجد فيها النبى نفسه فجأة أمام مبادئ شعور وأمام استشعار لبعض الأشياء الغريبة تمس من قريب مصيره الخاص .

فإلام يعزى هذا الإحساس الذى يطوف الآن فى أنحاء نفسه ، وهو يخز بصورة مؤلمة طبيعية فكرة الموضوعية ؟ هل كان ذلك مجرد حركة للاشعور أو إلهاما بحل قريب وغير عادى للمشكلة ؟

إن بعض الفصائل الحيوانية تُلهم الطوارئ والاضطرابات التى تصيب مساكنها عما قريب . فهذا النمل الأمريكى يغادر مساكنه قبيل اندلاع الحريق فيها

بليلة . وفي جنوب (قسنطينة) نوع من الحيوانات القارضة يبرح أرضه في مسارب الأودية قبيل الكوارث الطبيعية .

فهل كان عند النبي ما يشبه هذا الإلهام ، أي التنبؤ بالظاهرة القرآنية التي ستلهنه وتغمر وجوده كله ؟

فلو قلنا إن ذلك من عمل اللاشعور ، فيجب أن نتطبق هذه القاعدة على تفسير مادة القرآن كلها وتفسير فكرته المتصلة كما نفسر أيضا أعراض الظاهرة وطوارئها عند النبي ، ولكن هذا – كما سنشير إليه فيما بعد – ليس أبدا ممكنا "[٤٠]

نحن نعلم -- بعد ذلك -- إن ما طرأ على الذات المحمدية هو بسبب اقترابها من لحظة التفجر أو التفتح لمرحلة النبوة ، أو مرحل استقبال أو تقبل الفيض أو الوحي ، فكلها أعراض انتابت الذات قبيل مرحلة الوحي ، وسيعلم النبي – بعد ذلك – بأن هناك ارتباطًا وثيقًا بين تلك العوارض والوحي ، ولكنه قبل ذلك وقبل معرفته بأمر الوحي ، الأمر بالنسبة له كان يشكل محنة ومأزقا هو في حاجة ماسة للخروج منه ، وحينما تشعر الذات بأنها في مأزق ، فإنها تطلب العون من الآخر تكاشفه بمشاعره وأحاسيسه ، وتصارحه بمحنته ومأزقه . فإن نفسه تنوء بهذا الحمل الثقيل ، ولا يجد الرسول سوى زوجته الحنون ((خديجة)) .

" ومع ذلك فإن النبي سيكاشف زوجه الحانية بهمومه ويشكو لها بمرارة ، إذ يظن به الجنون والمس . ويرى أن سحرا مشئوما قد أضر به . ولكن (خديجة) الفاضلة تواسيه وتهدئ روعه قائلة : ((والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق))"[٤١]

٤٠- الظاهرة القرآنية – مالك بن نبي – ترجمة د. عبد الصبور شاهين – صفحة (١٨٢- ١٨٣)
٤١- المرجع السابق – صفحة (١٨٣)

obeikandl.com

لم يعرف حقيقة محمد كما عرفته تلك الشخصية العظيمة ، إن فطرتها السوية ، وبصيرة المرأة التى نادرا ما تخطئ أدركت منذ زمن عظمة وسمو ورقى تلك الشخصية ، وعلى ما تشتمل عليه من فضائل ومكرمات ، فقررت أن تتزوجه ولا تبعد عنه ولا يبتعد عنها ، والآن تساندها بصيرتها ، وتصدقها فطرتها إن الله لن يخزى محمدا لما تتميز به شخصيته . تعيد (خديجة) إلى نفس محمد الهدوء والسكينة والأمن ، وتهدئ من روعة وتنزع تلك الوساوس من صدره ، ويسترد محمد رباطة جأشه وثقته فى نفسه ، ويعود إلى ما كان عليه من عزلة وخلوة ، ليمارس عادته المحببة من تأمل وتفكر .

ولكن تنتابه الحيرة والقلق مرة أخرى ، شئ ما يسرى إليه ، يشعر أن ذاته مرصودة ، مراقبة ، ذاته أصبحت مركزا لأشياء غامضة مبهمة ، يشعر بوطأة ذلك أما لماذا يقلقه ويحيره هذا الشعور والإحساس ؟ لأنه غير طبيعى وغير مألوف ، فربما تكون ذاته نهبا للشياطين والجن " وعلى كل حال فإننا نجد النبى بعد هذه التهدئة يستأنف طريقه إلى عزلته ، ويهاجمه الشك من جديد ، ويسيطر عليه الاضطراب الشديد ، الذى يطبع أحواله النفسية فى ذلك العهد ، وهو يحتاجه الآن أكثر من ذى قبل لأنه يشعر (بحضور) أشبه بظل يطوف حوله .

إنه يخرج من عزلته ، يذرع تلك الدروب الملتهبة فى جبل النور ، وهو يضيق بذلك المجهول الذى يشعر به معلقا فى نفسه ولا حول ولا قوة إزاءه ، ها هو ذا مشرف على واد ، يرى مخرجا من مأساته فى أعماق الهاوية فيكاد يستسلم لفكرته المتغلبة عليه ، ويخطو خطوة إلى الأمام "[٤٢] .

نعم ، هو ذا شأن تلك الذات العظيمة ، فإما أن تعود إلى سابق عهدها من الهدوء والسكينة والأمن والسلام ، وإما أن تترك هذا الوجود الذى لم تتعوده ولم تألفه

٤٢- المرجع السابق – صفحة (١٨٤)

ولا تحتمل ولا تقدر أن تتكيف معه ، بل لا ترضاه ولا تقبله .... لقد وصل إلى طريق مسدود . ولكن فجأة تنفتح أمامه طاقات من نور .

" ولكن صوتا أسرع من إيماءته يوقفه : ((يا محمد . أنت رسول الله حقا)) فيرفع رأسه ليرى الأفق مشعا يتلألأ نورا ، فينقلب مذهولا محيرا ، دون أن تزايل الرؤية ناظريه ، إنها فى كل مكان ... وفى جميع الأركان ... فيرتمد منها فزعا حتى يذوى إلى الأرض ، وحين يفيق يعود إلى مكة حيث يجد هنالك موضع سره العطوف . فتفاجأ بمنظره المحزن وبحالته المحمومة ، وهو الذى تراه دائما مهتما بنفسه . لا يغفل أى تفصيل فى هندامه ، ها هو ذا الآن بشعره الأشعث ووجهه المتقع وملابسه المغبرة ، ولكن خديجة الحانية تتغلب على جزعها وترعى زوجها وبكلمات حانية رقيقة تدخل السلام إلى نفسه الذاهلة فيأخذ طريقه إلى جبل النور" [٤٣] .

وقد يثور سؤال هنا : إذا كان كل هذا حدث لمحمد – خلال خلوته وعزلته لدرجة أنه خشى على نفسه – فلم واصل عزلته وخلوته ؟ أما كان الأولى أن يهجر تلك العزلة ولو إلى حين ؟

إن العزلة والتأمل والتفكر أصبحوا من سمات شخصية محمد الأساسية ولا يستطيع تبديل تلك السمة أو تحويلها . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى ، هو يريد أن يعرف حقيقة ما يحدث له ؟ ما الذى انتابه ؟ وما الذى طرأ عليه ؟

وهجر العزلة نوع من الهروب من المواجهة .

وتأجيلها نوع من تعليق تلك المواجهة .

إن الأمر يمس ذاته فى الصميم ، ومتعلق بمصيره ، بأمنه ووجوده .

وشجاعته تمنعه من الهروب .

وجرأته لا تسمح له أن يؤجل تلك المواجهة .

٤٣- المرجع السابق – صفحة (١٨٥)

لذلك نراه يأوى إلى الغار مرة أخرى .

ويعود إلى عزلته كما تعود .

وكأنى به فى تلك المرة يصمم على أن يثبت ويواجه ويقف على حقيقة ما يحدث له . لذلك يجب أن يكون فى قمة التيقظ والتنبه . لا يغيب عنه أى شئ . إنه عبارة عن كتلة من الوعى والإدراك فى أقصى حالات توترها .

وتمضى الساعات بطيئة ، ويزحف الليل على الكون ، ويسجى محمد فى برده لينام ، ولكن كيف لتلك الذات التى تحولت إلى وعى وإدراك أن تغفو ؟ حتى وإن نامت ، فهى واعية ومدركة لما قد يحدث لها أو حولها .

وفجأة ينشق الظلام عن ملك متسربل بالرداء الأبيض ، ويتشقق الصمت وينهار السكون ، ويزدحم الغار الخالى بأنوار ملائكية ، وتضوع جوانبه بعبق من الفراديس ، ويقترب الملك من محمد الذى لا يستطيع أن يحول عينيه عنه أو يتحدل عن مكانه ، وعيناى الملك ترسل أشعة إلى عينيه تملأ كيانه بمشاعر وأحاسيس لا يدرى كنهها " قال الرسول ((أتانى جبريل فى غار حراء وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال : اقرأ . فقلت : ما أقرأ . فغتنى به حتى ظننت أنه الموت . ثم أرسلنى فقال : اقرأ . قلت ما أقرأ . فغتنى حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى فقال: اقرأ فقلت ماذا أقرأ ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لى بمثل ما صنع بى . فقال اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم .

فقرأتها ثم انتهى فانصرف عنى وهببت من نومى فكأنما كتبت فى قلبى كتابا ، فخرجت حتى إذا كنت فى وسط الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته ثم

قال ثانية : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . وانصرف وانصرفت راجعا إلى أهلى " [٤٤] .

٥ لقاء ملك الوحى بمحمد ﷺ :

لا شك أن ملك الوحى حينما جاء محمدًا للمرة الأولى ، لم يكن الغرض هو الوحى فقط ، وإنما كان هناك أكثر من ذلك ، وإلا إذا كان الغرض هو الوحى فقط لبدأت أحداث المقابلة من أول كلمة (اقرأ) . أو كان من الممكن أن يوحى إلى محمد ما يوحى بدون مقابلة من الملك . وينطبع فى قلبه - ﷺ - ما شاء الله . لقد سبق الوحى أحداث وأفعال قام بها الملك ، كان المقصود بها محمد .

أول شئ نلاحظه ، هذا الاقتراب الشديد والحميم من الملك لمحمد ، ليس اقتراب فقط بل التصاق وملامسه وإشعار لمحمد بذات الملك . إن محمد تعرض لنوع من الكد والإجهاد والإرهاق والشدة والعصر من قبل الملك الذى كان معه نمط من ديباج - النمط نوع من البسط والديباج قماش سداه ولحمته حرير - فيه كتاب، ما هذا الكتاب ؟ هل هو القرآن الذى يطلب الملك من محمد قراءته ؟

وحينما قال محمد : ما أقرأ ؟ قام الملك وغت محمدا بما معه .

وكلمة (غت) من معانيها - كما جاءت فى القاموس - : ((كأنه أراد عصرنى عصرا شديدا حتى وجدت منه المشقة كما يجد من يغمس فى الماء قهرا))[٤٥].

ومن معانيها ((يغلبه ويقهره))

ومن معانيها ((الجهد والإتعاب))

ومن معانيها ((المتابعة والموالاة))

٤٤- محمد رسول الله - إيتين دينيه وسليمان إبراهيم - صفحة (١٠٥)
٤٥- لسان العرب - ابن منظور صفحة (٣٢١٢)

إذن مع طلب القراءة - ومحمد يجهلها - أرهاق وإجهاد للذهن وتكليفه ما لا يطيق ، بل تكليفه شئ محال ، كيف تطلب من إنسان لم يسبق له القراءة من قبل ولم يتعلمها أن يقرأ ؟!

فى نفس الوقت هناك إرهاق لذات النبى نفسه ، وتكليفه ما لايطيق حتى قال محمد : (حتى ظننت أنه الموت) ففى تلك اللحظات تعرض محمد من الملك لشدة وإرهاق شعر خلالها أنه قريب من الموت .

إذن لم يبق لمحمد - فى تلك اللحظة - طاقة أو قدرة ليحتمل المزيد ، لقد وصل إلى نقطة أو خط النهاية ، الموت . وهل جرب محمد الموت من قبل بحيث يحكم أن ما يمر به هو الموت ؟

أم أن الإجهاد والإرهاق وصل بمحمد إلى الدرجة التى شعر فيها - لشدة وضغط الملك - أن هذا الإجهاد والإرهاق سيصل به إلى أن يفقد حياته ، والإنسان لا يقول ذلك إلا إذا كان ما يشعر به فوق الاحتمال ، وتعدى كل صور طاقاته .

إلا أن محمد لم يمت ، ولم يصاب بأى أذى .

إذن ما سبب تعريض ذات محمد لكل هذا الإرهاق والإجهاد ؟!

إنه تدريب وتمرين ورفع لطاقة وقدرة محمد ، إنه بمثابة تمحيص وتنبيه وإيقاظ لكل خلايا الكيان الإنسانى ، استفزاز لمخبوء ومخزون درجات التحمل والصبر والإرادة والتصميم والصلابة والقوة والمتانة والعناد ، فإذا استطاع محمد أن يتقابل والملك ويخرج من تلك المقابلة سليما معافى ، ولم ينهار ولم يصاب بأى أذى أو ضرر - سوى الاضطراب والجزع - فإنه على مواجهة ما دون الملك لأقدر ، وأى مشقة أو إجهاد أو إرهاق تهون بالنسبة لمشقة وإجهاد وإرهاق الملك .

وتكرر الأمر،أمر القراءة ، وأمر العصر والإرهاق والشدة .

ولكى يفتدى محمد نفسه من هذا الكرب والشدة يخرج من هذا المأزق سائلا : (ماذا أقرأ ؟)

وهنا خرج محمد من كونه ينفى علمه بالقراءة (ما اقرأ) . إلى السؤال عن (ماذا أقرأ) .

وهنا بدأ الفيض الربانى من الملك على محمد .

وكأن الانتقال من (ما أقرأ) إلى (ماذا أقرأ) هو نوع من التحول والتبدل والتغير فى ذات محمد .

هو نوع من العبور والانتقال من كون إلى كون ، ومن حال إلى حال ، ومن شأن إلى شأن ، ومن أمر إلى أمر ، ومن عالم إلى عالم .

وكأن كل هذا لا يتم إلا بالجهد والمشقة والمعاناة ... انظر إلى انتقال الجنين من داخل بطن أمه إلى العالم الخارجى ، وما يتعرض له من عصر واجهاد ومشقة وتعب وإرهاق حتى يخرج إلى العالم سليما معافى .

إذن ما فعله الملك بمحمد قد أحدث تغييرا شاملا وممتد الأثر والمفعول فى ذات محمد .

أما نوعية هذا التغيير وما حدث بالضبط ، فنحن لا ندرى ولا نعرف عنه شيئا ، ولا حتى محمد نفسه ﷺ . إنما لا ينكر هذا التغيير فى الذات .

قد يكون نوعا من الإعداد والتهيئة من الملك بشأن ما سوف يوحيه . وإن هذا الإعداد وتلك التهيئة خاصة بأمر الوحى فى اللحظة الآنية ومستقبلا .

قد يكون إمداد وشحن ذات محمد بطاقات وقدرات عصبية وعقلية ونفسية وجسمانية ليكون قادرا ومؤهلا لحمل الدعوة .

وقد يكون ما فعله الملك نوعا من إزالة وتبديد ومحو أىّ شك أو تردد من ذات محمد أن ما يحدث له تخيل من ذات نفسه ، أو أن ما يحدث له من فعل الجن والشياطين كما ظن من قبل . " لقد فوجئ محمد عليه الصلاة والسلام وهو فى غار حراء بجبريل أمامه يراه بعينيه ، وهو يقول له اقرأ ، حتى يتبين أن ظاهرة الوحى ليست أمرا ذاتيا داخليا مرده إلى حديث النفس المجرد ، وإنما هى استقبال

وتلق لحقيقة خارجية لا علاقة لها بالنفس وداخل الذات ، وضم الملك إياه ثم إرساله ثلاث مرات قائلا في كل مرة : اقرأ - يعتبر تأكيدا لهذا التلقي الخارجي ومبالغة في نفي ما قد يتصور، من أن الأمر لا يعدو كونه خيالا داخليا فقط " [٤٦].

إن ما يحدث من الملك بمثابة عملية تطهير وتنقية وتصفية وصهر لذات محمد لإخراج ونفي أي شئ قد يكون مترسبا بالذات . أو أن ما حدث من الملك إخبارا لمحمد أن الأمر جد ، لا هزل فيه ، وإن الأمر ثقيل وشديد وصعب وعسير يستدعي القوة والصلابة والعناد ، ومضاء الإرادة وعقد العزم وشحذ الهمة ، وإن الأمر خطير متعلق بمصير البشرية كلها ، ومتعلق بحياة الناس وعقائدهم وأفكارهم متعلق بكل شئ في الوجود والكون ، وإن هناك أمر وشأن عقيدة يبزغ إلى الوجود ليس من صنع ولا اختراع ولا تدبير إنساني وإنما هو أمر إلهي صدر ، وأن الوجود كله يخضع ويذل ويستجيب لأمر تلك العقيدة " وقد كان الله عز وجل قادرا أن يربط على قلب رسوله ويطمئن نفسه بأن هذا الذي كلمه ليس إلا جبريل ، ملك من ملائكة الله جاء ليخبره أنه رسول الله إلى الناس - ولكن الحكمة الإلهية تريد إظهار الانفصال التام بين شخصية محمد ﷺ قبل البعثة وشخصيته بعدها وبيان أن شيئا من أركان العقيدة الإسلامية أو التشريع الإسلامي لم يطبخ في ذهن الرسول عليه الصلاة والسلام مسبقا ولم يتصور الدعوة إليه سلفا " [٤٧]

والأهم أن الأمر يتعلق بخالق الوجود ومبدع الكون ، وأن الأمر بمثابة فتح باب للإنسانية لتعرف وتدرك وتفهم وتعي الكثير عن ذات خالقها .

كل تلك المعاني لا يمكن أن ينقلها الملك إلى محمد بالكلام ، أو يمكن بالكلام ، ولكن بالفعل ستكون أوقع وأشد تأثيرا وأبلغ فاعلية .

٤٦- فقه السيرة - د . رمضان البوطي - صفحة (٦٨)
٤٧- المرجع السابق - صفحة (٦٩) .

وكل تلك التغيرات والتبدلات والتحولات على ذات محمد يقبلها العقل ولا يرفضها المنطق . بل لو حدث أكثر من ذلك فلا مجال لإنكارها . فلابد أن تطرأ تغيرات أو أن الذات يداخلها ويلابسها ويشملها الكثير والكثير حينما تنتقل من كونها بشر عادى إلى كونها بشر نبى . والتغير الذى حدث تم ما بين (ما أقرأ) وبين (ماذا أقرأ ؟) .

(ما أقرأ) نفى .. اعتراف بالعجز وعدم المقدرة ، مصادرة لكل الطاقات داخل الذات ، إغلاق لكل المنافذ التى تطل منها الذات على العالم لتغير وتحول انسحاب من الوجود والتقوقع داخل سجن اليأس والإحباط ، البقاء داخل شرنقة الحزن والمرارة والخوف .

(ماذا أقرأ ؟) إعلان صريح بقدرات وطاقات الذات ، بحث دءوب عن تلك الطرق والسبل والوسائل والأدوات التى تمكنه أن يحقق تلك الأهداف الراقية والآمال السامية .... التسلح بالصبر والقدرة والتحمل والاستعداد لمواجهة العالم لإقناعه بأن لهذا الكون إله يتصف بكل صفات الكمال والجمال والجلال .

كانت البداية (ماذا أقرأ ؟) وكان جواب الملك : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

العلق ١ - ٥

يقول الرسول الكريم : (فقرأتها ثم انتهى فانصرف عنى وهببت من نومى فكأنما كتب فى قلبى كتابا) .

وهنا تلبست النبوة بمحمد ، وأصبح يقرأ ما يوحى به جبريل ، ويكتب فى قلبه ليتلوه بعد ذلك على أصحابه الأكرمين ." ومنذ هذه اللحظة أصبح لدى النبى الأمى شعور ((بأن كتابا قد طبع فى قلبه)) ولكن لم يكن له أن يتصفحه كما يشاء ، ولا أن يطلع عليه كما يهوى ، إذ إنه سيوحى إليه كلما دعت حاجة الرسالة

ولقد يتاخر الوحى ويبطئ ، حتى عندما تلح إحدى الحالات العاجلة " ولتكن حالة اتخاذ قرار أو سن تشريع لمناسبة معروضة على النبى "[٤٨].

لم تكن الآيات الكريمات التى قرأها جبريل على رسول الله مجرد كلمات تلقاها محمد ، وإنما مفردات ودعائم عالم قائم بذاته ، مفارق ومختلف عن العالم حوله ، بل عن عالمه الخاص به ، وهذا ما جعل اليقين يهيمن على محمد أنه رسول الله ، فليس هناك من صلة أو علاقة بين ما يسمعه من الملك ، وما سمعه طوال حياته ، وليس هناك علاقة بين ما حدث له من مقابلة الملك له ، وما يمكن أن يحدث للإنسان حتى ولو فى الخيال .

عالم يحتوى محمدا احتواءا ويشتمله اشتمالا ، ويملك عليه كل حواسه وجوارحه ،عالم دعائمه الأمر بالقراءة ، فهناك آمر وهناك مأمور ، الآمر هو الله والمأمور هو النبى ، وفحوى الأمر القراءة ، وكأن أوثق علاقة وأمتنها بين الله وعبده هى القراءة ، الباب الذى سيلج منه العبد إلى ملكوت الله ، أو المفتاح الذى سيمكنه من فتح تلك الأبواب المغلقة على العوالم العلوية ، تلك القراءة ليست كأى قراءة ، إنها فريدة فى نوعها لا مثيل ولا نظير لها ، لأن القراءة هنا بإذن وباسم ربك القائل والمتحدث هو الله عز وجل وليس أحد من الخلق سواء كان إنس أو جن ' أى اقرأ مفتتحا باسم ربك ، قل بسم الله ثم أقرأ "[٤٩].

والقراءة باسم ربك ؛ لأنه هو الذى خلق ، لا شريك له فى هذا الخلق وتتجلى عظمة وقدرة وجلال الخالق فى خلق الإنسان ، فقد خلقه من علق ، ويكرر الأمر بالقراءة لعظيم خطر تلك الدعامة ، وللتأكيد على هذا الأمر ومع القراءة يكرر لفظ (ربك) موصوفا بالأكرم ، وهى صفة من عظيم صفات الله عز وجل ، وطالما هناك قراءة فلابد أن يكون ثمة علم ، وطالما يوجد علم فلابد من الوسيلة لهذا العلم

٤٨- الظاهرة القرآنية – صفحة (١٦٨)
٤٩ تفسير الكشاف - المجلد الرابع – صفحة (٢٧٠)

obeikandl.com

وهو القلم . ولكن القراءة والعلم والقلم لم يكن لكل هؤلاء جدوى لو لم يخلق الله للإنسان القدرة على القراءة والتعلم . وهو العقل . فبدون هذا النور لم يكن يستطيع الإنسان أن يجلو عن نفسه ظلمات الجهل . وعن الوجود دياجير الظلام " وكأنه ليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية تكرم حيث قال الأكرم (الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) تدل على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا . ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم . ونبه على فضل علم الكتابه لما فيه من المنافع العظيمة التى لا يحيط بها إلا هو . وما دونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة . ولولا هى لما استقامت أمور الدين والدنيا .ولو لم يكن على دقيق حكمة الله ولطيف تدبيره دليل إلا أمر القلم والخط لكفى به "[٥٠] .

نعم . عالم تكون واكتملت جوانبه ووضحت معالمه وبرزت سماته وصفاته أمام محمد للوهلة الأولى . وكأن كل ما سيأتى بعد ذلك هو توضيح وتفصيل وتفسير وشرح لهذا العالم الذى لخصه جبريل فى تلك الآيات الكريمات " والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة . يراها قد جمعت أصول الصفات الإلهية . كالوجود . والوحدانية والقدرة . والعلم . والكرم "[٥١] .

○ طبيعة الوحى :

كان ولابد منذ البداية أن يعرف محمد – ﷺ – طبيعة هذا الوحى أنه خارج إرادته . وهناك انفصال كامل وتام بين شخص الرسول والوحى . وإنه لا يملك إزاءه أى شئ . سوى أن ينتظر . وقد يقصر هذا الانتظار وقد يطول . وقد ينقطع الوحى لفترة ما . وفى أثناء مدة الانتظار وفترة الانقطاع . على الرسول ألا يداخله شك أو إرتياب . وعليه أن يطرد كل هاجس . ويبدد كل ظن . ويبعد كل

٥٠- المرجع السابق – صفحة (٢٧٠ – ٢٧١)
٥١- التفسير الوسيط للقرآن الكريم – د . محمد سيد طنطاوى – المجلد الخامس عشر – صفحة (٤٥٥)

إحساس أو شعور أن الوحى قد فارقه إلى غير رجعة ؛ لأنه ليس كفؤا أو أهلا لذلك ذلك لأن أمر الوحى متعلق بإرادة الله وحده عز وجل فإذا شاء أنزله . وإن لم يشأ لم ينزل على الرسول .

وقد كان انقطاع أو احتجاب الوحى عن رسول الله لمدة يقال إنها ستة أشهر ، ويقال إنها عامان ، درسا عمليا . فقد تسرب إليه الخوف والشك والحيرة والقلق ، وكان الأمر شديدا عليه ، وفى غاية العسر والحرج والعنت وكأن تلك الشخصية العظيمة النبيلة رأت وجودها كله منحصرا فى النبوة وتبليغ الرسالة وإن لم تكن نبوة أو رسالة ، فلا قيمة للحياة ولا معنى للوجود . " لقد قضت الحكمة الإلهية أن يحتجب عنه الملك الذى رآه لأول مرة فى غار حراء مدة طويلة ، وأن يستبد به القلق من أجل ذلك ثم يتحول القلق لديه إلى خوف فى نفسه من أن يكون الله عز وجل قد قلاه بعد أن أراد أن يشرفه بالوحى والرسالة ، لسوء قد صدر منه ، حتى لقد ضاقت الدنيا عليه وراحت تحدثه نفسه ، كلما وصل إلى ذروة جبل أن يلقى بنفسه منها ! ... إلى أن رأى ذات يوم الملك الذى رآه فى حراء ، وقد ملأ شكله ما بين السماء والأرض يقول يا محمد أنت رسول الله إلى الناس . فعاد مرة أخرى وقد استبد به الخوف والرعب إلى البيت حيث نزل عليه قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ المدثر: ١ - ٢" [٥٢] .

إذن هذا الانقطاع للوحى كان فيه الخير كل الخير للدعوة وللرسول نفسه .

للدعوة : أنه لم يكن ثمة أحداث فى تلك الأونة تستوجب نزول الوحى حتى لو كانت هناك أحداث فهى لم تكن ملحة ، ثم أنها فرصة لأهل مكة أن يستوعبوا أن هناك نبيا ظهر من بينهم . ففكرة النبوة لم تكن مألوفة بينهم مثل بنى إسرائيل مثلا ، فهم أهل كتاب ، وقد تواتر الأنبياء فيهم ، بينما أهل مكة الفكرة فى حد ذاتها كانت بمثابة صدمة ، أو شئ خرج بهم عن مألوف عاداتهم ، أو قل إن

٥٢- فقه السيرة – د. رمضان البوطى – صفحة (٧٠)

الفكرة لم تخطر لهم على بال قط ، بينما كانت هاجس ملح عند بنى إسرائيل إلى الدرجة أنهم كانوا على انتظار وتوقع أن يظهر نبى من بينهم أو من غيرهم ، وفرصة أن يستفيض خبر ظهور النبى فى أنحاء شبه الجزيرة العربية ، ويبدأ العرب فى التعاطى مع الدعوة وصاحبها .

وللرسول : كان محمد – ﷺ – فى حاجة ملحة أن يوافيه الوحى ، وكان يتعجل أمره ويستقدم موعده ، ويتحرق شوقا للقائه . وهذا سبب له الحزن والغم "من حديث عائشة قالت((وفتر الوحى فترة حتى حزن النبى ﷺ فيما بلغنا حزنا غدا منه مرارا كى يتردى من رؤوس شواهق الجبال ، فكلما أوفى بذروة جبل لكى يلقى منه نفسه تبدى له جبريل فقال : ((يا محمد إنك رسول الله حقا)) رواه البخارى ١٢ كتاب التعبير "[٥٣] والذى دفعه إلى ذلك أمران ، عقلى ونفسى .

أما العقلى ، فقد كان أول لقاء بالوحى بمثابة إعلام لمحمد بأنه نبى ، وهذا الأمر لم يكن يدور بخلد محمد أو يطرأ على فكره ، ومن طبيعة النفس الإنسانية أنها حينما تفاجئ بأمر خارج عن كل توقعاتها فهى فى حاجة إلى أسلوب قوى أو طريقة مؤثرة تحمل فى طياتها الإعلام المقنع . وهذا ما فعله ملك الوحى أثناء لقائه بمحمد ، ولكن اتضح بعد ذلك أنه فى حاجة إلى التأكيد ، أو بأن يقدم له دليل وبرهان ، وليس أى دليل أو برهان ، ولكن دليل وبرهان متسق مع نوعية الإعلام دليل وبرهان نبوى لاقناع نبى بالنبوة ، هنا الأمر تعدى الدليل والبرهان ليصل إلى درجة اليقين ، بل لنقل إنه يقين اليقين ، لنستطيع أن نقول إن محمدا خرج من الغار بعد أول لقاء بملك الوحى ولم يشعر بأنامل اليقين الباردة تلقى على قلبه أمنا وسلاما ، نعم خرج من الغار وهو على يقين بأنه صار نبيا ، ولكن لجلال وعظمة وأهمية وخطورة شأن النبوة ، كان الأمر فى حاجة إلى أكثر من يقين ، محمد لم يشك مطلقا فى النبوة ، وإلا لكان تساوى لديه دليل نفى النبوة مع دليل إثباتها

٥٣- الظاهرة القرآنية – مالك بن نبى – هامش صفحة (٢٢٦)

ولكان فى حاجة إلى أى الدليلين ليصل إلى راحة نفسية وأمن وسكينة . ولكنه كان فى حاجة إلى شئ آخر . لذلك فالفترة بين أول لقاء وثانى لقاء لم تكن حيرة وقلق وتوتر مصدره الشك ، وإنما مصدره شئ آخر .

أما لماذا لم يكتف محمد بما توافر لديه من قناعة واقتناع بأنه نبي ؟

فهذا شئ يرجع إلى شخصية الأنبياء بصفة عامة وإلى شخصية محمد بصفة خاصة .

شخصية النبي شخصية فتحت أمامها الكثير من الأبواب ، وأفيض عليه الكثير من الفيوض الربانية ؛ فعلم وأدرك ووعى أن ذاته محدودة بالنسبة لما يعرض عليه ، أو أنه يقارن ما حصل عليه من الله ، أو ما تطيقه ذاته – وهو جزء ضئيل جدا – بما يمكن أن يمنحه الله ، فيطلبون من الله – عز وجل – ما لا يتناسب مع محدودية ذواتهم ، طمعا فى كرم الله ، ورغبة فى عطائه ، وحبا فى ذاته .

وتجلى ذلك في طلب (إبراهيم) عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ البقرة: ٢٦٠

إبراهيم هنا – عَلَيْهِ السَّلَامُ – أقر بالإيمان ، والإيمان يتوازى مع اليقين ، ولكن إبراهيم يطمع فى أكثر من الإيمان ، يريد أن يتجاوز تلك المرحلة ، فما يتناسب مع جلال وعظمة الذات الإلهية – وليس مع ما يتناسب مع ذات النبى – هناك مراحل تتجاوز الإيمان ، فقد أدرك إبراهيم – عَلَيْهِ السَّلَامُ – أنه طالما وصل إلى الإيمان ، فلا شك أن هناك مراحل وحالات موجودة ولكنه لم يصل إليها ، فإدراك شئ يدل ويحتم أن هناك شيئا لم يدرك ، والوصول إلى مرحلة أو نهاية طريق يدل على أن هناك مرحلة لم يصل إليها ، وهناك طرق أخرى لم يصل إلى نهايتها ، ولم يضع قدميه على

بدايتها . وهو ما عبر عنه إبراهيم بقوله (ليطمئن قلبى) . تلك المرحلة لم يصل إليها بشرى . ولم يصل إليها أحد من الأنبياء إلا بعون وتوفيق من الله وحده .

وكدلك الأمر بالنسبة لموسى - عليه السلام - ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ الأعراف ١٤٣

لا نستطيع أن نقول أن طلب الرؤية ليسد بها موسى فراغا شعر به فى ذاته . أو ليكمل بها نقصا . أو ليتم بها شيئا فى حاجة إلى إتمام . لقد طلب موسى هدا وهو فى قمة الإيمان والثقة . بل ما كان ليجرؤ ويطلب هذا إلا وهو يعلم مقدار قربه من الله ومقدار قرب الله منه . ولكن الأمر هنا كما كان الأمر هناك مع إبراهيم . إذا كان قد نال درجة سامية لم يصل إليها أحد من البشر . وهو أن يكلمه الله – عز وجل – فهدا ما وصل إليه وأفاضه الله عليه . ألا يطمع موسى وتهفو كل جوارحه وجوانحه إلى ما بعد ذلك ؟ وماذا بعد كلام الله وحديث الله لموسى ؟ وما مقدار سعة بحار السعادة والفرح والسرور التى تفجرت فى نفس موسى حينما تحدث الله إليه ؟ وما مقدار حلاوة وعذوبة أنهار الأمن والسلام والسكينة التى فاضت على موسى وارتوى منه حتى شبع شبعا . إذا كان موسى وصل إلى كل هذا وأكثر مما يعجز العقل عن تصوره . والقلب عن تخيله . والنفس عن تأمله .... ألا يطمع موسى أن يصل إلى أكثر من ذلك . وإلى أبعد من ذلك . وهذا يتحقق – ولا شك – من خلال رؤية الله – عز وجل – بعد الفوز بسماعه .

ولكن ألم يقنع موسى بأن يكلمه الله ؟ ألم يكفه ذلك ؟

نعم قنع به وكفاه . ولكن كل هذا قد وصل إليه وأدركه بذاته . وهناك أشياء أخرى لم يصل إليها ولم يدركها . ويدرك أنها تتجاوز كل حدود ذاته . وكل نهايات قدرته . لذلك طلب من الله أن يمكنه ويمد من حدود ذاته ويرفع من مقدار

قدراته ، ويزيد من طاقاته ؛ ليكون قادرا وممكنا أن يصل إلى ما يتمنى ويهفو إليه لذلك لم يسند الفاعل إليه ، لم يقل (أراك) ولكنه قال (أرني) ، أسند الفاعلية إلى الله – عزوجل – والمفعولية إليه ، لأنه يدرك أن ما يطلبه ليس مؤهلا له ، فلا ذاته ولا قدرته ولا طاقاته تمكنه من ذلك . .

○ وبالنسبة لشخصية محمد – ﷺ – :

هناك حد أدنى لكل شئ في هذه الحياة ، وهناك حد أعلى ، وهناك الحد الأعلى ، والبشر نجدهم مشغولين ما بين الحد الأدنى والحد الأعلى ، والأنبياء طموحون أن يصلوا من حد أعلى إلى الحد الأعلى ، ومنهم من طلب طلبات تتجاوز الحد الأعلى .

أما مع محمد فهو لم يطلب أو يتمنى أن يجاب طلبه ، وهذا الطلب ... متجاوزا الحد الأعلى ، ولكنه أراد أن تكون شخصيته موجودة وكائنة ومحسدة عند هذا الحد ، فهو نوع من التواجد والمعايشة الدائمة والمستمرة ، شخصية قررت أن تعيش وتحيا في هذا النطاق ، وتلزم نفسها به ، باذلة في ذلك كل إمكانياتها وطاقاتها وقدرتها ، هو لا يريد أن يحقق أمنية أو يحصل على غاية أو يحقق هدف من هنالك ، ولكنه يريد أن يكون متواجدا ، وفرق شاسع أن تحاول جاهدا أن تصل إلى خط النهاية أو ما بعد هذا الخط ، وأن تكون موجودا ومتواجدا – بداية – عند هذا الخط ، عند إذ لا يكون هذا الأمر مجرد خط محدد ، ولكنه يكون نطاقا يتسع باتساع أفق تلك الشخصية ، ويزداد رحابة بزيادة طموحات ورغبات تلك الشخصية ، ويتحول – النطاق – إلى عالم تنشئه وتقيمه حولها تلك الشخصية .

لذلك فلم يكن محمد عابدا ، وإنما أنشأ عالما من العبودية الحقة والصادقة لله.

لذلك لم يكن محمد إنسانا علي طراز أو نمط إنساني نعرفه أو نألفه . وإنما أقام عالما إنسانيا مؤسسا على الكرامة والعزة . فريدا فى نوعه . ولا نظير له فى نمطه .

ومحمد لم يكن نبيا فحسب ، وإنما نسج طرازا من النبوة جمع فيه كل صفات وخصائص وسمات الأنبياء قبله . ثم صاغ وكون من تلك الصفات والخصائص والسمات عالما نبويا قوى الأركان متين الدعائم ، كما لم يقمه نبى قبله.

ومحمد لم يكن بشريا سويا فقط ، وإنما استطاع أن يحقق كيف يكون البشرى قادرا ومريدا أن يتحمل أعباء ومسئوليات النبوة . وفى نفس الوقت لا تنهزم فيه بشريته أو تضعف أو تتضاءل . ليبرهن بكل جرأة ووضوح أن يكون صالحا وأهلا للتكليف وحمل الأمانة . بعدما فجر ما هى داخل البشرى كل طاقات وإمكانات الخير . ولم يكن عمل محمد وفكره محصورا فى زمانه ومكانه ، وإنما اعتبر هذا الزمان والمكان نقطتى ارتكاز لينطلق وتنطلق الدعوة ليصبح كل زمان هو زمان الدعوة ، وكل مكان هو مكانها .

ومحمد لم يكن رسولا ، مكلفا برسالة إذا أداها على قدر وسعه رضا واستراح ضميره وهدأ عقله ، ولكنه ناط وجوده وبقائه ومصيره بتلك الرسالة وكان على استعداد فى كل لحظة وفى كل مرحلة عصيبة مرت بها تلك الرسالة أن يهلك دونها ، وقد أعلن ذلك بكل قوة وجرأة وشجاعة متحديا العالم كله . فى تلك اللحظة لم يتجمع إيمان وحب وتضحية وقوة إرادة ومضاء عزيمة وصلابة عقيدة وثبات رأى كما تجمع فى قلب محمد .

شخصية هذا شأنها ، وهذا فكرها ، وهذه طموحاتها ، وتلك قناعتها ، لا ترتضى عن يقين اليقين بديلا ، وهى تريد هذا الشئ عاجلا ؛ لأن الانتظار نوع من القتل البطئ ، نفسه تريد أن تستريح وتستقر وتصل إلى أمن وسكينة الاطمئنان

العقلى . بدون هذا محمد فى ضيق ومأزق لا أحد يستطيع أن يتصور مقدار معاناته " ففى بدء الرسالة وعلى وجه التحديد بعد الوحى الأول الذى رويناه . انتظر النبى زمنا طويلا ، أكثر من عامين قبل أن يرى للمرة الثانية زائره الغريب ويسمع صوته فهو يعتقد انه : إما أن يكون قد خدع فى جوارحه . وإما أن القدرة قد تخلت عنه تلك التى اعتقد حينا أنها هى التى تقوده . هذا القلق مؤلم لنفسه . وأنه ليتسرب إليها كأنه حية تطوق فكره و مشاعره فتحطم بضغطها طموح هذه النفس المتأصل إلى اليقين الصادق .

ومرة أخرى لحظات مؤلمة . ودقائق مؤثرة بالنسبة لمحمد . ذلك الذى يبحث مستيئسا فى نفسه وفيما حوله عن المنبع الخفى الذى تدفقت منه الآيات الأولى من القرآن . وإنه لدعاء حزين لنفس موجعة . وضمير أضناه القلق . دعاء . ى صوت لا يجيب ، أو لا يريد أن يجيب . فقد التزم الصمت خلال أكثر من عامين . وإن فكر (محمد) ﷺ ليحاول مناقشة حالته الفريدة دون أن يجد لها تفسيرا فهو يغرق فى الإعياء . وقد هده ما يعانيه من التوتر العصبى . لقد كان يتفانى كأنه شئ خامد سقط فى النوم " [٥٤] .

أما النفسى : فمن خلال المؤثرات التى أثرت فى شخصية محمد. اتصفت تلك الشخصية بصفات . فهو ظمآن ظمأ شديدا إلى الحب والعطف والحنان . فقد أمضى خمس وعشرين سنة من عمره مفطوما عن الحب والعطف والحنان . نعم كان هناك بعض المصادر التى يستمد منها ما تحتاجه ذاته من مشاعر وأحاسيس ولكن كان هذا فى حده الأدنى . ومثل هذا الأمر يؤصل الشعور بالحرمان أكثر مما يشبع الذات . تلك السنوات الطوال طبعت الشخصية بهذا الطابع . أنها ذات باحثة دائما ومتشوقة إلى أن تروى ظمأ الذات . وتطفئ هذا الشوق المشتعل دائما إلى أن تضم وتمنح وتعطى . ودخلت تلك السيدة العظيمة فى حياته . وروت عطشا

٥٤- الظاهرة القرآنية – صفحة (١٨٦ – ١٨٧)

واطفأت ظمأ وأرضت شوق تلك الذات من الحب والعطف ، فهى لم تكن تعتَبره زوجا فحسب وإنما ابنا وأخا وصديقا وأكثر وأقرب من كل هؤلاء ، واستطاعت أن تؤدى هذا الدور بكل كفاءة ، ساعدها فى ذلك سنها وتجاربها وفطرتها وذكاؤها فضمته إلى صدرها ، ومنحته كل ما يحتاجه من حب وعوضته عن حرمان ومرارة ومعاناة سنى عمره .

وهو أيضا لم يعتبرها زوجا فحسب ، بل أما وأختا وصديقة وحبيبة وأكثر من كل هؤلاء .

وعاش محمد ناعما هانئا بتلك الرعاية وهذا الحب .

ولكن كل هذا حب وعطف وحنان من مخلوق لمخلوق ، فخديجة - رضي الله عنها - تمنح من الحب والعطف والحنان على قدر ما تطيقه ذاتها ، نعم هى لم تدخر جهدا ولم تبخل ولم تقصر فى رعاية محمد والاهتمام به ، ولكن إذا جرب الإنسان حب وعطف وحنان الله ورعايته ، فهنا حب وعطاء خالق لمخلوق ، إذا جرب الإنسان عطاء الله فلابد أن تطوق نفسه إلى هذا الحب ، فهو حب لا مثيل ولا نظير له ، وإذا لمس طرفا من هذا الحب شغاف القلب ، فلن يقر له قرار حتى يكون على اتصال دائم بفيوض هذا الحب .

وهناك جانب لم يحظ بالاهتمام الكافى ، وهو نفسية محمد بعد لقائه بملك الوحى ، فلقد شعر بنوع من الرعاية والاهتمام الإلهي ، لم يشك لحظة أن مبعث هذا الاهتمام والرعاية هو الحب ، تفتحت كل مسام هذه الذات لتنهل وترتوى من هذا الحب الربانى ، وإذا كانت الذات الإنسانية تصل إلى حد الشبع والارتواء من الحب والحنان والعطف ، وتصل إلى حد الاكتفاء ، فهذا شأن الحب الإنسانى ، أما مع الحب الإلهى فلن يصل الإنسان إلى حد الشبع والارتواء والاكتفاء ، بل هو فى شوق دائم أن يكون موصولا بهذا الفيض ؛ لأن هذا الحب ينقله إلى ملكوت آخر ، وعالم غير العالم الذى يعيش فيه ، هذا الحب يجعله فى

معية الله . فالكون كله - وليس الإنسان فحسب - يهفو أن يكون موصولا بخالقه حب وجودى يشمل الوجود كله .

حينما نايلت محمدا حالة اللقاء الأول بالملك ، وتخلص من آثار تلك الصدمة أو المفاجأة ، واسترد هدوئه رسكينته . بدأت جوارحه تتنبه لشئ هام وتجاوز لقاء الملك وما جاء به من وحى وقرآن . فما وراء كل هذا أنه اصطفى دونا عن الخلق . واختير دونا عن العالمين ، إذن هذا دليل قوى على حب الله له وتفضيله على سائر الخلق . حينئذ تفجرت فى نفس محمد كل معانى الشكر والامتنان والحب . والمحب لا يطيق بعدا عن حبيبه . يريد أن يشعر أنه بجواره ومعه وعلى اتصال دائم به . وتمثلت تلك الصلة فى ملك الوحى وما يأتى به .

وأخال أن محمدا - ﷺ - كان يعد الساعات والأيام منتظرا وكله شوق ولهفة الوحى .

وهذا ما جعل إحساس محمد بالوقت الذى امتد بين الفترة الأولى والثانية يطول .

وهذا ما دفع محمدا يظن أن الله قلاه .

وهذا ما دفع محمدا يظن بأن الله قد حرمه من فضل قد غمره به .

وهذا ما دفع محمدا يظن بأنه قد حدث منه ما من شأنه أن يحرم من حب وقرب الله .

وما كان الله - عز وجل - ليذر رسوله يعانى ما يعانيه . فقد أرسل الملك ليتنزل على قلبه أمنا وسلاما .

﴿ وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ
﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا
فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾
وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾ الضحى: ١ - ١١

" والوحى ولقاء جبريل والاتصال بالله ، كانت هى زاد الرسول - ﷺ - فى مشقة الطريق وسقياه فى هجير الجحود ، وروحه فى لأواء التكذيب ، وكان ﷺ - يحيا بها فى هذه الهاجرة المحرقة التى يعانيها فى النفوس النافرة الشاردة العصية العنيدة ويعانيها فى المكر والكيد المصبوب على الدعوة وعلى الإيمان وعلى الهدى من طغاة المشركين .

فلما فتر الوحى انقطع عنه الزاد ، وانحبس عنه الينبوع واستوحش قلبه من الحبيب ، وبقى للهاجرة وحده بلا زاد وبلا رى وبغير ما اعتاد من رائحة الحبيب الودود وهو أمر أشد من الاحتمال من جميع الوجه ... عندئذ نزلت هذه السورة ، نزل هذا الفيض من الود والحب والرحمة والايناس والقربى والأمل والرضى والطمأنينة واليقين " [55] .

---

[55] - فى ظلال القرآن - سيد قطب - المجلد السادس - صفحة (٣٩٢٥)

obeikandl.com

الفصل الرابع

شخصية النبي محمد

" ما هذا الخطاب المفحم ؟ ما ذلك الدليل الملجم ؟ .. أأقول ما هذا بشرا ، إن هذا إلا ملك كريم ؟! لا، لاأقول ولكن أقول كما أمره الله أن يصف نفسه ، إن هو إلا بشر مثلكم يوحى إليه ، نبي صدق الأنبياء، ولكن لم يأت في الإقناع برسالته بما يلهي الأبصار أو يحير الحواس ، أو يدهش المشاعر ، ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له ، واختص العقل بالخطاب ، وحاكم إليه الخطأ والصواب، وجعل في قوة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة وآية الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

○ الإمام : محمد عبده

وما الشهادة للنبوة إلا أن تكون نفس النبي أبلغ نفوس قومه، حتى لهو في طباعه وشمائله طبيعة قائمة وحدها ، كأنما الوضع النفساني الدقيق الذي ينصب لتصحيح الوضع المغلوط للبشرية في عالم المادة وتنازع البقاء ، وكأن الحقيقة السامية في هذا النبي تنادي الناس ، أن قابلوا على هذا الأصل وصححوا ما اعترى أنفسكم من غلط الحياة وتحريف الإنسانية .

○ مصطفى صادق الرافعي

obeikandl.com

لم يعد الناس في القرن الواحد والعشرين ، وبعد مضي أكثر من ألف وأربعمائة عاما من هجرة الرسول - ﷺ - قانعين ومقتنعين بأن نقص عليهم مواقف أو أطراف من حياة النبي ، أو قول من أقواله أو حديث من أحاديثه ، أو أن يقف خطيب أو متحدث أو شاعر ليبث المستمعين أو القارئين خطبة أو مقالا أو قصيدة في حب ومدح الرسول ، ثم نطالب الناس بعد ذلك أن يحبوا الرسول ويطيعوه ويؤثروه عمن سواه . " وقد تعود الناس أن يقرأوا سيرة محمد رسول الله معروضة عليهم عرضا ترتاح إليه إليه نفس الرجل المسلم الذي يؤمن بأن محمدا هو رسول الله وخاتم النبيين المبعوث لهداية الجنس البشري ، أما سيرة الإنسان الذي يلقي بنفسه في زحمة الحياة ويضطرب فيها كما يضطرب البشر ، فيأكل كما يأكلون ويشرب كما يشربون ، ويحب ويبغض كما يحبون ويبغضون ويشعر كما يشعرون ، ويجاهد نفسه كما يجاهدون ، وتستولي عليه الغرائز التي تستولي عليهم وتحكمه البيئة بما فيها من عادات وتقاليد ووارثات كما تحكمهم - أقول - أما هذه السيرة التي تدرس لنا حياة محمد بشر يضبط مشاعره ويقوم نفسه ويعمل على تخليصها من رواسب العادات وضلالات الوراثة وانحراف البيئة ، فإن الناس لم يشهدوها . ولا ريب أن في هذا السرد لحياة رسول الله وحشوها بالخوارق والمعجزات إبعادا للفئة التي لا تدين بالإسلام عن معرفة محمد وصدا لها عن الإيمان به والوقوف على ما قدمه للبشرية من خير . وإدراك هذا الانقلاب الثوري الهائل الذي قام به فهز أركان المجتمع القديم القائم على العسف والظلم والاستعباد والفساد الذي ينزل بالإنسان عن إنسانيته .

لهذا كان الخير أن نعرض حياة محمد على الناس وأن نسلط عليها أضواء العلم وأن نتناولها بالتحليل والدراسة الدقيقة حتى يستطيع غير المسلم أن يقرأها

كما يقرأ سير المصلحين والعظماء في الأمم ، وأن يكون لمحمد مكانة رفيعةَ في قلبه تحمله على أن يوثق الصلة به وأن يتوسع في دراسة سلوكه وفي هذا أعظم الخير".[٥٦]

كذلك لا يكفي أن نصور لهم حب الصحابة للرسول حبا عظيما إلى الدرجة التي كانوا يؤثرونه على أنفسهم ، بل ويفدونه بأرواحهم ، فهم قد وصلوا إلى تلك الدرجة من الحب والإيثار لأنهم عايشوه ، خبروه ، عرفوه ، لمسوه بجوارحهم وأفئدتهم من لحم ودم وأعصاب ، طعموا معه وشربوا ، مروا معه بلحظات عصيبة وأزمات ومآزق زلزلتهم زلزالا ، كذلك مروا معه بأوقات عظيمة من الظفر والنصر ، شعروا خلالها بالعزة والكبرياء ، - كذلك - قادهم الرسول ، وأخذ بأيديهم حتى نالوا رضوان الله ، وأثنى عليهم في كتابه الكريم ، وتلك منزلة لم يكن ليقدر لهم أن يصلوا إليها لولا رسول الله - ﷺ - ، لماذا لا يحبونه، وهو النور الذي أضاء لهم ظلمات ودياجير حياتهم ؟ لماذا لا يحبونه وهو المنقذ الذي أنقذهم من الغرق في مستنقعات الكفر والوثنية ؟ لماذا لا يحبونه وهو الذي هداهم إلى عزة الخضوع لله الواحد الأحد؟ لماذا لا يحبونه وهو الذي أرشدهم إلى راحة وطمأنينة واستقرار القلوب والضمائر بسبب إيمانها بخالق الكون ومبدع الوجود ؟ .

إنهم يعرفون فضل الرسول حق المعرفة ، لأنهم قارنوا ما بين حياتهم ووجودهم قبل الرسول ، وحياتهم ووجودهم بعد الرسول . كل هذا وغيره جعل قلوب الصحابة تستنير حياتهم بحب الرسول .

بينما ما ينقل إلى الناس - الآن - أو جل ما يصلهم بالرسول مواقف وأفعال وأقوال وأحاديث !

وكل هذا - على جلاله وعلو شأنه - ليس النبي محمدا !

فليست أقوال وأفعال ومواقف محمد - ﷺ - ليست هي محمدا ، " إن المسلمين الآن يعرفون عن السيرة قشورا خفيفة لا تحرك القلوب ولا تستثير الهمم .

٥٦- من حياة محمد- دراسة تحليلية على ضوء علم النفس - د بد الحليم محمد محمود - صفحة (١١-١٢)

هم يعظمون النبي وصحابته عن تقليد موروث ومعرفة قليلة ويكتفون من هذا التعظيم بإجلال اللسان ، أو بما قلت مؤنته من عمل .

ومعرفة السيرة على هذا النحو التافه تساوي الجهل بها ، إنه من الظلم للحقيقة الكبرى أن تتحول إلى أسطورة خارقة ، ومن الظلم لفترة نابضة بالحياة والقوة أن تعرض في أكفان الموتى . إن حياة محمد ليست – بالنسبة للمسلم – مسلاة شخص فارغ أو دراسة ناقد محايد ، كلا كلا . إنها مصدر الأسوة الحسنة التي يقتفيها ، ومنبع الشريعة العظيمة التي يدين بها . فأي حيف في عرض هذه السيرة ، وأي خلط في سرد أحداثها إساءة بالغة إلى حقيقة الإيمان نفسه " [٥٧] .

فلا يمكن أن تغني تلك الأقوال والأفعال والمواقف عنه ، ولن يصلني كل هذا به ، لأني قد أعجب بالأقوال ، وأحب الأفعال ، وتهزني المواقف ، ولكن مازالت شخصية محمد بعيدة عني ، وأنا بعيد عنها ، إن هذا مثل قطرة ماء من محيط واسع زاخر ، فمحال أن تصور أو تجسد تلك القطرة لي المحيط باتساعه وعمقه وجلاله ورهبته ، أو تنقل لي ما في جوفه من آلاف بل ملايين الأحياء والمخلوقات والكائنات على مختلف الأشكال والأنواع والأجناس !

فنحن لا نعرف ولا ندرك صورة كاملة مكتملة عن شخصية الرسول ، كل ما هنالك خير من هنا ، وقول من هناك ، موقف من مواقفه العظيمة ، أو مأزق أو أزمة من التي مر بها في حياته المباركة ، آيات قرآنية كريمة جاء فيها ذكر الرسول بالثناء والمدح ، أو باللوم والعتاب ... أمور متفرقة وشئون مشتتة لا يجمعها رابط ، ولا يضمها جامع سوى أن موضوعها عن رسول الله .

هذه المعرفة وهذا الإدراك مضران أكثر مما هما نافعان !

لأنهما دافعان للابتعاد العقلي والوجداني عن الرسول أكثر مما هما محضان ودافعان إليه ، " هل عرف المسلمون محمدا – ﷺ – معرفة تدفعهم إلى

٥٧- فقه السيرة - الشيخ محمد الغزالي – صفحة (٧)

أن يأخذوا أنفسهم بإتباعه والسير على نهجه والتأسي بسلوكه ؟!إني أشك في أن كثيرا من المسلمين درسوا حياة محمد دراسة يقصدون من ورائها إلى اعتبار سلوكه ميزانا يزنون به سلوكهم ، ويربون به أنفسهم . إن كثيرا منهم يكتفون بإطراء خلق محمد ومعاملة محمد واتجاهات محمد النفسية والاجتماعية . ولا يحاول أحدهم أن يخرج من هذا الجانب السلبي الضيق إلى ميدان العمل الشخصي الفسيح في الحياة مترسما خطى هذا النبي في سلوكه . وقد يغالي بعضهم فيرتفع بمحمد عن حدود البشرية ويسبغ عليه أوصافا هو براء منها "[58]

فهنا – وبصفة خاصة – العلم المبتور والإدراك الناقص لا يغنيك عن العلم الكامل والإدراك التام ؛ لأنك إذا علمت عن الرسول بعض الأشياء . وجهلت أشياء أخرى ستتكون لديك صورة غير مكتملة وغير تامة عن شخصية الرسول . وهذا – في حد ذاته – لا يليق بالرسول الكريم أن تكون له صورة غير كاملة وغير مكتملة والواجب أن تكون له صورة كاملة ومكتملة .

ولا يليق بك أن تكون لديك تلك الصورة . وفي إمكانك أن تكون لديك الصورة الكاملة المكتملة .

وكتاب السيرة منذ أن بدءوا يسجلون سيرته – ﷺ – لم يغفلوا شاردة ولا واردة . ولم يهملوا كبيرة ولا صغيرة . ولم يتركوا شيئا عظيما أو هينا . إلا وسجلوه تسجيلا صادقا أمينا على قدر وسعهم من التحقق والتثبت . ولم يظفر أحد سواء كان نبيا أو رسولا أو بطلا أو عظيما من الاهتمام مثلما ظفر محمد . وربما لم تصبح ((السيرة)) على هذا الوضع والشكل من الدقة والشمول والتثبت والتمحيص ومراعاة كافة التفاصيل الزمانية والمكانية والأطوار والحالات النفسية والعقلية للأشخاص . إلا حينما ارتبطت بمحمد – ﷺ – فكتاب السيرة بصفة عامة قد أظهروا الأشخاص الذين كتبوا عنهم ببعد واحد . أو جسدوهم وأظهروهم كما يجسد

٥٨–من حياة محمد – دراسة تحليلية على ضوء علم النفس – د . عبد الحكيم محمد محمود – صفحة (١٠)

المثال تمثاله، شكل يطابق الأصل، ولكنها مطابقة جامدة، ميتة، لا حياة لا حياة فيها، ولكن كتاب سيرة ((محمد)) حاولوا – وقد وفقوا في مرات كثيرة - أن تأتي صورة ((محمد)) حية نابضة بالحركة والإيماءة والإشارة " عاش في العصور الماضية كثير من العظماء الذين تواترت الأنباء بأوصافهم السماعية وأوصافهم المرسومة في الصور والتماثيل. غير أننا لا نعرف أحدا من هؤلاء العظماء تمت صورته السماعية أو المنقولة كما تمت صورة محمد ﷺ من رواية أصحابه ومعاصريه، فنحن نعرفه بالوصف خيرا من معرفتنا لبعض المخلدين بصورهم وتماثيلهم التي نقلت عنهم نقل الحكاية والمطابقة. لأن هذه الصور والتماثيل قد تحكي للناظرين ملامح أصحابها ومعارفهم الظاهرة. وقد تحكي للمتفرسين شيئا من طبائعهم التي تنم عليها سيماهم. إلا أنها لا تحفظهم لنا كما حفظت الروايات المتواترة أوصاف النبي في كل حالة من حالاته وكل لمحة من لمحاته. في سيماه وفي هندامه. وفي شرابه وطعامه، وصلاته وصيامه وحله ومقامه وسكوته وكلامه. لأن الذين وصفوه أحبوه وأحبوا ان يقتدوا به فتحرجوا في وصفه كما يتحرج المرء في الاقتداء بصفات النجاة والأخذ بأسباب السلامة. فكانت أمانة الوصف هنا مزيجا من العطف والتدين، وضربا من اتباع السنن وقضاء الفروض. لم يختلف الوصف مرة إلا كما تختلف نظرة الناظر إلى وجه واحد بين ساعة وأخرى فيقول غير ما قال آنفا ثم لا يبدو التناقض ولا قصد التحريف بين القولين " [٥٩]

○ مناهج السيرة.

وتعددت طرق ومناهج أصحاب السير، فمنهم من سرد الأحداث سردا زمنيا متسلسلا. ومنهم من سرد الأحداث حسب أهميتها وخطورتها في حياة الدعوة وصاحبها – ﷺ – ومنهم من جمع بين الطريقتين ليخرج منهما بخير ما فيهما. " وقد استفدت من السيرة التي كتبها القدامى والمحدثون استفادة حسنة.

٥٩- عبقرية محمد – عباس محمود العقاد – صفحة (١٦٢)

إن المؤرخين المحدثين يميلون إلى التعليل والموازنة وربط الحوادث المختلفة فى سياق متماسك، وذاك أحسن ما في طريقتهم. والمؤرخون القدامى يعتمدون على حشد الآثار، وتمحيص الأسانيد وتسجيل ما دق وجل من الوقائع والشئون. وفى هذه المحفوظات الكثيرة نفائس ذات خطر، لو أحسن الاستشهاد بها وإيرادها في مواضعها.

ولعلى هنا مزجت بين الطريقتين على نحو جديد، يجمع بين ما في كلتيهما من خير، فجعلت من تفاصيل السيرة موضوعا متماسكا يشد أجزاءه روح واحد، ثم وزعت النصوص والمرويات الأخرى بحيث تتسق مع وحدة الموضوع وتعين على إتقان صورته وإكمال حقيقته.

وقصدت من وراء ذلك أن تكون السيرة شيئا ينمي الإيمان، ويزكي الخلق ويلهب الكفاح، ويغري باعتناق الحق والوفاء له، ويضم ثروة طائلة من الأمثلة الرائعة لهذا كله "[٦٠]

ومنهم من أهتم بالغزوات والحروب التي خاضها الرسول.

كما أن كتب السيرة منها ما جاء حافلا بكل ما روي عن رسول الله، بدون تدقيق أو غربلة وتمحيص، وجاء – في العصر الحديث – من اعتمد على هذه الكتب التي يختلط فيها الغث بالسمين، ليؤسس ويقيم أحكاما تجافي المنطق وتخالف العقل " أن أول كتب السيرة إنما كتب بعد قرنين من عصر محمد، دست أثناءها ألوف الأحاديث المكذوبة. ومع أن المستشرقين يقررون هذه الحقيقة تراهم لا يأبون مع ذلك تناسيها ليقرروا أمورا يعتبرونها صحيحة مع أن أقل التمحيص ينفيها من ذلك مسألة الغرانيق ومسألة زيد وزينب ومسألة أزواج النبي "[٦١]

٦٠- فقه السيرة – الشيخ محمد الغزالي – صفحة (٨)
٦١- حياة محمد – محمد حسين هيكل – صفحة (٤٠)

ومنهم من عرض الأحداث واحتفل بما يتفق مع العقل والمنطق ، واستبعد ونفى ورفض ما لا يتفق مع جلال وعظمة الرسول ، ومنهم من عرض الأحداث عرضا حياديا ، وترك القارئ يستخلص منها ما يشاء ، ومنهم من خرج بالدلائل والعبر والعظات ، ومنهم من احتكم وحكم المنهج أو المذهب الموضوعي " ومعنى هذا أن كتاب السيرة النبوية وعلماءها ، لم تكن وظيفتهم بصدد أحداث السيرة إلا تثبيت ما هو ثابت منها ، بمقياس علمي يتمثل في قواعد مصطلح الحديث المتعلقة بكل من السند والمتن ، وفي قواعد الجرح والتعديل المتعلقة بالرواة وتراجمهم وأحوالهم .

فإذا انتهت بهم هذه القواعد العلمية إلى أخبار ووقائع وقفوا عندها ودونوها ، دون أن يقحموا تصوراتهم الفكرية أو انطباعتهم النفسية أو مألوفهم البيئة إلى شيء من تلك الوقائع بأي تلاعب أو تحوير .

لقد كانوا يرون أن الحادثة التاريخية التي يتم الوصول إلى معرفتها ، ضمن نفق من هذه القواعد العلمية التي تتسم بمنتهى الدقة حقيقة مقدسة ، يجب أن تجلى أمام الأبصار والبصائر كما هي كما كانوا يرون أن من الخيانة التي لا تغتفر أن ينصب من التحليلات الشخصية والرغبات النفسية التي هي في الغالب من انعكاسات البيئة ومن ثمار العصبية ، حاكم مسلط يستبعد منها ما يشاء ويحور فيها كما يريد .

ضمن هذه الوقاية من القواعد العلمية ، وعلى ذلك الأساس من النظرة الموضوعية للتاريخ ، وصلت إلينا سيرة المصطفى ﷺ ، بدءا من ولادته ونسبه ، إلى طفولته ، فصبوته اليافعة ، إلى الارهاصات الخارقة التي صاحبت مراحل طفولته وشبابه ، إلى بعثته وظاهرة الوحي التي تجلت في حياته ، إلى أخلاقه وصدقه وأمانته إلى الخوارق والمعجزات التي أجراها الله تعالى على يده ، إلى مراحل الدعوة التي سار فيها لتلبية أمر ربه ، من سلم فدفاع ، فجهاد مطلق حيثما طاف بالدعوة

إلى الله تعالى أي تهديد، إلى الأحكام والمبادئ الشرعية التي أوصى بها إليه قرآنا معجزا يتلى، وأحاديث نبوية تشرح وتبين "[٦٢].

نعم لقد غطى كتاب السيرة هذه النواحي والجوانب من حياة الرسول بكل مقدرة وكفاءة يحدوهم الإخلاص والحب والتفاني، لا أحد ينكر ذلك، ولكن لم نر - فيما نعلم - من خرج علينا بصورة مكتملة لشخصية الرسول، وملامح تلك الشخصية سواء كانت ملامح فكرية أو عقلية، وجدانية أو نفسية، مسجلات لحظات اليأس والإحباط والحزن، والقلق والتوتر والضيق، أو أوقات السعادة والفرج والتفاؤل والاستبشار والظفر والنصر، أو يجلو جوانب وأدوار ومراحل تطور ونمو تلك الشخصية العظيمة، وكيف أثرت التجارب والمآزق والأزمات التى تعرض لها في شخصيته، وكيف أسهم كل هذا في نضج وصقل والارتقاء بالشخصية.

نعم هناك من كتب عن محمد الرجل ومحمد الأب ومحمد الزوج ومحمد الثائر ومحمد القائد ومحمد المؤسس، ولكن كان كل جانب من تلك الجوانب منفصلا ومستقلا عن الآخر، لم تتجمع كل تلك الجوانب ولم تتضافر لتكون في النهاية صورة كاملة للشخصية، فكل تلك جوانب من شخصية محمد، نواحي من شخصيته، ولكن ليست شخصيته، وأنت إذا تحدثت عن جانب من جوانب الشخصية وأغفلت الشخصية ككل، فقد اختزلت واجتزأت واختصرت، وكل هذا ظلم وغبن للشخصية ؛ لأنك لم توفها حقها، وكان في الإمكان أن توفي، وظلم وغبن للقارئ، لأنك أعطيته شيئا غير تام، وكان في الإمكان إتمامه، ومنحته شيئا غير كامل، وكان في الإمكان إكماله.

ربما لم يسلكوا هذا المسلك لعدة أمور منها :

أن شخصية الرسول محاطة بهالة من الإجلال والتقديس، تلك الهالة تمنع الكتاب من الاقتراب وإذا اقتربوا فبحرص وحذر وخوف ووجل، وهذا يدفعهم

٦٢- فقه السيرة — د. محمد سعيد رمضان البوطي — صفحة (٢٢)

إلى رسم صورة مثالية ، أو الإقرار بمثالية شخصية الرسول ، وأنت إذا تحدثت أو رسمت صورة مثالية لشخص – ناهيك عن الرسول – فقد انتهيت من حيث بدأت ، ولم تضف شيئا ، لاسيما وإذا كان لهذا الشخص فعلا – في الأذهان والضمائر – تلك الصورة المثالية التي تتحدث عنها ، بل أن بحديثك هذا قد لا تصل إلى ما هو ماثل ومجسد بالفعل في النفوس والقلوب ، وإنما يجب – في تلك الحالة – أن ينصب حديثك على هذا الأسلوب أو تلك الطريقة أو المراحل التي مر بها الشخص ، وتلك المجاهدات والمحاولات والمآزق والأزمات التى اجتازها الشخص ليصل إلى تلك الصورة المثالية ، من منطلق إنساني بحت ، والمنطلق الإنساني هو الذي سيفتح مجالا من المشاركة بينك وبين الشخصية والتعاطف والاقتداء وليس عليك بعد ذلك أن ترسم الصورة المثالية ، وتجسد ملامحها وتحدد سماتها وتبين مميزاتها ، بل اترك الآخرين يفعلون ذلك ، وكل فرد – بعد ذلك – قادر على أن يصل إلى أقصى آماد التمام والتكامل للشخصية . " ولسنا نخشى أن نعرض لحياة محمد بالدرس والتحليل ، فإنه ليس فيها – بحمد الله – ما يخافه المسلم على نبيه لأن حياته الكريمة ليست ملكا للمسلمين وحدهم ، بل هي ملك للبشر جميعا يدرسونها ويفتشون فيها ، وينقدون في زواياها ، ويظهرون خفاياها وينشرونها على الناس ، فيفوح أريجها العطر وتسطع أضواؤها الباهرة " [٦٣].

- أن أعمال وأفعال ومواقف الرسول كانت من الوضوح والجلاء بحيث لم يكن هناك داع أو مبرر لسبك أو استخلاص شخصية للرسول من كل تلك المواقف والأفعال ، فليس هناك غموض ولا إبهام ، ولا مناطق ظل أو أشياء خفية أو متوارية ، ليحاول أحد توضيح هذا الغموض أو تجلية هذا الإبهام أو إظهار هذا المخفى أو كشف هذا المتوارى .

٦٣- من حياة محمد – دراسة تحليلية على ضوء علم النفس – د . عبد الحليم محمد محمود – صفحة (١٣)

obeikandi.com

- العقلية التي جمعت وصنفت وسجلت وكتبت وفحصت ، لم يكن من طموحاتها أو أهدافها استخلاص نمط أو طراز أو نوع شخصية الرسول أو رد كل تلك الأفعال والمواقف والأقوال إلى جوهر واحد أو تعليلها بسبب صدورها عن مصدر واحد لا يختلف مهما اختلفت المواقف والقضايا والأحداث .
- عدم توافر الأساليب والأدوات والنظريات العلمية التي تعين على تلك الدراسة ، لاسيما وأن الأمر لم يكن له سوابق يعتمد عليها ، أو أن الطرق قد مهدت أو حتى سويت ليطمئن إلى السير فيها ، فعلم النفس وعلم دراسة الشخصية لم يصلا إلى نتائج مرضية يحسن الركون والاطمئنان إليها .
- من العسير شخصنة الإنسان العادي ، بمعنى حصر كل أفعاله وتصرفاته وأفكاره وأرائه داخل نمط شخصي معين ، هذا النمط يفسر ويوضح الدوافع والمحرضات لتلك التصرفات والأفعال ، أو أن تلك الأفعال والتصرفات تندرج بصدق وحق تحت هذا النمط ، وهذا العسر للشخصنة راجع إلى أنك في حاجة ماسة لمعرفة هذا الإنسان معرفة يقينية ، بمعنى لا يخفى عليك شيء مما يصدر عنه من قول أو فعل ، لأنه ربما فعل أو قول أو رأي خفي عنك يكون عليه المحور أو المركز أو النواة للشخصية ، والتي بدونها يغيب عنك أهم شيء يعينك في دراسة الشخصية . فإذا كان هذا حادثا على مستوى الإنسان العادي ، فما بلك بشخصية النبي ، فشخصيته ثرية ثراء لا حدود له ، فهل سندرس شخصيته كإنسان عادي ، أم سندرسه كنبي ؟ فإذا درسناه كشخصية إنسان عادي ، فهو ليس كذلك وإذا درسناه كنبي ، فإن النبوة ظاهرة إنسانية فلا نستطيع أن نتصور النبي – أي نبي – مستقلا عن الجانب الإنساني ، على هذا فلابد من دراسة

الإنسان في النبي ودراسة النبي في الإنسان . وهذا – في حد ذاته – أمر في غاية العسر . لأنك لا تدري أين ومتى تبدأ النبوة .ويتراجع الإنسان ؟ ولا أين ومتى يبدأ الإنسان وتتوقف النبوة . وما تأثير كل منهما في الآخر ؟

لتلك الأسباب التي ذكرناها لم تتوافر دراسة تتناول شخصية الرسول كوحدة مستقلة ونظام متكامل . وربما يسأل سائل ... وما جدوى تلك الدراسة ؟ وما الجديد فيها ؟ .

أما جدواها : البعض يظن أن محمدا – ﷺ – في كل ما يفعل وما يقول إنما يصدر عن الوحي . وأن كل المشاكل والمآزق والأزمات التي كانت تعترضه وتعترض الدعوة . كان يتوقف ويجمد كل شيء منتظرا أمر الوحي . وما يشير به أن يفعله أو يقوله . وهذا الظن . يخالف الواقع . ويعارض نمط وطراز شخصية الرسول فأغلب أفعال وأقوال وتصرفات الرسول كإنسان له فكره واجتهاده . والدليل على ذلك أمران :

الأول : مشاورته أصحابه . وكانت لتلك المشاورات . وما صدر عنها قرارات مصيرية نصيب كبير في حياة الإسلام والمسلمين .

الثاني : هناك أحداث ومواقف خالف الوحي فيها اجتهاد الرسول . جاء الوحي مصوبا ومقوما ومصححا ما أخذ به الرسول .

إذن لم يكن محمد – ﷺ – مقيدا أو جامدا في أفعاله وأقواله . منتظرا أن يأتي الوحي ليهديه ويرشده ويوجهه . وإنما كان يتصرف وفق شخصيته ووفق أفكاره واجتهاداته . وهذا جانب أعظم في شخصية الرسول . والآيات الكريمة التي خالفت اجتهاد الرسول . وتضمنت شيئا من العتاب واللوم والمراجعة . لتشير بطريق غير مباشر – ولكنه مؤكد وصادق وواضح – إلى هذا الجانب في شخصيته ونسأل هنا ... ما ضر الرسول لو انتظر ما يشير به الوحي في كل كبيرة وصغيرة ؟

لو شاءت إرادة الله لسبق الوحي كل أفعال وأقوال الرسول ، ولكن تأبى عظمة الرسول ألا ينتظر وألا يتوقف وألا يجمد ، وإنما يندفع بكل جرأة وقوة مستلهما فكره وعقله ، متخذا قراراته بكل حزم وحسم ؛ لأنه يعلم من حوله كيفية التصرف واتخاذ القرارات .

وتشاء إرادة الله أن تمنح الرسول مساحة واسعة يجتهد فيها وفق بشريته وإنسانيته .

إذا أدركنا بعمق ووعي هذا الجانب في شخصية الرسول ، سنصل إلى منزلة الإعجاب ، والإعجاب سيصل بنا إلى مرتبة الحب ، وإذا وصلنا إلى مرتبة الحب سيساعدنا هذا في تجسيد صورة وشخص الرسول ، وإذا استطعنا تجسيد صورة الرسول سنعرف أبعاد وجوانب الشخصية ، وإذا وصلنا إلى ذلك أمكننا أن ننظر إلى الرسول كبشر أمامنا ، من لحم ودم وأعصاب ، يتحرك أمامنا ملؤه الحياة والحيوية ، نسمع صوته آتيا لنا من أعماق الضمير ، نلمح إيماءاته ، نبصر إشاراته ندرك مغزى أفعاله ومدلول تصرفاته ، نشم رائحته الطيبة ، نجلس معه ، نحدثه ويحدثنا ، نسأله ويجيبنا ، نحاوره ويحاورنا ، إنه منا ونحن منه ، وهو – لا شك – يحبنا ، لأن جوهر شخصيته الحب ، ونحن نحبه ، حب فكر وعقل ووجدان وضمير وطاعة .

أما الجديد : كل جوانب شخصية الرسول تامة ومستوفاة ، فإذا نظرت إليه كإنسان ، ستجد الإنسانية في صورتها الكاملة التامة المستوفاة .

وإذا نظرت إليه كزوج ستجده كذلك .

وإذا نظرت إليه كأب ستجده كذلك .

وإذا نظرت إليه كصاحب ستجده كذلك .

وإذا نظرت إليه كبشر ستجده كذلك .

ليس هناك نقص في أي جانب من تلك الجوانب ، وهذا التمام والاستيفاء ثابت ومستقر ، وليس متذبذبا أو متأرجحا ، فليس للأحداث والظروف والتغيرات أن تؤثر على درجة التمام والاستيفاء ، فهو أمين - مثلا - في حالة رضاه ، وفي حالة غضبه ، مع من يحب ، ومع من يكره ، وكذلك جميع صفاته ، لأن تلك الصفات أصيلة في طبعه ، هو لا يتكلفها ، ولا يحاول إيجادها أو الاستزادة منها ، أو محاولة استدامتها ، إنها تصدر عنه كما يصدر الضوء عن الشمس ، والنور عن القمر .

الأهم من كل هذا والأعظم ، أن هناك توازن أو تعادل بين تلك الجوانب. فلا جانب يطغى على الآخر ، ولا جانب يتسيد ويهيمن على الجوانب الأخرى ، كل جانب تحقق بنسب متعادلة ومتوازنة مع بقية الجوانب ، وفي النهاية كل تلك الجوانب هي مزاج شخصية الرسول .

وظن البعض أن الرسول في بيته يكون مشغولا بأمور الدعوة ، وهي أمور يشيب لها الولدان ، وسألوا : ماذا يفعل الرسول في بيته ، فعرفوا أنه يمارس حياته في بيته كزوج ورب أسرة مثل غيره ، يرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويحلب شاته ويكون في خدمة أهله .... الرجل الذي غير العالم ، ويغيره ، وسيغيره ، يرقع ثوبه ويخصف نعله ، أليس هو القائل : ((إن لبدنك عليك حقا وإن لأهلك عليك حقا وإن لربك عليك حقا ، فأعط كل ذي حق حقه)).

وقد ذكر لنا التاريخ عظماء وأبطال نذروا أنفسهم لشيء ونبغوا فيه نبوغا كبيرا وخلدهم التاريخ ، ولكن هذا النبوغ وهذا التفوق كان على حساب جوانب أخرى من شخصياتهم ، فقد أهمل كل منهم نواحي هامة من شخصيته ، وسخر وجوده كله لتحقيق شيء واحد ، وهذا في حد ذاته نقص في الشخصية أو اختلال أو اضطراب ، ولا يحسب هذا النبوغ والتفوق للشخصية وإنما هو عليها ، لأن الانجاز الحقيقي أن لا تهمل جانبا واحدا من جوانب الشخصية ، وأن تحقق المعادلة الصعبة ، وهي التوازن بين حاجات ومتطلبات الكيان الإنساني " فعندما يتحقق

التوازن في شخصية الإنسان – بإشباع – حاجات الروح والجسد – تحقق ذاتية الإنسان في صورتها الكاملة والتى تمثلت في شخصية الرسول ﷺ . فكان ﷺ يعبد الله سبحانه وتعالى حق العبادة في صفاء وخشوع . كما كان يعيش حياته البشرية كغيره من البشر يشبع حاجاته البدنية في حدود ما شرع الله سبحانه وتعالى . لذا فشخصية النبي – ﷺ – تمثل شخصية الإنسان الكامل والشخصية النموذجية . قال تعالى﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ الأحزاب: ٢١"[٦٤]

وهذا الذي دفع الرسول لرد على هؤلاء النفر الدى أراد كل منهم أن يقصر وجوده على جانب واحد من متطلبات الشخصية الإنسانية . فقال لهم الرسول : أما أنا فأصوم وأفطر . وأتى النساء ...)).

وفي النهاية ظهرت لنا شخصية الرسول من طراز رفيع لا مثيل له في التمام والكمال ، ومن هنا تحققت الأسوة الحسنة .

Obeikandl.com

٦٤- الإعجاز النفسي للقران الكريم – د . مصطفى رجب – صفحة (٢١٢)

الفصل الخامس :

القرآن وشخصية الرسول

"أمر محمد – ﷺ – بأن يبلغ عن ربه ، ولم تبين له الطرق التي يتبعها في التبليغ وحماية الدعوة ، وترك له أن يتصرف بعقله وعمله وفطنته ، كما يتصرف غيره من العلماء والعقلاء ، وجاء الوحي مفصلا قاطعا في كل ما يخص ذات الإله ووحدته وصفاته وكيفية عبادته، ولم يكن كذلك فيما يخص النظم الاجتماعية للأسرة والقرية والمدينة والدولة منفردة ومرتبطة بغيرها من الدول ، فهناك مجال واسع للبحث عن عظمة النبي– ﷺ – قبل الوحي ، وهناك مدى فسيح للبحث عن تلك العظمة بعد الوحي."

٥ الأستاذ الأكبر الشيخ : محمد مصطفى المراغي

obeikandl.com

obeikandl.com

موقف ، أو أزمة ، أو مأزق ، مما تعرض له رسول الله لو تعرض لها أي إنسان لسحقت شخصيته سحقا ، ولصهرتها صهرا ، لولا أن القرآن كان بجانب الرسول مثبتا ومقويا ومهونا ، ويتخذ القرآن المواقف المتعددة من الرسول حسب ما يتفق مع القضية أو المأزق أو الأزمة ، فلن يستطيع الرسول – ﷺ – أن يواصل كفاحه وجهاده وقد سيطر الإحباط أو الحزن أو اليأس على شخصيته ، فلابد أن تكون شخصية الرسول في أوج تألقها وفي ذروة قوتها وتمام إرادتها ومضاء عزيمتها لا لكي يتغلب وينتصر على ما يعترضه ، ولكن لأن من حوله يستمدون منه القوة والإرادة والعزيمة .

والقرآن يصور تلك المراحل والمنعطفات والمنحنيات التي مرت بها شخصية الرسول خلال سني الدعوة ، ملقيا الضوء في نهاية الأنفاق المظلمة الوعرة التي يجد الرسول نفسه منفردا وحيدا فيها ، مبددا ما قد يداخل نفس الرسول من ألم وحزن ، منبها الرسول إلى وجوب المحافظة على نفسه من أن تتصدع ، وعلى شخصيته من أن تنهار ، وعلى وجدانه من أن يتزلزل ، فكم تلقى وسيتلقى الرسول الكثير من الصعوبات والعقبات ، وكم سيصادف وصادف الكثير من المآزق والأزمات ، ومع كل ذلك يجب أن تظل شخصيته صلبه كالصخر الذي تتكسر عليه نبال وسهام الحقد والكراهية من أعدائه وأعداء الله .

لذلك كان الرسول يجد في القرآن نعم العزاء ، ويجد فيه خير مدد ، وأفضل معين يعينه على أن يتحدى العالم ، ويصبر على المؤامرات ويتصدى لجيوش الظلام والكفر ، لذلك كان يتلوه آناء الليل وأطراف النهار . وكانت الفترة التي قضاها الرسول في مكة ، في بداية الدعوة من أشق وأصعب الفترات التي مرت به ، فقد شعر أن الحصار قد أحكم حول الدعوة ، فهاهي الأيام والشهور تمر بدون جدوى وكل محاولاته لا تحدث النجاح أو التوفيق الذي يرجوه ، وكان الهجوم شرسا على

شخص رسول الله ، وتفنن الكفار في أنواع الإيذاء والضرر الذي يلحقونه بشخص الرسول والمسلمين . وكان الرسول يستعرض الوضع فيجده هكذا ،

- حالة من الحصار المحكم والجمود في الدعوة .
- إيذاء الرسول والطعن في نبوته باتهامه تارة بالجنون وأخرى بالسحر وثالثة بأنه شاعر .
- تعرض المسلمين لصور وأنواع من الاضطهاد والتعذيب

وقد بذل الرسول جهودا جبارة لمحاولة الخروج من هذا المأزق . وامتلأت نفسه بالحزن والأسى حينما لم يجد أذنا صاغية لدعوته ، ولم يقف الأمرعند هذا، بل بدأوا يهاجمون ويحاولون القضاء عليه وعلى الدعوة وعلى المسلمين .

المرارة والألم والحسرة والحزن يحيطون بالرسول من كل جانب ، وهذا من شأنه أن يؤثر تأثيرا سيئا على نفسية الرسول ، ولنبل ورقي وسمو شخصية الرسول فإنه لم يحزن على ما كان يحيق ويلحق به ، ولم يكن كذلك يحزن على ما يلقاه المسلمون من شدة وعنت وعذاب ، فكل هذا له أجره وثوابه عند الله . ولكن حزنه الحقيقي على هؤلاء الذين يصرون على الكفر والعصيان ، فإنهم لا يعلمون مغبة ونتيجة هذا الجحود والإلحاد ، إنه يأسى لهم ويحزن عليهم . فالأمر جد وليس بالهزل ، ليتهم يعلمون شيئا عن مصيرهم ، أو ليتهم يستجيبون لينقذوا أنفسهم وينجوا من المصير البائس . ويخرج القرآن الرسول من تلك الدوامة المهلكة والمشكلة من الحزن واليأس والإحباط . ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾الكهف: ٦،"والمعنى: لا تهلك نفسك-أيها الرسول الكريم - هما وغما بسبب عدم إيمان هؤلاء المشركين.وبسبب إعراضهم عن دعوتك ((فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب)). و((إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء)) .

قال الزمخشري : شبهه – سبحانه – وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به وما داخله من الأسف على توليهم ، برجل فارقته أحبته وأعزته فهو يتساقط حسرات على آثارهم ؛ ويبخع نفسه وجدا عليهم وتلهفا على فراقهم " [٦٥].

هنا القرآن يهدئ من غلواء الرسول ، يبطئ من اندفاعه الذي قد يقوده أن يهلك نفسه حزنا ... نعم ، يعز عليك أيها الرسول عناد قومك ، ولكن ليس معنى أن هناك عقبات تحول بينك وبين تحقيق هدفك أن تقتل نفسك ، فقبل أن تجاهد هؤلاء يجب أن تجاهد الحزن واليأس والإحباط والحسرة أن يسيطروا عليك .

ويهون القرآن على رسول الله في سورة أخرى (الشعراء) مخاطبا إياه أن لا يهتم بعناد وصلف وتكبر ولجاج هؤلاء الكفار ، فهم لا يعجزون الله في شيء ، فالله قادر أن يجبرهم ويخضعهم على أن يؤمنوا بك في طرفة عين ، ولكن الله – تعالى – لا يريد ذلك ، بل يريد أن يؤمنوا بملء إرادتهم ، غير مجبرين على هذا ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ ﴾ الشعراء: ٤ – ٥

" والمعنى : لعلك – أيها الرسول الكريم – لا تفعل ذلك ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب وإنك لا تستطيع هداية أحد ولكن الله – تعالى – يهدي من يشاء وإننا (إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين) ومفعول المشيئة محذوف ، والمراد بالآية هنا المعجزة القاهرة التي تجعلهم لا يملكون انصرافا معها عن الإيمان ، والأعناق جمع عنق ، وقد تطلق على وجوه الناس وزعمائهم تقول: جاءني عنق من الناس : أي جماعة منهم أو من رؤسائهم والمقدمين فيهم والمعنى لا تحزن يا محمد لعدم إيمان كفار مكة بك ، فإننا إن نشأ إيمانهم ، ننزل عليهم آية ملجئة لهم على الإيمان ، تجعلهم ينقادون له ويدخلون فيه دخولا ملزما

٦٥- التفسير الوسيط للقرآن الكريم – د . محمد سيد طنطاوي – صفحة (٤٧٠)

لهم . ولكننا لا نفعل ذلك ، لأن حكمتنا قد اقتضت أن يكون دخول الناس في الإيمان عن طريق الاختيار والرغبة وليس عن طريق الإلجاء والقسر "[٦٦].

٥ رعاية القرآن للنبي

قد يظن ظان أن النبي له طبيعة تجعله فوق مشاعر الناس العاديين، أو لديه من المناعة والقوة أن لا يخضع لما يخضع له الناس من عواطف وأحاسيس ، وأنه ليس في حاجة إلى تعليم أو توجيه أو إرشاد وتقويم . وأن الأمور كلها بالنسبة له واضحة لا لبس فيها . وأن الأزمات والمآزق لا تلبث أمامه إلا دقائق أو ثوان حتى يصل فيها إلى قرار هو الحق كل الحق ، وأن المعجزات والأمور الخارقة طوع بنانه يريدها متى يشاء ، وأن هناك أمورا كثيرة مسخرة لإرادته وطلبه . وأنه لا يفكر ويجهده التفكير . ولا تتملكه الحيرة . وأنه لا يحاول أن يجد مخرجا للمآزق قد يجد نفسه فيه ، أو حلا للأزمة تحدق به .

كل تلك الظنون غير صحيحة . وربما لم يفهم النبوة الفهم الحق سوى الصحابة الأولون الذين عاشوا وتعايشوا مع النبي واختلطوا به وامتزجوا فيه وسبروا غور شخصيته . فهم يدركون أنه بشر مثلهم ، وأن بعض آرائه – من منطلق بشريته – قد لا تصادف الحق . لذلك كانوا يسألونه فيما يقوله ويقرره أعن وحي أم عن رأى ومشورة . فإذا قال إنه الوحي كانوا لا يناقشونه . وإنما هي الطاعة المطلقة أما إذا كان القرار عن رأي فكانوا يناقشونه ويراجعونه وقد يخالفونه . وكان لشدة تواضعه ينفذ الأمر الذي قالوا به حينما يتبن له وجه الصواب .

هذا موقف الصحابة من النبي . تارة يتعاملون معه من منطلق أنه نبي طالما يحدثهم عن وحي أوحي له . وترة يتعاملون معه أنه بشر طالما الأمر خارج الوحي . هنا الحقيقتان منفصلتان ، حقيقة البشرية وحقيقة النبوة ولكل مقام مقال .ولكن الأمر مع القرآن مختلف . فالقرآن لا يتعامل إلا مع النبي . بل وصف

٦٦- المصدر السابق – صفحة (٢٣٢- ٢٣٣)

النبي لا يقوم ولا يتضح إلا من خلال علاقة النبي بالقرآن . ولكن أيعني هذا أن القرآن لا يعترف ولا يقر صفة البشرية ولا يعتد إلا بالنبوة ؟ كيف ذلك وعين الوجود هي البشرية ، والنبوة طارئة على تلك الصفة ؟ .

ليس هناك تعارض إذا عرفنا أن هناك حقيقة بشرية أو حقيقة إنسانية وحقيقة قرآنية ، وأنه يجب ان تتفق وتوافق الحقيقة الإنسانية الحقيقة القرآنية وأنه يجب ألا يكون هناك تعارض أو تصادم بين الاثنين .

○ الحقيقة الإنسانية والحقيقة القرآنية.

حقيقة الشيء : هو الشيء كما خلقه الله ، بدون زيادة أو نقصان ، بدون تغيير أو تحويل أو تبديل .

وكثيرا ما تضيع أو تطمس أو تبدل أو تغير حقائق الأشياء عندنا نحن البشر وهذا راجع إلى الجهل أو الحب أو الكره .

فالجهل نوع من الانفصال أو الابتعاد المتعمد أو غير المتعمد عن الشيء وكأن هذا الشيء غير موجود بالنسبة للجاهل ، فهو ليس في دائرة وعيه أو في إطار اهتماماته أو في نطاق حواسه المدركة .

والحب نوع من الارتقاء والسمو والارتفاع بالشيء ، وقد يصل الأمر في أحيان كثيرة إلى تقديسه ، وهو في حقيقته غير مقدس ، وبذلك أخرجت الشيء عن حقيقته .

والكره نوع من التحقير والضعة والتدني ، وبذلك تكون قد بخست الشيء وظلمته وبددت الكثير من سماته وصفاته .

وحقيقة الشيء إما أن نصل إليها بجهد بشري محض ، بعد إعمال العقل وتصريف الفكر في أوجه كثيرة وإما أن نصل إليها من خلال وبمساعدة وإرشاد الوحي الإلهي، والحقائق التي يصل إليها الإنسان بعقله تعد حقائق نسبية، أو لنقل حقائق متواضعة تواضع العقل البشري ، تقبل النقاش والجدل ، أما حقائق الوحي

الإلهي فهي حقائق مطلقة لا تقبل النقاش او الجدل ؛ وذلك لوضوحها وبساطتها وعدم تغيرها أو تبدلها .

○ حقيقة النبي

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ الكهف الآية ١١٠ فالنبي بشر، بل النبوة محصورة في البشرية أو مقصورة عليها ، وتلك البشرية ليست شيئا غامضا . وبالنسبة للنبي نوع راق غير الذي عليه بقية البشر، فكل ما يخضع له البشر يخضع له النبي من مرض وموت وضعف وحيرة وحزن واكتئاب وإحباط الخ ...ولكن الفارق بين البشر والنبي أنه يوحى إليه . والإيحاء يقتضي نوعا من التعديل في بشرية النبي ، وهذا التعديل لا يخرجه عن دائرة البشرية . فالوحي الإلهي يقتضي نوعا من الارتقاء البشري ، والموحي إليه يستلزم نوعا من التطهر النفسي والوجداني والعقلي حتى يتسنى له صلاحية استقبال الفيض الإلهي .

والتطهر النفسي والوجداني والعقلي يكون – عادة – من ذنب أو معصية أو خطيئة ، وتلك الأشياء من لوازم أو من سمات البشرية . فهل إذا صدر من الأنبياء – صلوات الله عليهم – مثل تلك الأشياء ، فما الميزة التي تميزهم عن بقية البشر ؟ وهل إذا صدر منهم ذلك ، هل ينال ذلك من مقامهم ومكانتهم ؟

بالطبع لا ، لأن ما من أحد صدر منه شيء من هذا إلا وسارع مستغفرا تائبا منيبا إلى الله – عز وجل – مقرا ومعترفا بتقصيره ، وهذا في حد ذاته – الاستغفار والتوبة والاعتراف والاقرار – ترفع من مكانة وقدر الشخص بصفة عامة والنبي بصفة خاصة ، لأن هنا لا يشغلنك أمر الذنب والمعصية ، ولكن ليشغلنك أمر التطهر وما يفعله في النفس من حض وحفز لها لترتقي في مدارج الرقي والسمو والإنسان لا يتطهر ليمحو آثار الذنب والمعصية فحسب ولكن لينتقل نقلة أعلى وأرقى مما كان عليه قبل الذنب والمعصية ، فالتطهر ليس عودة لما كان عليه

الإنسان قبل الذنب والمعصية ،ولكنه يخلق الإنسان خلقا آخر، لدية من المناعة والقدرة ما يمكنه لا أن يتحكم في طبعه البشري فحسب بل ليعلو به درجات في سبيل الكمال " احتجوا أيضا بأن الذنوب تنافي الكمال وأنها توجب التنفير ، ونحو هذا من الحجج العقلية . ورد بان هذا إنما يكون من البقاء على ذلك ، وإلا فالتوبة النصوح التي يقبلها الله يرفع بها صاحبها إلى أعظم مما كان عليه ، كما قال بعض السلف : كان داود عليه السلام بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة ، وكان يونس بعد خروجه من بطن الحوت وتوبته أعظم درجة منه قبل أن يقع منه ما وقع . قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ القلم: ٤٨ - ٥٠ .

وهذه الحال الأخيرة بخلاف حال التقام الحوت ، فإنه قال فيه ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ الصافات: ١٤٢ فأخبر سبحانه أنه في تلك الحال مليم . والمليم هو الذي فعل ما يلام عليه ، فكان حاله بعد قوله ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ الأنبياء: ٨٧ .

أرفع من حاله قبل أن يكون ما كان . والاعتبار بكمال النهاية ، لا بما جرى في البداية . والأعمال بخواتيمها . والله خلق الإنسان لا يعلم شيئا ، ثم علمه فنقله من حال النقص إلى الكمال . فلا يجوز أن يعتبر قدر الإنسان بما وقع منه قبل حال الكمال . بل الاعتبار بحال الكمال ، ويونس وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم في حال النهاية في أكمل الاحوال.

وقد كان هذا حال الأنبياء دائما يبادرون إلى التوبة والاستغفار عند الهفوة والقرآن شاهد عدل .

فها هو ذا لم يذكر شيئا من ذلك عن نبي من الأنبياء إلا مقرونا بالتوبة والاستغفار. كقول آدم وزوجه : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الأعراف: ٢٣ وقول نوح ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ

﴿ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾
هـود: ٤٧ وقـول موسـى ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ
الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ القصص: ١٦ ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ
الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الأعراف: ١٤٣ ﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ
ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾.... إلى غير ذلك" [٦٧]

هنـا حقيقـة إنسـانية لهـا خصائصـا وأحكامهـا، اعـترف بهـا القـرآن وأحاطها بسياج من الرعاية والاهتمام، لا لشيء إلا لتكون بداية ومنطلقا لحقيقة أخرى هي حقيقة النبي، تلك الحقيقة التي أدركها محمد - ﷺ - إدراكا واضحا جليا لا لبس ولا غموض فيه، وأخذ على عاتقه توضيح تلك الحقيقة للمسلمين " وكان يمقت هذا الإكبار غير العادي لشخصه، ويدعو إلى تجنبه، خشية أن يؤدي إلى ثغرة في دين الله ينفذ منها إلى هذا الدين الحنيف ما نفذ منها من قبل إلى دين عيسى عليه السلام مما خرج برسالته من أن تكون رسالة الله الخالدة، لذلك بصر عليه السلام أمته بأمر هذه الثغرة وحذر وشدد في التحذير من أن يجر تعظيمه إلى الوقوع في الشرك.

دخل عليه يوما رجل يرجف خوفا، وهم بالوقوع على قدميه ﷺ، فقال له: رويدك يا هذا! إنما أنا بشر أنا ابن امرأة أعرابية كانت تأكل القديد" [٦٨].

نعم، إن اختيار واجتباء واصطفاء الله - عز وجل - لأحد من البشر ليكون نبيا ورسولا هذا في حد ذاته يؤهله ليرتفع درجات ودرجات فوق مستوى البشر العاديين، وإلا ما مبرر اختيار الله له دونا عن بقية البشر؟

وقد يكون للنبي بعض التميز والخصوصية والتوقير والإجلال والاحترام وليس هذا راجعا إلى شخصه، ولكن إلى جلال وعظمة وقدسية المهمة التي يؤديها

٦٧- اجتهاد الرسول - الشيخ عبد الجليل شلبي - صفحة (٣٠- ٣٥)
٦٨- اجتهاد الرسول - الشيخ عبد الجليل عيسى - صفحة (٩- ١٠)

إنه مبلغ عن الله . متلق عن الله . أما شخصه فهو بشر في الحقيقة . ولا ينبغي أن تضفي عليه تلك المهمة المقدسة أي شيء من القداسة . وهنا الإشكال الذي حدث للناس ، أنهم خلطوا بين المهمة التي يؤديها النبي وبين ذاته . وظنوا أنه طالما المهمة مقدسة فلابد للقائم بها أن يكون مقدسا . أو على الأقل يناله شيء من التقديس أو نعامله نحن بشيء من التقديس . ولكن هذا – كما قلنا – يخرج بالأمور عن حقيقتها " وهذا الازدواج في النظرة إلى رسول الله لا يغير من تقديره واحترامه في نفوس المؤمنين بدينه فلم يزل هو الإنسان المصطفى وليس بالإنسان العادي كرمه ربه باختياره لأداء رسالته فكرمه المؤمنون به لما له من منزلة خاصة عند الله . لكن من جهة أخرى من حق الله عليه وعلى المؤمنين أن يعرفوا حدود هذه المنزلة . فلا يشركوه مع الله في درجة واحدة عن طريق إغفال المعنى الإنساني فيه .

فالرسول – ﷺ – إذا أضيف إلى الخلق كان في السماكين وكان الجميع يدب على سطح هذه الغبراء . وإذا أضيف إلى ربه صاحب الفضل عليه كان بشرا ككل البشر خاضعا لقوة القاهر الغالب الذي اختص بالكمال وحده " [69].

○ القرآن والحقيقة الإنسانية :

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ آل عمران: ٧٩-٨٠. هنا القرآن يؤكد تلك الحقيقة . معلنا أن أول من يقرون بتلك الحقيقة هم الأنبياء أنفسهم . ولا شيء يدفعهم أن ينكروها بل الواقع والعقل والدلائل تجعلهم لا ينكرونها . فمن أنعم الله عليه بالكتاب والحكم والنبوة ، يكن – قبل ذلك – قد وصل إلى درجة سامية وراقية من العقل والوعي والإدراك والأمانة والإخلاص تمنعه أن ينكر تلك الحقيقة ويدعي ماهو كذب وزور

٦٩- نفس المصدر – صفحة (١٦)

وافتراء على الله ، ولكن المنطق والعقل يقول أن هؤلاء النوعية من البشر الذين استحقوا تلك المنزلة من الفضل والعطاء بما طبعوا عليه من الخير والاستقامة والهدى والرشاد أن يكونوا أول الداعين إلى عبادة الله وتوحيده وعدم الشرك به "والتعبير بقوله – تعالى – (مَا كَانَ لِبَشَرٍ) تعبير قرآني بليغ ، إذ يفيد نفي الشأن وعدم اتفاق هذا المعنى مع الحقيقة المفروضة في الرسل الكرام – عليهم الصلاة والسلام – وشبيه بهذا التعبير قوله – تعالى – (مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ) و﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا ...﴾ [سورة النساء:٩٢] "[٧٠]

ومع ذلك فمن الصعب أن تقنع الناس أو يقتنعوا أن النبي البشر أو البشر النبي يجوز عليه الخطأ والمعصية والذنب ... وإلا فما الفرق بينه وبينهم ، فإذا كان النبي يخطأ كما يخطئون ويذنب كما يذنبون وتصدر منه المعصية كما يحدث لهم فما الفرق هنا وما الميزة التي تميزه عنهم ؟

هنا يجب أن نوضح الحقيقة الإنسانية ، وهو أن النبي يخضع لكل ما يخضع له البشر لا فرق ولا ميزة ولا منزلة باستثناء حينما يتلبس بحالة النبوة ، ففي تلك الحالة – أو في هذا المقام – لا خطأ ولا سهو ولا ذنب ولا معصية ، فهو معصوم من قبل الله – عز وجل – فإذا زايلته حالة النبوة وخرج من هذا المقام ، فهو بشر وهذه الحقيقة الإنسانية تشمل الأنبياء جميعهم بدون استثناء " ... أن الأنبياء صلوات الله عليهم قبل نبينا محمد ﷺ ، كل منهم أما أحس في نفسه بتقصير نتيجة خطأ في الرأي أو نسيان منه أو أن ما أخبر به لم يتحقق . وذلك يدل بالتالي على أن الأنبياء بشر فحسب أن تجاوز بهم الأمر دائرة الوحي جاز عليهم ما يجوز على الإنسان العادي ، وجاز عليهم الخطأ في الاجتهاد كما يجوز عليهم النسيان ويتولد عندهم الإحساس بالذنب والشعور بالملامة كما يتولد عند الإنسان العادي ، وتتوق نفوسهم إلى التخلص من آثاره بالتضرع وطلب المغفرة من المولى جل شأنه وتزداد

٧٠- التفسير الوسيط للقرآن الكريم – د . محمد سيد طنطاوي – المجلد الثاني – صفحة (١٥٩)

شوقا إلى ذلك أكثر من الإنسان العادي لما يتمتع به الواحد منهم من منزلة القربى من الله سبحانه وتعالى كرسول اصطفاه لأداء رسالته .

ولو أن كل ما أتى به من قول أو فعل كان عن الله ولله لوجب أن يتحقق مضمون قوله ويتنزه عن الخطأ فعله حين القول والفعل أو بعد القول والفعل . وإلا كان في رسالة الله ما لا يصح أن يكون لله الذي هو الحق منذ الأزل إلى الأبد "[٧١]

○ الحياة العقلية عند محمد ﷺ.

ولن يتسنى لنا فهم الحقيقة الإنسانية في أجلى صورها ، إلا إذا فهمنا الحياة العقلية عنده .

فلم يكن محمد يفكر كما نفكر .

ولم يكن يستخدم عقله كما نستخدم عقولنا .

فنحن نفكر متعالين عما نفكر فيه ، بمعنى أن الموضوع الذي يستوجب التفكير شيء والتفكير نفسه شيء آخر ، فالمفكر قد يغلق على نفسه أبواب ونوافذ حجرته ويبقى مدة قد تطول وقد تقصر ، وفي النهاية يخرج من محبسه هذا متهلل الأسارير منشرح القلب ويعلن على من حوله أنه وصل إلى فكرة خاصة بالموضوع الفلاني ، وهنا قد يحدث الخطأ من جراء التعالي أو الابتعاد عن الموضوع ، لأنه قد يجرفك تيار الفكر – وكثيرا ما يجرف أصحابه – لتفكر وتمعن التفكير في موضوع لا علاقة له بما تريد التفكير فيه ؛ لأن بالتعالي هذا قد أوجدت عالمين منفصلين عن بعضهما تماما ، وهما عالم الفكر والواقع ، أو لنقل هما منفصلان وأتيت أنت لتؤكد هذا الانفصال .

ونحن نستخدم عقولنا ، ونحن منفصلون تماما عن الحقيقة الإنسانية نستخدم عقولنا بصورة تجريدية ، وكأننا كائنات عاقلة ليس لها نصيب من العاطفة أو الإحساس ، ونحاول أن نصبغ العقل بصفات الحيادية والتجرد

٧١- اجتهاد الرسول – الشيخ عبد الجليل عيسى – صفحة (٥٠- ٥١)

والموضوعية . ونعتقد أن خير العقول هو الذي يصل إلى الحقيقة بأسرع وقت ومن أقرب طريق . رافضا بل متبرئا من كل ما لا يمت بالعقل بصلة . نحن نحاول أن نجعل عقولنا كالقاضي . لا شأن ولا صلة له ولا اعتبار إلا بما يتوافر له من وقائع وأدلة وبراهين واثباتات . ولو شك هذا القاضي لحظة أنه يميل أو أن مشاعره وأحاسيسه تدخلت فإنه يتنحى عن الحكم . ويظن البعض أن ذلك هو أفضل وأيسر وأسهل الطرق لتصل إلى الحقيقة .نعم . ونظن أنه – أيضا – من أسهل وأيسر الطرق لتقودك إلى الخطأ والضلال ؛ لأن تلك الأدلة والبراهين والشواهد والوقائع كما قد ترشد العقل إلى الحقيقة . قد تؤدي به إلى الضلال والانحراف والزلل والرسول قد نبه إلى ذلك . ولعله فعل ذلك ليؤكد على تلك الحقيقة الهامة والخطيرة في نفس الوقت . قال ﷺ : " إنما أنا بشر . وأنكم تختصمون إلى . ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع . فمن قضيت له من حق أخيه بشيء فلا يأخذ منه شيئا فإنما أقطع له قطعة من نار "

حينما لا ينفصل الفكر عن الواقع . وحينما لا يتبرأ العقل من الحقيقة الإنسانية يستحيل الفكر إلى حياة . ويصبح العقل قوة تمد الحياة بعوامل وأسباب القوة والاستمرار والدوام .

لذلك قد نعد محمدا عليه السلام رجل فكر من الطراز الأول وصاحب عقل يعمل عقله في القضايا والمعضلات والمآزق والأزمات فتحل ولا تكاد تصمد أمام رجاحة وسداد عقله .

وقد نعد محمدا عليه السلام رجلا عمليا نباضًا في غير توان أو تردد أو تقاعس مساكا بأزمة الأمور وناصية المعضلات يقودها حيث يشاء ويصرفها كما يريد مفاجئا الجميع بما لا يتوقعونه ولا يحتسبونه .

وإن شئت الحق فلا هو برجل الفكر ولا برجل العمل . إنه رجل حياة والحياة أشمل وأعم من ذينك الأمرين .

لأن الفكر قد يقود صاحبه إلى الضلال، وقد يعزل الإنسان عمن وعما حوله وقد يسلمه إلى الجمود والتأخر بينما الحياة سرعة ونشاط وتغير وتبدل وتحول.

والعمل قد يكون من أسباب الفوضى والارتباك والضياع إذا اعتمد على الارتجال والتسرع، والحياة نظام ومراحل متعاقبة وسلسلة مترابطة ومتصلة الحلقات وكل مرحلة لابد أن تستوفي وقتها وتأتي في حينها.

إذن كون محمد رجل حياة يجعله يأخذ ويصطفي أفضل وأجمل وأصلح ما في الفكر وفي نفس الوقت يجعله يتجنب أسوأ ما في الفكر.

وكون محمد رجل حياة – كذلك – يجعله يأخذ ويصطفي أفضل وأجمل وأصلح ما في العمل ويدفعه أن يتخلص مما يقود إلى الفوضى والهلاك.

تلك هي الحياة العقلية التي كان يحياها محمد ﷺ، والتي مكنته أو سخن من خلالها أن يدرك الحقيقة الإنسانية، ولعل البعض يقول كيف تسنى لمحمد إدراك الحقيقة الإنسانية كاملة، وهناك مواقف قد عارض القرآن فيها محمدا وخالفة في ذلك؟.

والرد على ذلك أن هناك ما يسمى بالحقيقة القرآنية وما يسمى بالحقيقة الإنسانية، وإن عجز محمد ﷺ – بنفسه – في بعض الإحيان وفي بعض الظروف عن إدراك الحقيقة القرآنية فلا لوم عليه؛ لأنه ليس مطالبا في كل الأحوال والأمور أن يدرك الحقيقة القرآنية، لأنها لو كانت في استطاعته أو هو مطالب بها لأنتفت الحكمة من نزول الوحي.

وحينما تتعارض الحقيقتان فكان محمد ﷺ يأخذ بالحقيقة القرآنية ويترك الحقيقة الإنسانية؛ لأن الحقيقة القرآنية هي الأولى والأجدر، لأن كل ما هو إنساني – حتى لو عد من الحقائق – فهو نسبي، والنسبي يشتمل على جزء من الحقيقة، وليس كل الحقيقة، ومن لديه جزء من الحقيقة – وليس كل – قد يضل ويغوى.

ومن أجل هذا لم يغضب الله – عز وجل – ولم يعاقب على أخذ الرسول والمسلمين في بعض الأحيان بالحقيقة الإنسانية ، ولكنه أرشدهم ونبههم – في رفق ولين ورحمة ، معلنا الصفح والغفران – إلى الحقيقة القرآنية ، وذلك لأن الحقائق القرآنية فوق العقل بعيدا عن متناوله ، وأن يصل الرسول والمسلمون إلى حقيقة إنسانية هذا في حد ذاته شيء طيب ولا غبار عليه ولا يستدعي اللوم والعتاب، طالما لم تظهر بعد الحقيقة القرآنية . أما وقد ظهرت الحقيقة القرآنية وأعلنت ، فلم تعد الحقيقة الإنسانية بالشيء الطيب ، فالحقيقة القرآنية هي الأولى بالتقديم – كما قلنا – بل يجب ان تقدم ويغلق الباب من خلفها كي لا يكون هناك إلا الحقيقة القرآنية .

الغريب والعجيب أن القرآن لم يضرب صفحا عن الحقائق الإنسانية التي صدرت عن الرسول والمسلمين ، لم يكتف بذكر الحقيقة القرآنية وإنما ذكر الحقيقة الإنسانية ؛ ليؤكد على إنسانية الرسول وبشريته ، وقد كان القرآن في غنى عن ذكر الحقيقة الإنسانية طالما هي معارضة ومخالفة للحقيقة القرآنية ، بل مدانة في بعض الأحايين ، فيكفي أن يذكر الصواب أمام المخطيء ليعرف خطأه ، ولا داعي لذكر الخطأ ، ولا سيما وأن هذا يتم في قرآن يتلى ويتعبد به آناء الليل وأطراف النهار ، ولكن ما فعله الرسول ليس خطأ ، وإنما – كما قلنا – حقيقة إنسانية تتفق مع طبيعة وفطرة وجبلة الإنسان ، لا يجد الإنسان أي غضاضة أن تذكر على الملأ وأن يؤكدها القرآن .

وهنا قد يثور سؤال خاص بمشاعر النبي ، ألم يكن يشعر بحرج وهو يتلو أو يسمع القرآن يتلى بتلك الآيات الكريمة التي عاتبته أو لامته أو خالف القرآن فيها أفعال وتصرفات النبي ؟ .

والإجابة ، أن الرسول لم يشعر بأي حرج من هذا الأمر ، وهذا راجع إلى أمرين :

الأول : أن الرسول كان على وفاق واتفاق مع الحقيقة الإنسانية ، وأنه ليس مطالبا - بداية - بشيء أكثر من ذلك ، وإذا طولب فالأمر في حاجة إلى تنبيه وإرشاد وتوجيه ، وحالما يلبي الرسول ما طولب منه بدون توان أو تأخير معلنا التوبة والاستغفار راجيا العفو والغفران أن قصر - في رأيه - أن يدرك الحقيقة القرآنية .

الثاني : أن الذي لام وعاتب أو نبه هو الله - عز وجل - ، فقد يشب إحساس بالغضاضة والحرج إذا الذي عاتب ولام إنسان مثلي ، لأن هذا التعديل يدل على نقص وإعوجاج وإنحراف ، في حاجة إلى إتمام واستقامة واعتدال ، أما حينما يكون التعديل صادرًا من الله - عز وجل - فليس هذا راجع إلى نقص وإعوجاج وانحراف في تصرفات النبي ، وإنما الأمر هنا أمر إرتقاءات [illegible]ـر هنا نقلة من الكمال الإنساني الذي لا تشوبه شائبة ، إلى المقصد الإلهي على هذا فتصرفات النبي - التي عوتب من أجلها - لم يكن بها نقص أو إعوجاج أو انحراف ، بدليل أن الله - عز وجل - ترك الرسول يفعلها ولو كانت كذلك لأوحى الله - عز وجل - إلى نبيه بعدم فعلها ، وهل من المعقول أن يتر[illegible]له نبيه يهم بالخطأ ويفعله ثم بعد ذلك يخبره أن ما فعله خطأ وأنه كان يجب أن يفعل كذا وكذا... أما كان الأولى والأجدر أن يجنب القرآن الرسول هذا الحرج والعنت؟!

ولكن الأمر ليس فيه أدنى حرج ولا عنت ولا غضاضة ؛ لأن مراجعات القرآن للرسول ما هي إلا نقلة نوعية بين مقصدين ، مقصد بشري ومقصد إلهي أو بين حقيقتين ، حقيقة إنسانية وحقيقة قرآنية .

٥ الحقائق الإنسانية التي تصادمت مع الحقائق القرآنية :

١- قبول الفداء من أسرى بدر، ونزل قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ

obeikandi.com

وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ الأنفال: ٦٧ - ٦٨

٢- استغفاره لعبد الله بن أبي ، نزل قوله تعالى ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ التوبة: ٨٠

٣- حينما حرم على نفسه ما أحله الله ، نزل قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ التحريم: ١ - ٢.

٤- انصرافه عن الصاحبي (عبد الله بن أم مكتوم) نزل قوله تعالى ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ عبس: ١ - ١٠ .

٤- حينما أذن للبعض في التخلف عن غزوة (تبوك) ، نزل قوله تعالى ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ التوبة: ٤٣

٥- حينما خشى أن يعلن زواجه من (زينب بنت جحش) نزل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ﴾ الأحزاب: ٣٧ - ٣٨

٦- تمني الرسول أن يَجري على يديه بعض الآيات التي طلبها المشركون كشرط لإيمانهم، نزل قوله تعالى ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ الأنعام:٧-٨ ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الأنعام: ٣٧ ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ الأنعام: ٣٣ - ٣٥

٧- حينما عرض عليه كفار مكة أن يأتي بقرآن غير هذا ليس فيه سب لآلهتهم هم ﷺ أن يدع آلهتهم ظاهرا، فأنزل الله تعالى قوله ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ ﴾ هود: ١٢.

٨- حينما طلب كفار مكة أن يمس آلهتهم حتى يسلموا ويتبعوه فحدث نفسه بذلك، فأنزل الله تعالى ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾ الإسراء: ٧٣ - ٧٤ .

٩- قال رسول الله ﷺ بعد (أحد) حينما رأى تمثيل الكفار بعمه (حمزة) وبالمسلمين : ((اللهم ألعن أبا سفيان ، اللهم العن الحارث بن هشام ، اللهم العن سهيل بن عمرو ، اللهم العن صفوان بن امية)) . فتضرع إلى الله سبحانة وتعالى بأن يجزيهم على فعلتهم هذه شر أنواع الجزاء وهو أن يلعنهم

ويسجل عليهم سخطه. نزل قوله تعالى ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ (١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ آل عمران: ١٢٨- ١٢٩.

٥ الحقيقة الإنسانية التي وافقتها الحقيقة القرآنية.

فقد تمنى الرسول ﷺ أن يستقبل الكعبة في صلاته، لقد كان يصلي وهو بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه. فلما هاجر إلى المدينة ولم يمكن الجمع بينهما صلى إلى بيت المقدس. ويعلل رغبة الرسول في التوجه إلى الكعبة في الصلاة بانها قبلة أبيه إبراهيم وقد جاء داعيا إلى إحياء ملته وتجديد دعوته. والتوجه إليها أدعى إلى إيمان العرب سريعا. وهم نواة الدين وأساس الدعوة. فانزل الله تعالى[٧٢] ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ البقرة: ١٤٤

٧٢- اجتهاد الرسول – الشيخ عبد الجليل عيسى – صفحة (٦٧)

obeikandl.com

الفصل السادس

شخصية محمد والعقيدة الإسلامية

" فليست النفس الإنسانية ملكا لأبناء دين واحد ، وليس الكشف عن أسرارها وأغوارها فريضة شرع واحد أو عرف واحد ، وما من شيء يجعل للدين نفسه معنى إن لم تكن النفس الإنسانية ذات معنى وذات قيمة وذات علاقة أصيلة بهذا الوجود أجمع ، فلا يضل معتقد عن هدى عقيدته حين يؤمن بجانب من جوانب عظمتها أو جانب من جوانب النبل والإريحية ...."

○ عباس محمود العقاد

obeikandl.com

obeikandl.com

تنجح الدعوات نجاحا منقطع النظير إذا كان هناك تطابق أو تناظر أو تماثل بين العقيدة وشخصية صاحبها . هنا نجد الشخصية صورة صادقة من صور العقيدة . كل ما هو موجود في العقيدة من قيم ومبادئ ومعايير خلقية ونفسية وعقلية . تجده ماثلا وتجد صداه في الشخصية . فقد تشبعت الشخصية وامتلأت بتلك العقيدة . أو أن العقيدة تجسدت وتخلقت في شخص هذا الإنسان فأنت واجد كل ما في العقيدة في تلك الشخصية . أو واجد كل ما في الشخصية في تلك العقيدة . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى . أن هناك اتفاقات وتوافقت دقيقة بين الشخصية ومتطلبات هذا الزمان والعصر . هنا – أيضا – نجد تطابقا وتلازما بين الشخصية والزمان . وكأن الشخصية لم تخلق إلا لهذا الزمان . أو كأن الظروف والأقدار لم تهيئ إلا لتناسب تلك الشخصية . أو لعظمة وسمو ورقي ت الشخصية فإن كل زمن هو زمنها . لأن كل الأزمان تفخر أن تنتسب إليها . وكان الاثنين – الشخصية والزمان – كانا على موعد أو قدر . كل منهما كان ينتظر حتى تتهيأ وتتجمع وتتفق الأحوال والظروف ميلتقيا ويتولد من هذا اللقاء تغيير وتبديل في العالم والإنسان .وجميع الدعوات تجمع لها هذان العنصران . ويتوقف نسبة ومدى نجاحها على مدى التوافق والتماثل بين الشخصية والعقيدة من ناحية والشخصية والزمان من ناحية أخرى .

ونستطيع أن نقول إن جميع الدعوات التي عرفتها الإنسانية وسجلتها نجحت بصورة أو بأخرى أو بنسب متفاوتة . ولكن جميع الدعوات لم يكن هناك تطابق بين الدعوة وشخصية صاحبها . كما أنه لم يكن هناك اتفاق وتوافق بين تلك الشخصية وزمنها كما كان الأمر مع العقيدة الإسلامية وشخصية محمد . لذلك نستطيع القول إنه لم يقدر لأي دعوة أن تنجح كما نجحت الدعوة الإسلامية. إن أي دعوة لم توفق فيما توقعته وطلبته كما نجحت الدعوة الإسلامية .

أما من ناحية التطابق بين العقيدة وشخصية محمد ، فإن محمدا خلقا وخلقا ترجمة صادقة وحقيقية ووافية لتلك العقيدة ، تلازم بين الاثنين وكأنهما شيء واحد ، فأنت إذا آمنت بمحمد فقد آمنت بالله ، وإذا أنت أطعت الرسول فقد أطعت الله ، وإذا أطعت الله فقد أطعت الرسول ؛ لأن ما يقول به محمد قد تلقاه عن الله ، وإيمانك بالله متضمن إيمانك بالرسول ، هنا الفروق الدقيقة امحت بين العقيدة والشخصية ، فإذا كانت العقيدة تعلو من شأن العقل والفكر فمحمد أول من يعلو من هذين الأمرين ، وإذا كانت العقيدة واضحة ومباشرة وبسيطة،فإن شخصية محمد واضحة وبسيطة ومباشرة ، يحكم بذلك كل من اتصل به وتعامل معه ، وإذا كان في العقيدة تصور واضح وشامل وكامل لنظرية في الكون والوجود وخالق الكون والوجود ، فإن أفعال وتصرفات وأقوال محمد تبرز وتؤكد وتؤصل هذا التصور وهذه النظرية . " وعندما جرى قدر الله أن يجعل طبيعة هذه العقيدة هكذا جرى كذلك باختيار – رسولها – ﷺ – إنسانا تتمثل فيه هذه العقيدة بكل خصائصها ، وتتجسم فيه بكل حقيقتها ، ويكون هو بذاته وحياته الترجمة الصحيحة الكاملة لطبيعتها واتجاهها ، إنسانا قد اكتملت طاقاته الإنسانية كلها . ضليع التكوين الجسدى ، قوى البنية ، سليم البناء ، صحيح الحواس ، يقظ الحس يتذوق المحسوسات تذوقا كاملا سليما وهو في ذات الوقت ضخم العاطفة حي الطبع ، سليم الحساسية ، يتذوق الجمال ، منفتح للتلقي والاستجابة ، وهو في الوقت ذاته كبير العقل ، واسع الفكر فسيح الأفق ، قوي الإرادة ، يملك نفسه ولا تملكه ... ثم هو بعد ذلك كله .... النبي ... الذى تشرق روحه بالنور الكلى ، والذى تطيق روحه الإسراء والمعراج ، والذي ينادي من السماء، والذي يرى نور ربه ، والذي تتصل حقيقته بحقيقة كل شيء في الوجود من وراء الأشكال والظواهر ، فيسلم عليه الحصى والحجر ، ويحن له الجذع ، ويرتجف به أحد – الجبل..! ثم تتوازن في

شخصيته هذه الطاقات كلها . فإذا هو التوازن المقابل لتوازن العقيدة التى احبر لها " [73].

هذا التوازن بين شخصية محمد والعقيدة الإسلامية لم يحدث هكذا بدون معالجة . ومجاهدة ومشقة ومعاناة من محمد . وإنما بدل كل ما فى وسعه واستنمر واستخدم كل طاقاته لتكون شخصيته متوافقة ومتشربة للعقيدة ، لأن جانب كبير من شخصية محمد من صنعه هو . من إرادته وتصميمه وعناده وعزته وكبريائه محمد لم يجد نفسه هكذا – بدون إرادة منه – متفقا ومتوافقا مع العقيدة . الأمر فى حاجة إلى نظر وتفكر ، وتدبر . الأمر فى حاجة إلى مجاهدة ومكابدة ومعاناة ولا ننكر أن بعد كل ما بذله محمد كان هناك العون الأكبر من الله – عز وجل -- ولولا عون الله ما قدر هذا النجاح لمحمد ولا للدعوة .

والمراجعات التى حدثت من الله لنبيه نوع من إرشاد الله لنبيه أن يكون متطابقا مع العقيدة ، مسايرا لمبادئها ، متمشيا مع جوهرها ، ناطقا بلسانها مجسدا قيمها ومبادئها ، ومن تلك المراجعات :

○ زواج رسول الله من " زينب بنت جحش " .

حينما قال رسول الله – ﷺ – لزيد بن حارثة : ((امسك عليك زوجك)) لم يكن محمد رسول الله هو الذى يتكلم،ولكنه كان محمد الرحل العربي المحمل بعادات وتقاليد المجتمع العربي الإصيلة .

لم يكن محمد رسول الله هو الذي يتحدث ولكنه الوالد الذى قام بتزويج ابنة عمته ((زينب)) بوليه ((زيد)) ولكن من ((زيد)) ؟ وما علاقة الرسول به ؟ " ((زيد بن حارثة بن شراحبيل بن كعب)) من بني زيد اللات ، خرجت به أمه ((سعدى بنت ثعلبه)) لتزيره أهلها بني معن بن طيئ ، فأصابته خيل من بنى القين بن جسر ، فباعوه بسوق من أسواق العرب ، وكان ((حكيم بن حزام بن

٧٣- فى ظلال القرآن – سيد قطب – المجلد السادس – صفحة – (٣٦٠٩)

خويلد)) هو الذي اشتراه . وجاءت ((السيدة خديجة)) وهي يومئذ زوج محمد بن عبد الله . تزور ابن أخيها . فعزم عليها أن تختار من شاءت من مواليه . فأخذت ((زيدا)) وعادت به إلى بيتها . ورآه سيدنا ((محمد)) فاستوهبه منها فوهبته له راضية . وكان ((حارثة)) أبو زيد قد جزع عليه أشد الجزع . وخرج يلتمسه حتى سمع بمكانه في مكة . فانطلق مع أخيه ((كعب)) حتى وقفا على محمد بن عبد الله فقالا له : ((يا ابن عبد المطلب . يا بن سيد قومه . أنتم جيران الله تفكون العاني وتطعمون الجائع . وقد جئتك في ابننا فتحسن إلينا في فدائه ؟))

سألهما محمد : أوغير ذلك ؟

قالا : ما هو ؟

أجاب : أدعوه وأخيره . فإن اختاركما فذاك . وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي اختار على من اختارني أحدا .

قالا معا : قد زدت على النصفة .

ودعي زيد . فعرف أباه وعمه . وخيره محمد : إن شاء ذهب معهما وإن شاء أقام معه .

فاختار سيده !

وتوسل أبوه في ضراعة : ((يا زيد . أتختار العبودية على أبيك وأمك وبلدك وقومك ؟))

فتماسك ((زيد)) ليجيب : ((إني قد رأيت من هذا الرجل شيئا . وما أنا بالذي أفارقه أبدا))

فعند ذلك أخذ محمد بيده . وقام به إلى الملأ من قريش فأشهدهم أن زيدا ابنه وارثا وموروثا .

ودعي الغلام : زيد بن محمد . وكان أول من أسلم بعد ((على بن أبى طالب)) . وعندما هاجر الرسول إلى المدينة وآخى بين أصحابه كان زيد وحمزة عم المصطفى أخوين " [٧٤]

ما فعله رسول الله – ﷺ – كان عادة شائعة بين العرب ، وتقليدا راسخا رسوخ الجبال فى الوجدان العربي حينئذ ، تواترت عليه أجيال وأجيال . " وقد كان العرب فى الجاهلية يلحقون بعض الأجانب بأولادهم ويعطون الدعي جميع حقوق الولد في الإرث وحرمة النسب وغيرهما ، وكانوا أيضا يخلعون أولادهم من نسبهم ؛ فيأتي الرجل منهم بابنه إلى الموسم ويقول " ألا إنى قد خلعت ابني . فإن جر لم أضمن ، وإن جر عليه لم أطلب . فلا يؤخذ بجرائره " [٧٥]

إذن أعتبر محمد أن زيدا ابنه .

واتخذ زيد محمدا أبا له .

وأقر المجتمع واعترف بتلك العلاقة وشهد على ذلك .

ولكن فى الحقيقة أن زيدا ليس ابنا لمحمد .

وليس محمد أبا لزيد .

وإن إقرار المجتمع على ذلك نوع من مصادمة تلك الحقيقة . وشهادته نوع من التزوير.

وما كان الله ليذر المجتمع الإسلامي فى مصادمة للحقيقة . فكان لابد من تصحيح هذا الوضع ، ووضع الأمور فى نصابها الصحيح . لأن هذا الأمر يمس قضية الأنساب فى الصميم ، وبقاء المجتمع – أي مجتمع – سليما معافيا مرتبطا بتلك القضية . " فلما كانت السنة الخامسة من الهجرة أراد الله تعالى أن يبطل عادة

٧٤- نساء النبي - د . عائشة عبد الرحمن - صفحة (١٦٠)

٧٥- القضايا الكبرى فى الإسلام - عصر النبي ﷺ - د . عبد المتعال الصعيدي - صفحة (٢٧)

التبني ؛ لأنها عادة ظالمة باطلة؛إذ لا يصح للرجل أن يكون له حق إرث أقربائه، ثم يأتي بأجنبي عنهم فيجعل له حق إرثه ، فيحرمهم منه أو يشاركهم فيه .

هذا إلى أن الولد قطعة من أبيه ، فلا يصح أن يكون أجنبي عنه ولدا بقول ينطق به لسانه ، فما كان قول اللسان ليغير واقعا ، أو ليثبت باطلا " [٧٦].

لذلك ستنال تلك القضية اهتماما كبيرا من القرآن الكريم ، والذي سيحمل العبء الأكبر ، والمشقة العظمى هو رسول الله كما سنعرف بعد .

من ((زينب بنت جحش)) ؟

" هي زينب بنت جحش بن رئاب ، الشابة الشريفة الحسناء ، سليلة بني أسد بن خزيمة المضري ، وحفيدة عبد المطلب ، وابنة عمة محمد ﷺ .

وصفتها الرواية بأنها ((كانت بيضاء سمينة من أتم نساء قريش)) وكانت معتزة بهذا الجمال، كما كانت معتزة بنسبها الرفيع في آل سيد البشر " [٧٧].

شخصية من طراز رفيع حسبا ونسبا وجمالا ، وشعور جارف بالاعتزاز بهذا الأصل ، وزادها اعتزازا صلتها وقرابتها من النبي . كل هذا عمق وأصل لديها الإحساس بالعزة والكبرياء والشموخ والأنفة ، وقد اصطلى زيد بنيران تلك المشاعر والأحاسيس لدى زينب ، وقد وضح هذا حينما سأله النبي حينما استأذنه في طلاقها ، فسأله عنها فقال : ((لا والله يا رسول الله ، ما رابني منها شيء ، ولا رأيت إلا خيرا ، ولكنها تتعاظم على لشرفها وإن فيها كبرا ، تؤذيني بلسانها)) . والأهم من كل ذلك أنها كانت ترى استحقاقها بأن تكون زوجا لرسول الله.يزكيها ويرشحها لذلك صفاتها ، وقرابتها للنبي ، فقد تزوج النبي ممن هن دونها شرفا وحسبا ونسبا وجمالا وقرابة ، فلم لا تطمع وتأمل أنه في يوم من الأيام سيدق النبي بابها خاطبا ؟ وتصبح زوجا للنبي .

٧٦- المرجع السابق – صفحة (٢٨)

٧٧- نساء النبي – د . عائشة عبد الرحمن – صفحة (١٥٩)

حينما نقارن بين حقيقة ووضع ((زيد)) ، وحقيقة ووضع ((زينب)) نجد أن الهوة واسعة جدا ، وأن يجمع بينهما برباط الزوجية ، هذا فى حد ذاته شيء صعب وعسير ، ناهيك على أنه عجيب وغريب ، ولكن الشيء الوحيد الذي يسوغ هذا الزواج ويجعله سهلا ويسيرا ، وليس بالعجيب ولا الغريب أن زيدا هو ((ابن محمد)) فكونه ابن محمد يزيل كل الفوارق والاعتراضات ، ولكنه فى الحقيقة ليس كذلك . وهنا المعضلة أو هنا الإشكال .

فقد رضيت وارتضت كل الأطراف ، أن يكون زيد ابنا لمحمد ، و مع ذلك حينما وضعنا هذا الاعتبار فى محك التجربة سقط سقوطا مريعا ، فقد رفضت ((زينب)) ورفض أهلها ((زيدا)) ولم يشفع له أنه ابن لمحمد ، لأنه فى الحقيقة والواقع ليس كذلك ، ولم تستجب ((زينب)) ولم يخضع أهلها لأمر هذا الزواج إلا لأنه أمر قضى به الله والنبي ونزل به قرآن ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ الأحزاب: ٣٦

إذن ما حدث بين ((زيد)) و ((زينب)) ليس زواجا فى حقيقته ، وإنما هو أكبر وأجل وأعظم وأخطر من رغبة وإرادة تتوافر عند رجل وامرأة ويبارك تلك الرغبة والإرادة أهل كل من الرجل والمرأة ، إن ما تم كان استجابة لأمر الله – عز وجل – ورسوله – ﷺ – وليس ثمة أمر مع أمر الله ورسوله ، ولكن وإن قبلت ((زينب)) بأمر زواجها من ((زيد)) إلا أنها لم تتخذه زوجا ، بمعنى أن الحب لم يجد طريقا إلى قلب زينب ،وظلت كارهة ونافرة من زيد ، نعم هى استجابت فيما تملكه .. وافقت وارتضت وقبلت ما أمر الله به والرسول ، ولكن أمر الحب للزوج هى لا تملكه ، ولا تملك التصرف فيه ، " فلما سمعت زينب وأخوها بذلك رضيا بـ ((زيد)) ، وجعلت زينب أمرها بيد النبي – ﷺ – فأنكحها ((زيدا)) واختارها زوجا ، ولم تكن فى قرارة نفسها راغبة فيه ، ولم يكن قد طلبها زوجا

ولكنها إرادة الله تعالى . والحقيقة أنها كانت تراد زوجا للنبي - ﷺ - فلذا اختيرت دون غيرها ممن يضاهي ((زيدا)) في نسبه ؛ لكيلا يكون على النبي حرج إذا صارت إليه . ولتكون لائقة به إذا طلقها ((زيد)) وصارت زوجا له . وقد اختير لـ ((زيد)) في المرة الأولى ((أم أيمن)) وهي مولاة مثله ؛ لأنه يراد أن يكون زوجا له . واختير له هذه المرة ((زينب)) وهي تعلوه في النسب ؛ لأنها كانت تقصد لغيره بعد طلاقها منه . ولم تكن تقصد له " [٧٨] .

إذن هذا الزواج منذ اللحظة الأولى كان معلوم المصير ومعروف النهاية وكما يقولون بداية الأمور تنبئ عن خواتيمها . وأنت تستطيع أن تعالج وتداوي وتقوم كثير من الأمور المعوجة بعض الشيء إلا الزواج . فهذا الأمر يستعصى على العلاج والمداواة والتقويم . لأن الأمر ليس بيد أحد إلا الله تعالى . " ودخل بها ((زيد)) بعد ذلك . ولكنها لم تستطع أن تحمل نفسها على حبه ؛ لأن الحب من صنع الله تعالى وليس من صنع البشر . والزواج إذا لم يكن معه حب لا تحصل به ألفة بين الزوجين ؛ ولهذا لم يلبث ((زيد)) و ((زينب)) أن ساءت عشرتهما لأنها كانت تتعالى عليه بنسبها ولم يكن يطيق ذلك منها " [٧٩] .

كانت تتعالى عليه بنسبها .

وهو لم يكن يطيق منها ذلك .

إذا لم تستطع العلاقة الزوجية أن تمحو أو تخفف من حدة ما كانت تشعر به ((زينب)) من جفوة ونفور نحو ((زيد)) بسبب الفارق أو المركز الاجتماعي أو حسبها وأصلها .

ولم يستطع ولم يطق ((زيد)) منها هذا التيه والفخر والتكبر والتعالي عليه.

٧٨- القضايا الكبرى في الإسلام - د . عبد المتعال الصعيدي - صفحة (٢٩)
٧٩- المصدر السابق - صفحة (٢٩)

وهذا – فى حد ذاته – ينفى تفسير البعض أن إقدام الرسول على تزويج زيد بزينب إنما كان مقصد الرسول تذويب الفوارق بين الموالى والأحرار، ومحو المسافات بين طبقات المجتمع الإسلامي، ليبقى معيار التفاضل بين الناس هو تقوى الله. نعم هذا مقصد من المقاصد الإسلامية – وهو من أنبل وأشرف المقاصد – ومسعى من أجمل مساعى الرسول، ولكن هذا لا يتم ولا يكون بأن نوفق ما لا سبيل إلى توفيقه، أو أن نجمع ما لا حيلة لنا فى تجميعه ،فهذا نوع من التعسف والتعنت، وتبسيط مخل للقضية، بأن نزوج بنات الطبقة الشريفة أو العليا أو التى تظن أنها قد حازت من المكرمات والفضائل ما يجعلها ذات وضع واعتبار فى المجتمع، من أبناء الطبقة الأقل فى ذلك أو الأفقر، وبذلك تمحى الفوارق الطبقية فى يوم!!.

كل هذا لم يغب عن ذهن رسول الله، فهو يدركه تمام الإدراك، ويفهمه كامل الفهم، وأن أمر هذا الزواج وراءه شيء يمس بنيان المجتمع الإسلامي فى الصميم، ويتعلق بالعقيدة الإسلامية فى العمق. لقد تم الزواج، وباقي أن تظهر الحكمة من ورائه. تلك الحكمة التى ستتبدى شيئا فشيئا، وتظهر بجلاء ووضوح مع تصاعد الأزمة بين الزوجين ووصولهما إلى مأزق لابد من الخروج منه بأي صورة من الصور.

• وكان الرسول – ﷺ – يعلم ما يحدث بين زيد وزينب من منازعات وخلافات، بدأت فى البداية بسيطة هينة، شأن أي خلافات ومنازعات بين زوجين، ثم بدأت تأخذ طريقها إلى التعقيد والتعسر، وحينما أيقن (زيد)) باستحالة الاستمرار، ذهب إلى رسول الله يستأذنه أن يطلق ((زينب)).

هنا بعد إنساني ينبغي ألا نغفله ،وهو وصول ((زيد)) إلى قرار الطلاق فهو يعلم درجة القرابة بين زينب والرسول، ويعلم أن هذا الزواج قد تم برغبة الرسول وعن أمر الله، وأن هذا الزواج قد منحه الكثير من الامتيازات

والصلاحيات فقد انتسب انتسابا حقيقيا إلى عائلة النبي ، فهذا مكسب أدبي ومعنوي ، لا أحد ينكره ، ولا زيد نفسه ، وإن الطلاق سيعصف بكل تلك الأمور والأهم أنه قد يغضب الرسول . والراجح أن قرار الطلاق لم يصل إليه ... يوم وليلة وإنما استغرق الأمر وقتا ، وأنه حاول كثيرا أن يتحمل الوضع ولكنه لم يستطع وحاول أكثر أن يجد مخرجا من هذا المأزق ولكنه لم يجد ، ولا نستبعد أن ((زينب)) هي الأخرى قد حاولت أن تصبر وتتحمل هذا الوضع بكل ما فيه من مشقة ومعاناة نفسية وعصبية ولكنها لم تطق ، ولم يعد لديها طاقة وقدرة لتتحمل المزيد . وكذلك لا نستبعد أن يكون قرار الطلاق والوصول إليه قد تم بالاتفاق بين الاثنين ((زيد)) و ((زينب)) فهما الاثنان في مأزق وأزمة والطلاق يمثل - للاثنين - خروجا من هذا المأزق وتلك الأزمة ، فلم نستبعد أن يكون الاثنان قد وصلا إلى قناعة ، وتراضيا بهذا الأمر ؟

حتى ولو لم يصلا إلى اتفاق على هذا الأمر فإن هذا الحل يرضي الطرفين ويخرجهما من مأزقهما .

وما كان لزيد أن يشرك الرسول في هذا الأمر ، أو يستأذنه في الطلاق إلا بعد أن وصل إلى قناعة ويقين باستحالة استمرار العلاقة الزوجية . وهذه القناعة وهذا اليقين لا يصل إليه الزوج إلا إذا علم أن الطرف الآخر له نفس الرغبة في الفراق . إذن بقاء العلاقة الزوجية مع توافر كل تلك الأمور نوع من العنت والحرج وفيه الكثير من المشقة والمعاناة ، بل والعذاب . إذن العلاقة الزوجية انتهت وانفصم عراها بين الاثنين ، باقٍ شيء واحد هو الإعلان عن هذا الأمر للآخرين وكان أول هؤلاء هو رسول الله - ﷺ - وتبين للرسول في هذه المرة عزم وتصميم ((زيد)) على الطلاق ، وأنه لا رجعة عنه . هنا يتدخل الرسول في تلك العلاقة وقد أظهر له زيد نيته ، فيراجعه ، وطلب منه ناصحا الحفاظ على تلك العلاقة ، إما أنه قال ذلك من منطلق بشريته التي كانت تتصدر الموقف في تلك اللحظة ، أو قال

obeikandi.com

ذلك ليعرف إذا كان هناك في نفس زيد بقية من رغبته فى استمرار تلك العلاقة بغض النظر عما يعرفه رسول الله بشأن ما يتعلق بمصير تلك العلاقة . وما سوف يترتب عن فصم عراها ، أو شفقة على ما سوف يجلب على ((زينب)) من ألم وإحساس بالهوان . فمهما كان الطلاق حلا لمأزق إلا أنه يسبب جرحا للمرأة ، وفى الحالتين – الزواج والطلاق – بالنسبة لزينب فقد ظلمت .

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ
وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا
وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ
وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧) مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟
مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٣٨) ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ
أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ
وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا (٤٠) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١)
وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى
ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤)
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا
(٤٦) وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧) وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ
أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا (٤٨) ﴾ الأحزاب ٣٧ - ٤٨

والآيات الكريمة تعرض أكثر من قضية :

أولا : قول رسول الله لزيد (امسك عليك زوجك)

وشيء طبيعي ، وشيء منطقي ، والبادرة الأولى التي تصدر عن النبي – مع وضع الاعتبارات السابق ذكرها فى الحسبان – أن يقول : امسك عليك زوجك واتق الله .

وإن لم يقل ذلك ، فعدم قولها لا يتسق مع شخصية محمد ، وقولها يتفق تمام الاتفاق مع شخصيته العظيمة ، لقد قالها وهو يعلم أن زواج زيد من زينب ليس زواجا عاديا ، إنه يخفي وراءه أمورا كثيرة ، وهو يجمع بين طرفين مختلفين ومتناقضين ، وكل منهما غير كفؤ للآخر ، ((زيد)) من الموالي ، و((زينب)) من أشرف قريش نسبا .

إذا كان الزواج يستدعي القبول والإيجاب ، فإن عنصر الإيجاب لم يكن متوافرا ، فزينب وأخوها قد رفضا – في البداية – هذا الزواج ، ثم انصاعا حينما نزل في هذا الأمر قرآن .

ثانيا : ما أخفاه الرسول في نفسه وأبداه الله تعالى .

ليس كل ما يعرف يقال ، حتى لو أراد الإنسان قول ما يعرفه فقد يتردد كثيرا ، فهو يتحسب لأمور كثيرة ، وقد يرى أن هناك حرجا فيما يقوله ، أو أن مركزه ووضعه بالنسبة للآخرين يمنعه ، أو أن وضع الآخرين بالنسبة له يضع على قوله بعض المحاذير ، أو أن ما سيقوله قد يثير جدلا ولغطا حوله ، أو أن ما يقوله يتعلق بأمور شديدة الحساسية ، لذلك فهو يؤثر الصمت ، أو ينتظر ويحاول تجميد الموقف ككل ، أو تحميد موقفه هو من القضية، إلى أن تتبدى وتظهر أمور، أو تتدخل عناصر أخرى ، ترفع الحرج والعنت ، وتعفيه من هذا الأمر .

في البداية ذهب رسول الله – ﷺ – إلى ابنة عمته ((زينب)) خاطبا إياها لابنه ((زيد)) ، ظنت ((زينب)) إن الرسول يخطبها لنفسه ، وإذا بها تكتشف أنه يريدها لزيد ، تغضب ويغضب أخوها ويرفضا ((زيد)) ، وإذا بالوحي ينزل على رسول الله ، فتخضع وتنصاع زينب وأخوها لقضاء الله ورسوله .

ويتم الزواج ، ولولا ما نزل من قرآن لتمسكت زينب بموقفها ، رغم أن الرسول قد زكا زيد وعدد فضائله ومكارمه ، ولكن الذي دفع رسول الله ليطلب زينب لزيد هو أنه ابنه ، ولكن هذا الاعتبار لم يكن له قيمه عند زينب وأخيها ، فكل

ما فعله رسول الله لزيد لم ينس أحدا أنه ليس ابنا لمحمد ،وقضية النسب والمصاهرة تستدعي الأصول وبصفة خاصة في المجتمع العربي . والناس قد يجاملون ويتساهلون ويتسامحون إلا فيما يتعلق بمسألة النسب والزواج . فهنا الأصل له الكلمة العليا والفصل ، وليس أي شيء آخر . أو قل إن الحقيقة هنا تفرض واقعها بكل قوة وإقناع ، فأنت لا تستطيع أن تأتي بشخص وبكلمة منك وبموافقة المجتمع وتمشيا مع التقاليد أن تجعل هذا الشخص ابنا لك . فأنت قد أخذت حق الأب الحقيقي ، وفى نفس الوقت أخذت ما ليس بحقك وفى نفس الوقت عارضت الحقيقة وتصادمت مع الواقع . وتخاصمت مع المنطق !!

وقد أظهر القرآن الحكيم تلك القضية بكل جلاء في بداية سور (الأحزاب):

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ الأحزاب: ٤-٥

كل هذا تجمع للنبي . ونتيجة زواج زيد بزينب دفعت الأمور فى مسارها الطبيعي والواقعي ، أن زيد لابد أن يطلق زينب . أو أن زينب لابد أن تطلق من زيد وإذا طلقت ((زينب)) ابنة عمته فما هو وضعها بين الناس ؟

لقد جرحت مرتين – فى عرفها ومنطقها – مرة حينما تزوجت . ومرة حينما طلقت . وأحس رسول الله أنه مسئول عن هذا الأمر . ومن غير رسول الله أقدر وأكفأ لتضميد جرح زينب . ولن يكون هذا إلا بالتزوج من زينب . ولكنها مطلقة ابنه . لا ليس ابنه . فهو ليس من صلبه . وقد أبطل الله التبني .ولكن تلك العادة متأصلة فى كيان المجتمع العربي . وما سار عليه المجتمع أجيال فمن العسير الاقلاع عنه . الأمر في حاجة إلى وقت طويل . والأهم إلى تجربة حية . إلى واقع

يلمسونه ، من شأنه أن يزحزح أو يبدد هذا الرسوخ للعادة في الوجدان العربي ويرفع العنت النفسي والمشقة إذا أقدم الناس على شيء كانوا يحرمونه على أنفسهم ، وهو ليس بحرام ، بل الحرام هو ما تعودوا عليه أجيال وأجيال ، ومن غير رسول الله – ﷺ – يتولى فعل ذلك ، ؟ فإذا فعل الرسول ذلك – وهو لابد فاعله – رفع عن الناس الحرج والعنت والمشقة ، وأعطاهم المبرر والقوة والجرأة والشجاعة لإبطال تلك العادة المتأصلة الراسخة ، إذن ليتزوج رسول الله ((زينب)) ، نعم ستكون صدمة للمجتمع الإسلامي وقد تحدث رجة بين المسلمين ، دعك من هؤلاء فقد يتقبلون الوضع بالرضوخ والتسليم ، ولكن هناك المنافقين ،أيضا المرجفين في المدينة ، والكافرين ، ومن لم يستقر – بعد – الإسلام في قلبه ، والمتربصين بالرسول وبالإسلام ، كل هؤلاء ماذا سيقولون ، وماذا سيكون موقفهم ؟

الأمر معقد للغاية ، وحساس للغاية ، وخطير للغاية .

إذن لينتظر الرسول لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا " ولكن النبي كان يعلم هذه القضية من أولها إلى آخرها ، ويعلم أن الله لم يأمر ((زينب)) أن تتزوج ((زيدا))على غير رغبتها إلا ليطلقها فيتزوجها هو بعده ، فكيف يكون له هذا الشأن في القضية ثم يتولى فيها الحكم ، وعمله شريعة تتبع وسنة يأخذ بها الناس ؟ فإذا حكم فيها وله فيها هذا الشأن لم يتحرج القضاة بعده أن يحكموا في القضايا التي يكون لهم شأن فيها ، فيتأثروا في الحكم بما لهم فيها من مصالح ، ويحكموا فيها بما تقضى به مصالحهم ، لا بما يقضى به الحق الذي يجب أن يحكموا به ... هذا وللنبي – ﷺ – أعداء – من المنافقين وغيرهم – خشي أن يطعنوا عليه في ذلك الحكم ، وأن يزعموا أنه إنما طلق ((زينب)) من ((زيد)) ليتزوجها ، وأنها حليلة ابنه ، فلا يحل لها أن يتزوجها بعده ، وكذلك خشي على ((زيد)) أن يقوم بنفسه شيء ، وأن يوسوس له الشيطان فيظن به سوءا .

لهذا كله أمسك النبي – ﷺ – في هذه القضية ؛ ليقضي الله تعالى فيها أخيرا كما قضى فيها أولا . وهذا هو ما يسمى الآن ((تنحي القاضي عن النظر في القضية)) " [٨٠]

إذن ما أخفاه الرسول كان دافعه الحرص أو الحذر أو التوجس لما يكون من رد الناس على تصرفه ، من منطلق بشري محض . لم يكن هناك أمرا صريحا من الله . ولم يتنزل الوحي على الرسول . وإلا ما تأخر أو توانى الرسول عن إبلاغ هذا الوحي وإعلان هذا القرآن على الناس . مهما كانت العواقب والنتائج . فهو يبلغ ما أؤمر بتبليغه بغض النظر عن أي شيء آخر . وعتاب الله عز وجل – لرسوله – ﷺ – يرجع إلى هذا ، فطالما يا محمد أن هذا الفعل أنت مقتنع به ، ولا يتصادم مع نص من الشريعة ، بل هناك نص يؤيد ما ستفعله . وطالما ما ستفعله يخرج زيد وزينب من مأزقهما . وفيه تضميد لجرح ابنة عمتك . فلم تنتظر . ولم تجمد الموقف ؟ " وهذا الذي أخفاه النبي – ﷺ – فى نفسه . وهو يعلم أن الله مبديه . هو ما ألهمه الله أن سيفعله . ولم يكن أمرا صريحا من الله . وإلا ما تردد فيه ولا أخره ولا حاول تأجيله . ولجهر به فى حينه مهما كانت العواقب التى يتوقعها من إعلانه . ولكنه – ﷺ – كان أمام إلهام يجده فى نفسه . ويتوجس فى الوقت ذاته من مواجهته ومواجهة الناس . حتى أذن الله بكونه . فطلق زيد زوجه فى النهاية . وهو لا يفكر لا هو ولا زينب فيما سيكون بعد . لأن العرف السائد كان يعد زينب مطلقة ابن محمد لا تحل له . حتى بعد إبطال عادة التبني فى ذاتها . ولم يكن قد نزل بعد إحلال مطلقات الأدعياء . إنما كان حادث زواج النبي بها فيما بعد هو الذي قرر هذه القاعدة . بعدما قوبل هذا القرار بالدهشة والمفاجأة والاستنكار " [٨١]

٨٠- القضايا الكبرى في عصر الإسلام – د عبد المتعال الصعيدى – صفحة (٣٠)
٨١- في ظلال القرآن – سيد قطب – المجلد الخامس – صفحة (٢٨٦٩)

ثالثا : قرار زيد الأخير والنهائي ، وموقف النبي .

حرصت الآيات الكريمة أن تظهر موقف زيد من زوجه بما لا يدع مجالا للشك في أي موقف يتخذه النبي ، وهذا يظهر في (فلما قضى زيد منها وطرا ...) "والوطر : الحاجة . وقضاء الوطر : بلوغ منتهى ما تريده النفس من الشيء . يقال : قضى فلان وطره من هذا الشيء : إذا أخذ أقصى حاجته منه .

والمراد هنا : أن زيدا قضى حاجته من زينب ، ولم يبق عنده أدنى رغبة فيها. بل صارت رغبته العظمى في مفارقتها " [٨٢] .

الإنسان العادي لا يصل إلى قرار الطلاق إلا بعد أن يستنفد كل سبل الإصلاح والوفاق بينه وبين زوجه ، فما بالك لو كان الرجل في مقام ((زيد بن حارثة)) الذي اتخذه رسول الله – ﷺ – ابنا له ؟

وما بالك لو كانت زوجته في مكانة ومقام ومنزلة ((زينب)) ابنة عمة رسول الله ؟

وما بالك لو كان هذا الزواج تم وفق قضاء وأمر الله ورسوله ؟

لا شك أن ((زيدا)) لن يصل إلى قرار الطلاق إلا بعد أن تقطعت به كل السبل والطرق والوسائل لدوام هذا الزواج . ولسان حاله يقول أنه استنفد كل ما في طوقه ، وحاول وأعيته المحاولة ، وعالج وأعجزه العلاج ، واستغرق وقتا وجهدا ووصل إلى يقين وإلى تصميم وإصرار، أنه لابد من الطلاق . وليس من شك ، أن النبي كان مطلعا على كل ما يحدث بين زيد وزينب من خلافات ومنازعات ، وإنه كان يعلم – في النهاية – مصير هذا الزواج ، ومع كل هذا قال له (امسك عليك زوجك) وكأن محمد – ﷺ – لا يريد أن يتدخل في القضية ، أو يتدخل ولكن بالإصلاح وأن يحاول زيد أن يبقى على العلاقة الزوجية . أو أن الرسول أراد أن يبرئ ساحته بأنه لا علاقة له لا من قريب ولا من بعيد بقضية الطلاق . وإن كان يعتبر نفسه –

٨٢- التفسير الوسيط للقرآن الكريم – د محمد سيد طنطاوي – المجلد الحادي عشر – صفحة (٢١٥)

بصورة أو بأخرى – مسئولا على الأقل أدبيا عن هذا الزواج ، أو أنه كان يعلم ما سوف يقال حينما يتزوج بعد ذلك ، بزينب ، وأن مرضى القلوب ومأفوني العقول سيربطون – بنوع من التعسف والتعنت – بين طلاق زيد من زينب ، وزواج الرسول بها ، وكأن سبب طلاق زينب من زيد هو رغبة الرسول في التزوج من زينب ، وليس العكس فلم يتزوج الرسول بزينب إلا بعد طلاق زيد لزينب ، ثم زواج الرسول من زينب ليس لرغبة الرسول الذاتية وإنما كان أمرا من الله كما نصت الآية الكريمة على ذلك ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ الأحزاب : ٣٧

حتى أن ((زينب)) كانت تتيه فخرا ، أن كل نساء النبي ، النبي هو الذي تزوجهم بإرادته ، إلا هي فالذي زوجها له هو الله تعالى ، وبأمر منه . وطالما بأمر الله تعالى فقد انتفت إرادة الرسول ، وإن كانت أوامر الله يستجيب الرسول لها استجابة مطلقة ، لأنه أؤمر بذلك ، ولأن إرادة الله وأوامره هي النافذة ، والفرق بين طاعة النبي لتلك الأوامر وغيره ، إن طاعة النبي لله تكون قلبا وقالبا بمعنى أن كيانه وكل خلية في هذا الكيان مفطورة على طاعة الله ، حتى أن عائشة – رضي الله عنها – قالت حينما علمت بأمر زواج الرسول من زينب ، وإن كان دافعها في ذلك الغضب والغيرة ، قالت : ((وما أرى ربك إلا يسارع في هواك)) [٨٣] ، فهي تقصد أن الله يستجيب لما تريده وتهواه ، وكأن السعادة والفرحة التي يشعر بها الرسول وهو ينفذ أوامر الله ، وهذا الانصياع المطلق ، والاستجابة التامة والكاملة ، كل هذا خيل لعائشة أن الله يسارع في استرضاء الرسول !

٨٣- نساء النبي – د. عائشة عبد الرحمن – صفحة (٩٦)

ولكـن أمـا كـان مـن الأولى تجنيـب الرسـول لهـذا الأمـر، وكـان أحـد مـن الصحابة نهض بهذا العبء ، بأن يتزوج من مطلقة مدعيه ، بموافقة الله والرسول وينزل الله في هذا قرآنا ؟ وما ثارت الشكوك والشبهات من مرضى القلوب في أمر هذا الزواج ؟

أو يكتفي بأن ينزل قرآن يبيح ما كان العرب يحرمونه من قبل ، فقد نزل قرآن في أباحة أشياء كان العرب يحرمونها من قبل ؟

تأتي قوة التحريم ومدى حسمه على قدر قوة وتأصل الشيء المراد تحريمه وليس هناك أقوى من تلك العادة تأصلا في نفوس العرب ، ولن يكون للنص القرآني من القوة والفاعلية والتأثير العميق والفوري ، إلا إذا جسده النبي تجسيدا حيا ومشاهدا وملموسا من المسلمين ، نعم إذا انزل الله نصا قرآنيا محللا زواج مدعي البنوة من مطلقات من كانوا يدعون أنهم أبنائهم ، فلا شك أن هذا النص كان سيطاع ، شأن كل ما أنزله الله على نبيه ، ولكن سيكون هناك – في النفس – حرج وعنت ، أما وقد فعله النبي بنفسه – وليس أحد غيره – وقام به ، فقد رفع الحرج والعنت النفسي عن المسلمين في هذا الأمر ، " وقد شاء الله أن ينتدب لإبطال هذا التقليد من الناحية العملية رسوله – ﷺ – وقد كانت العرب تحرم مطلقة الابن بالتبني حرمة مطلقة الابن من النسب ، وما كانت تطيق أن تحل مطلقات عملا ، إلا أن توجد سابقة تقرر هذه القاعدة الجديدة ، فانتدب الله رسوله ليحمل هذا العبء فيما يحمل من أعباء الرسالة ، وسنرى من موقف النبي – ﷺ – من هذه التجربة أنه ما كان سواه قادرا على احتمال هذا العبء الجسيم ، ومواجهة المجتمع بمثل هذه الخارقة لمألوفه العميق ! " [٨٤]

" وكانت هذه إحدى ضرائب الرسالة الباهظة ، حملها رسول الله – ﷺ – فيما حمل ، وواجه بها المجتمع الكاره لها كل الكراهية ، حتى ليتردد في مواجهته

٨٤- في ظلال القرآن – سيد قطب – المجلد الخامس – صفحة (٢٨٦٤)

بها وهو الذي لم يتردد في مواجهته بعقيدة التوحيد ، وذم الآلهة والشركاء وتخطئة الآباء والأجداد " [٨٥].

هنا نجد التطابق الكامل بين العقيدة وصاحبها ، محمد يجسد العقيدة أو العقيدة مجسدة من خلال محمد ، وأول من يطبق القرآن بشكل عملي محمد ومحمد أول تطبيق للقرآن بشكل عملي . هنا يبرز مفهوم ((القدوة)) ، كأوضح ما يكون ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ الأحزاب: ٢١

وللتطابق الإنساني بين الرسول والعقيدة فإنه في مرات عديدة أنفذ الله – تعالى – إرادة نبيه حتى لو كانت مخالفة للمراد والمقصد الإلهي ، **وذلك يرجع لأمور منها :**

- ترك الفرصة للنبي والمسلمين ، أن يقارنوا بين مقصدين أو مرادين ، المقصد والمراد البشري ، الذي قصده وأراده النبي والمسلمون ، والمقصد والمراد الإلهي .
وطبيعي أن يكون المقصد البشري به الكثير من النقص والانحراف ووقتي ومحدود ، وخاضع للظروف والأحوال الملحة ، والتي ربما يكون لها ضرر وأذى على المدى البعيد ، وتخالف وتعارض أساس من أسس العقيدة ، وإن كانت لها نفع وفائدة على المدى القريب ، وتحل أزمة وقتيه وتتيح الخروج من مأزق طارئ .
- الثقة المطلقة فيما يأمر به الله ، حتى لو غابت وأضمرت المقاصد والغايات عن المسلمين ، فأنت لا تستطيع أن تستشف من الأحداث ، أو تكشف لك الأحداث والمواقف ، ما يمكن أن تصل من خلاله إلى التصرف الصحيح لما يتفق ويتسق لروح العقيدة ، في تلك الحالة ما على المسلمين – والنبي – سوى

٨٥- المصدر السابق – صفحة (٢٨٦٩)

إطاعة أمر الله فالطاعة فى حد ذاتها هى المقصد الأول والأخير ، علم الهدف أو الحكمة أو جهل وبالتالي عدم مناقشة أو مراجعة الأمر .

- أن يعتمد المسلمون على أنفسهم فى تسيير أمورهم وتصريف شئونهم مستهدين عقولهم ومسترشدين بفكرهم ، ومجتهدين ما وسعهم الاجتهاد ، أن يصلوا إلى ما ينفعهم في دينهم وأخراهم أولا ، ثم يفكرون فيما ينفعهم فى دنياهم في المرتبة الثانية . وإن كان ما ينفع في الآخرة متضمنا - ولا شك - النفع أعظم النفع في الدنيا ، فما له نفع في الآخرة الأجدر أن يكون ذا نفع فى الدنيا ، وليس العكس .
- التأكيد على بشرية الرسول ، وأن كل أفعاله وأقواله ليست وحيا من عند الله وأنه في بعض تلك الأقوال والأفعال قد لا يصادف الصواب ولا يصيب الحق ؛ لذلك يجب أن يكون الرسول رقيبا على نفسه ، والمسلمون رقباء عليه .

ه موقف أسرى (بدر)

فالرأى الذي انتهى إليه الرسول ومعه أغلب المسلمين هو قبول الفداء ، هذا المبدأ أو الرأى يتفق ويتسق مع شخصية الرسول ؛ لأن الرسول يضع كل شيء في سياقه ومحراه الزمني والنفسي والاجتماعي ، فلم يكن الرسول بغافل عما يعانيه المهاجرون في أول عهدهم بالمدينة ، فهم ((عالة)) على الأنصار ،نعم لقد ظهر إيثار الأنصار ، وصور كرمهم وسخائهم الذي صار مضرب المثل ، وأثنى عليهم الله - عز وجل - في كتابه الكريم ، ولكن كل هذا لم يغير من حقيقة ووضع المهاجرين،وأن هناك غصة في نفوسهم ، فقد تركوا كل شيء وراءهم فى مكة فرارا بدينهم واستجابة لأمر رسولهم ، لذلك كان الرسول يترصد لعير قريش ، يريد أن يزيل من نفوسهم بعض ما يشعرون به ، ويضمد جرحهم ، ويجبر انكسارهم ، وهو ما خرج إلا ليعترض عير قريش بدليل قوله - ﷺ : ((هذه عير قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها)) .

وتطور الأمر ، وانتهى بالرسول والمسلمين إلى القتال كما هو معروف والكلمات التي تضرع بها الرسول إلى الله قبل بداية المعركة تكشف بجلاء ووضوح عن الشاغل الذي كان يشغل الرسول . يقول الرسول متضرعا : ((اللهم إنهم جياع فأشبعهم ، اللهم إنهم حفاة فأحملهم ، اللهم إنهم عراة فأكسهم ، ففتح الله له يوم بدر . فانقلبوا حين انقلبوا وما بينهم رجل إلا وقد رجع بحمل أو حملين واكتسوا وشبعوا)) .

إذن حالة المهاجرين لم تغب لحظة عن بال الرسول : " إن الجوع والعري عندما يطول أمدهما يتركان في النفوس ندوبا سيئة ويدفعان الأفكار في مجرى ضيق كالح "[٨٦].

ومع أن أمور كثيرة دفعت الرسول والمسلمين إلى قبول الفداء ، فإن الر ل لم يخلص إلى هذا الرأي إلا بعد مشاورة ومراجعة من الصحابة " إذ يروى ابن أبي شيبة والترمدي وصححه ، وابن مردوية والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود قال : لما كان يوم بدر جيء بالأسارى فقال أبو بكر : يا رسول الله ! قومك وأهلك استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم . فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ! كذبوك وأخرجوك وقاتلوك . قدمهم فاضرب أعناقهم . وقال عبد الله بن رواحة : انظر واديا كثير الحطب فأضرمه عليهم نارا . فقال العباس – وهو يسمع ما يقول – قطعت رحمك . فدخل النبي ﷺ ولم يرد عليهم شيئا . فقال أناس : يأخذ بقول أبي بكر وقال أناس : يأخذ برأي عمر . فخرج رسول الله ﷺ فقال : ((إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله يشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة ، مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم عليه السلام ، قال : ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ إبراهيم:٣٦ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى عليه السلام قال: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ المائدة ١١٨

٨٦- فقه السنة – الشيخ محمد الغزالي – صفحة (٢٠٧)

ومثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام إذ قال: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾يونس. ٨٨. ومثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام إذ قال: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ ﴾نوح: ٢٦.

ثم قال ﷺ: انتم عالة فلا ينفتلن أحد من الأسرى إلا بفداء أو ضرب عنق » ٨٧.

إذن ما يتحكم في الأمر هنا هي طباع رجال ونفسيات بشر، والأمر متأرجح بين الشدة واللين، هل يكون الرسول مع حزب الذين يميلون إلى اللين، أم مع الذين يميلون إلى التشدد ؟

وكان من اليسير معرفة أي الأمرين سيختار الرسول، وبرأي من سيأخذ. "عندما تشاور الرسول مع أصحابه في شأن الأسرى فقد سكنت نفوسهم إلى افتدائهم بالمال، وقد كانت الملاحظة في ذلك هي الجمع بين الرحمة والرفق بالأسرى، عسى أن يرعوا ويؤمنوا بالله، والتعويض عما فات المهاجرين من أموالهم التي تركوها في مكة عسى أن يقع موقعا لديهم ويساعدهم على إصلاح شؤون دنياهم، وهذا الرأي الذي سكنت إليه نفس رسول الله ﷺ يدل على مدى شفقته على أصحابه، وهذه الشفقة هي التي جعلت يده ﷺ ترتفع بالدعاء للمهاجرين لما رآهم لدى خروجهم إلى بدر وإن علائم الحاجة والفقر بادية عليهم ((اللهم إنهم حفاة فأحملهم، اللهم إنهم عراة فأكسهم وإنهم جياع فأشبعهم))"[٨٨]

ومع أن هذا السياق النفسي، وما تتطلبه الأحوال والظروف، ومع ما يتفق مع مكونات شخصية الرسول من الرحمة واللين وما يشير به الفكر والمنطق كل هذا أسير اللحظة ومتقيد بالأحوال والظروف .... إلا أن كل هذا يخالف مقصود الله –

٨٧- اجتهاد الرسول – الشيخ عبد الجليل شلبي – صفحة (١٠٨ – ١٠٩)
٨٨- فقه السيرة – د. محمد رمضان البوطي – صفحة (١٧٧)

عز وجل – ومراده ، أن يربي المسلمين عليه . فقد ضحى المسلمون بكل شيء، وتركوه وراء ظهورهم ، وفروا وفازوا بالدين وحده حينما هاجروا من مكة إلى المدينة ورخص كل غال في سبيل الدين ، وصغر أمر الدنيا ومتاعها أمام أمر الآخرة ، وما أعده الله لهم من رضوان ونعيم ، فما بالهم الآن بعد أن نصرهم على أعدائهم ينظرون وينتظرون الحطام ، بل تصاعد الأمر بهم أن تنازعوا في أمر الغنائم ، " ومن هذا القبيل تسابقهم إلى حيازة الغنائم ومحاولة كل فريق الاستئثار بها . عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع النبي فشهدت معه بدرا فالتقى الناس ، فهزم الله العدو فانطلقت طائفة في آثارهم يطاردون ويقتلون ، وأكب طائفة على المغنم يحوزونه ويجمعونه ، وأحدقت طائفة برسول الله يصيب العدو منه غرة ، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض ، قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها ، و[illegible] لأحد فيها نصيب ، وقال الذين خرجوا في طلب العدو : لستم أحق بها منا .. نحن نحينا منها العدو وهزمناه ، وقال الذين أحدقوا برسول الله : خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به ، فأنزل الله ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ الأنفال: ١ فقسمها رسول الله بين المسلمين " [89] .

إذن الأمر هنا ليس أمر اتساق مع نفسيات الرجال بعضهم يجنح نحو الشدة والآخر نحو اللين ، وليس الأمر اتساق مع ظروف وأحوال المسلمين ، ولكن الأمر يجب أن يتسق نهايته مع بدايته . لقد باع المسلمون كل شيء في سبيل الله حتى أنفسهم باعوها لله ، وبايعوا الرسول ، أنصارهم ومهاجروهم ، واستشهد منهم من استشهد ، صادقين وعدهم مع الله ، لذلك فمجرد التفكير في أمر الغنائم – في هذا السياق – أمر لا يجوز ، بل إن بعض المفسرين فسر الآية ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ

٨٩- فقه السيرة – الشيخ محمد الغزالي – صفحة (٢٦)

حَكِيمٌ ﴾ الأنفال: ٦٧ ، أي ما كان يجوز للمسلمين أن يبقوا على أحد في ميدان المعركة انتظارا للمن أو الفداء ، وإنما كان يجب قتلهم فلا يبقى من الكفار أسير "وقال ابن جرير في معنى الآية : ((الأسر)) في كلام العرب معناه الحبس فالمعنى: ما كان لنبي أن يحتبس كافرا قدر عليه وصار في يده من عبدة الأوثان للفداء أو المن ، فالله سبحانه وتعالى يعرف نبيه أن قتل المشركين الذين أسروهم يوم بدر وفاداهم كان أولى بالصواب من أخذ الفدية منهم وإطلاقهم ، ومعنى ((يثخن في الأرض)) أي يعظم شأنه ويغلظ بأن تتم له القوة والغلب فلا يكون اتخاذه الأسرى سببا لضعفه أو قوة أعدائه . قال الواحدي : الإثخان في كل شيء عبارة عن قوته وشدته . يقال : قد أثخنه المرض إذا اشتد عليه ، وكذلك أثخنه الجراح والثخانة الغلظة فكل شيء غليظ فهو ثخين "[٩٠] .

إذن كان يجب أن يحسم الأمر أثناء المعركة ، وكل من وقع بأيدي المسلمين من المشركين يقتل ، بحيث لا تظهر مشكلة بعد المعركة . ماذا يفعل بالأسرى ؟ فقتل أسير بعد انتهاء المعركة على أي حالة من الحالات سيثير من اللغط الكثير وقد يؤجج مشاعر، ويثير أحقادا لا مبرر لها ، بل قد ينقسم الأمر بين المسلمين بشأن هؤلاء الأسرى كما حدث .

أما وقد بدأت المشكلة ، فلابد أن نصل إلى خاتمتها ، وكانت فرصة أن يعلم الله – عز وجل – المسلمين بطريقة عملية ، وبتجربة توافرت لها كل العناصر الفعالة ليخرج الجميع بعد ذلك بالعظة والعبرة والدرس ، وإلا فإن الله كان قادرا أن يوحي إلى نبيه أو يلهمه التصرف الواجب والإجراء الحق في شأن أسرى بدر.

وتلك أول معركة للمسلمين ، وقدر الله النصر على عدوهم ، ولكن كان يجب أن يكون هناك نصر في ميدان آخر ، وعلى عدو آخر . أما الميدان فهو النفس، والعدو هو حب الدنيا والتكالب على المادة ، لأن هذا من أهم المعارك التي يجب على

٩٠- اجتهاد الرسول – الشيخ عبد الجليل شلبي – هامش صفحة (١١٠)

المسلمين أن ينتصروا فيها وهو جهاد وكفاح أمر وأشق من كفاح السلاح ، " ولكن الحكمة الإلهية لم ترد للمسلمين أن يجعلوا من النظرة إلى المال ميزانا أو جزء ميزان للحكم في قضاياهم الكبرى التي قامت على أساس النظرة الدينية وحدها ، وهم أمام أول تجربة من هذا النوع ، أن يجرى ذلك مجرى القاعدة المطردة فتستولى النظرة المادية على مثل هذه الأحكام التى ينبغى أن تظل متسامية في علياء لا يطولها شيء من أغراض الدنيا على اختلافها ، ومن الصعب لمن سار وراء الدنيا واستطاب مذاقها أن يرتد ويفطم نفسه عن مذاقها "[٩١].

ولكن أما كان الأجدر أن يجنب رسول الله هذا الموقف العصيب والشديد على نفسه ؟

لقد بكى بعدما نزلت الآيات توضح له ما كان يجب عليه أن يفعله . ر يقص علينا ما حدث " قال عمر : فغدوت إلى النبي عليه الصلاة والسلام وأبي بكر وهما يبكيان ! فقلت يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما ! فقال رسول الله ﷺ : للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء ، قد عرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة - لشجرة قريبة ، وأنزل الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ الأنفال ٦٧ - ٦٨

ربما من ضمن العبر والعظات والدروس التي خرج المسلمون وأراد الله - عز وجل - توجيه الانتباه والأنظار إليها أن بينهم رسول بشر ، وإنه كسائرهم يفكر ويوازن ويقارن بين الأمور ، ويقرر بناء على ذلك ، وقد لا يصيب قراره المقصد الإلهي بناء على أنه بشر ، وأنه عالج التفكير ، وإن قراره كان نتيجة التفكير والمشاورة لأصحابه ، " دلتنا هذه الواقعة على أن النبي ﷺ كان له أن يجتهد ، والذين ذهبوا

٩١- فقه السيرة - د محمد رمضان البوطي - صفحة (١٧٧- ١٧٨)

إلى هذا – وهم جمهور علماء الأصول – استدلوا على ذلك بمسألة أسرى بدر. وإذا صح للرسول أن يجتهد صح بناء على ذلك أن يخطئ في الاجتهاد ويصيب غير أن الخطأ لا يستمر، بل لابد أن تنزل آية من القرآن تصحح له اجتهاده. فإذا لم تنزل آية فهو دليل على أن اجتهاده ﷺ قد وقع على ما هو الحق في علم الله تعالى "[92].

ولكن أليس هذا الخطأ وعدم التوفيق في الحكم، وعدم السداد في الرأي، لا ينال من شخصية رسول الله لا سيما وأن هذا لم يعتم عليه ولم يدارى، وإنما يسجله القرآن، ويظهر أمره على رؤوس الأشهاد ؟

ألا يجعل هذا الأمر المسلمين يشكون أو يرتابون في كل قول أو فعل صادر من الرسول، وبناء على ذلك هم ينتظرون تعقيب من الله على أقوال وأفعال الرسول فإما أن ينزل قرآن يصوب ويسدد رسول الله، وإما لا ينزل قرآن دلالة على توفيق الرسول في القول والفعل ؟

الأمر لا يسير على هذا المنطق، فإن المسلمين مكلفون بإتباع الرسول أصاب الرسول أم لم يصب، فهذا الإتباع هم مثابون عليه. والاجتهاد الذي سار عليه الرسول هو أيضا مثاب عليه. أما الوصول إلى مقصود الله – عز وجل – فلا أحد يعلم بأمر هذا المقصد، وليس الجهل أو عدم معرفة المقصد الإلهي ذنبا يعاقب عليه الرسول، حتى لو فعل خلاف هذا القصد. إذن هناك امران، الأول اجتهاد الرسول، والمسلمون مكلفون بإتباعه في كل الأحوال، [illegible] ثواب الاجتهاد وثواب الاتباع. الأمر الثاني، عدم قدرة النبي معرفة ما في علم الله – عز وجل – فإن لم يصل إلى مراد الله، فليس عليه وزر، ولا يسمى هذا خطأ، [illegible] الأمر متعلق بمحدودية علم الرسول وسعة علم الله " قد يستعظم البعض نسبة الخطأ على رسول الله ﷺ متوهمين أن الخطأ هو الإثم أو الانحراف، أو نحو ذلك [illegible] يتنافى مع العصمة الثابتة للأنبياء، غير أن المقصود بالخطأ هنا عدم مطابقة اجتهاده ﷺ لما هو

٩٢- فقه السيرة – د. محمد رمضان البوطي – صفحة (١٧٦)

الكمال الثابت في علم الله عز وجل ، وهو لا يتنافى مع عصمته ﷺ ، بل هو مثاب من الله تعالى عليه ، والناس مكلفون بإتباعه في ذلك ما لم تتنزل عليه آية تصرفه إلى حكم آخر يتعلق بعلم الله تعالى . فأما اجتهاده بالنسبة للطرف الأول ، فلا يوصف بالخطأ البتة ، لأن الناس مكلفون بإتباعه على كل حال كإتباعهم لسائر المجتهدين من بعده ، إذ لا سبيل لهم بالاطلاع على الخفي الثابت في علم الله عز وجل . وأما اجتهاده بالنسبة للطرف الثانى أي المعلق بعلم الله عز وجل فخاضع لوصفي الصحة والخطأ ، إد هو قابل لموافقة ما هو الكمال الثابت في علمه عز وجل ولقد كان عليه الصلاة والسلام يرقى في الكمالات متجاوزا المراحل التي كانت تبدو له نقصا وتقصيرا بالنسبة لما ارتقى إليه بعد وكان يستغفر الله من تلبسه بها كاستغفارنا من الذنوب ويقول : إنه ليغان على صدرى فاستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة "[93].

○ قضية الأعمى وميزان الرجال.

نفس المنطق الذي كان يحكم قضية فداء أسرى بدر ، هو الذي يحكم قضية الأعمى هنا ، والجامع بين الاثنين هو شخصية الرسول ، والمنطق هو الاحتكام إلى ميزان لتقدير أمور وقضايا معينة . وهو ميزان حق وعدل ؛ لأنه ميزان مستمد من جوهر الدين وليس مستمد من عرض الدنيا ، ميزان لا تؤثر فيه الحاجات الوقتية الملحة ، ولا يراعى الحالات النفسية العارضة للناس ، ولا أهوائهم وأغراضهم . لأن تلك الحاجات الملحة والأهواء والأغراض تستنفد وتقضى بأتفه الوسائل ، وتحسب على الإنسان ، لأنه استبدل بها أهدافا أخرى ، فقد ترك الأرقى والأسمى ، وأخذ الأدنى والحقير ، فالمسلمون في أسرى بدر نظروا إلى ما ينفعهم في دنياهم من ناحية وراعوا – إلى حد ما – القرابة والعلاقة التي كانت تربطهم بالكفار ، وما كان لهم أن ينظروا إلى ما ينفعهم أو يصلح حالهم في الدنيا ، وإنما ينظرون إلى ما ينفع دينهم

٩٣- المصدر السابق – صفحة (١٧٦)

ويصلح حالهم في الآخرة ، كذلك كان يجب أن تبت وتقطع علاقتهم بالكفار ، لأن بقاء هؤلاء على الكفر وإصرارهم عليه ، ودخول هؤلاء في الإيمان وتمسكهم به قطع كل العلائق والوشائج والأواصر بين الفئتين . فالعلاقة المعترف والمقر بها هي علاقة الدين . والكفار ليسوا بني العم والعشيرة والإخوان . كيف ، وقد حملوا السلاح وأرادوا تبديد شمل المسلمين . وقد قالها أبو جهل قبل المعركة ((واللات والعزى لا نرجع حتى نفرقهم في الجبال ... خذوهم أخذا)) .

المشهد : النبي جالس مع جماعة من زعماء قريش ، يدعوهم ويحاول أن يقنعهم بالدخول في الإسلام ، ويأمل أن يوفق في ذلك .ولم يغب عن الرسول أن في إسلام هؤلاء النفر من الزعماء مكسبا كبيرا للإسلام وللمسلمين . فمن ناحية سيعز الإسلام بهم . ومن ناحية أخرى سيفتت جبهة من جبهات المعارضة للإسلام أي أن الرسول – في تلك اللحظة – في اجتماع علي مستوى كبير من الأهمية . ومع عدد من الزعماء والأكابر . يدخل ((عبد الله أبن أم مكتوم)) – وكان كفيف البصر – يتلمس طريقه إلى حيث يجلس الرسول . وعلى ما يبدو هو لم ير انهماك الرسول وحلوسه مع هؤلاء . وقال مقاطعا : أقرئني وعلمني مما علمك الله يا رسول الله .

لو كان هناك سكرتارية ، أو طاقم من المساعدين ، أو من ينظمون أعمال الرسول ، لطلب من ((عبد الله ابن أم مكتوم)) الانتظار ريثما يفرغ الرسول مما بيده ، ثم يأتي دور الرجل . لاسيما وأن هؤ... كانوا جلوسا مع الرسول قبل مقدم الرجل . ولكن الأمر أكبر من هذا . وليست تلك القضية التي لفت نظر الرسول إليها .

فربما حدثت في نفس الرسول مقارنة بين زعماء قريش وهذا الرجل فرجحت كفة الزعماء . وربما لم يرد الرسول أن يتحرك في نفس هؤلاء الزعماء أن يربطوا بين مكانتهم ومنزلتهم وبين هذا الأعمى . وإنهم وهو سيصبحون سواء في الدين . فهم يأنفون أن يتساووا مع المستويات الدنيا من الناس . فأراد الرسول أن يعالج تلك النعرة من التكبر والعجب ، ريثما يدخلوا في الإسلام ، وهو يعلم أن

الأيام وعظمة قيم ومبادئ الإسلام كفيلة أن تداوي وتمحو هذه النعرة والتكبر والعجب .

وربما إذا انصرف الرسول إلي الأعمى قد ينصرف عنه الزعماء ، فوقتهم وعظيم أشغالهم وانشغالهم لا تسمح أن يعطوا للرسول وقتا إضافيا حتى ينتهي وربما يتوقع الرسول أنه إذا انصرف إلى ((عبد الله ابن أم مكتوم)) سينصرف الزعماء ، وهذا ليس توقعا ، وإنما شيء مؤكد " قال صاحب المنار في ذلك : اجتهد ﷺ في الإعراض عن الأعمى عندما جاءه وهو مشغول بدعوة أكابر قريش إلى الإسلام ، وقد لاحت له بارقة رجاء في إيمانهم بتحدثهم معه ، فعلم ﷺ أن إقباله على الأعمى قد ينفرهم ويقطع عليه طريق دعوته ، وقد كان يرجو بإيمانهم انتشار الإسلام في جميع العرب ، ولم يكن يعلم حينئذ أن سنة الله في البشر أن أوسـ ... م دون الأكابر المجرمين المترفين الذين يرون في إتباع غيرهم ضعة بذهاب رياستهم"[٩٤]

وانزل الله على النبي ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾عبس:١-١٠" وأخرج الترمذي والحاكم ابن حبان عن عائشة قالت : نزلت في ابن أم مكتوم الأعمى ،قال: يا رسول الله أرشدني ! – وعند النبي ﷺ وجوه المشركين منهم أبو جهل وعتبة بن ربيعة وغيرهما – فجعل النبي يعرض عن ابن مكتوم ويقبل على غيره"[٩٥]

إذن كل ما فعله الرسول شيء منطقي ، وتحتمه طبائع الأمور وتوجبه سياسة ونظر واعتبار الداعية لأي عقيدة في بداية أمرها .

نعم ، شيء منطقي وتحتمه طبائع الأمور وتوجبه سياسة ونظر واعتبار الداعية ، ولكن كل هذا يختلف – أو يجب أن يختلف – مع أسلوب وطريقة النبي

٩٤- اجتهاد الرسول – الشيخ عبد الجليل شلبي – صفحة (١١١)
٩٥- المصدر السابق – صفحة (١١١)

التي يجب أن يسير عليها ويتبعها ، والتي أرادها الله – عز وجل – والتي تليق وتتفق مع عظمة وجلال شخصية النبي .

فلم يكن للإسلام أن يعز بدخول هؤلاء ، ولكن هم الذين يعزون .

ولم يكن للإسلام أن يشرف بإسلام هؤلاء ، ولكن هم الذين يشرفون.

ولم يكن للإسلام أن يكسب بدخول هؤلاء ولكن هم الذين يكسبون .

فما سبب حرصك على هؤلاء أيها الرسول الكريم ؟!

وما سبب تعجلك ومحاولتك أن تقنعهم ؟!

يجب أن تفرق أيها الرسول – في المعاملة – بين من تسعى إليه سعيا ، ومن جاء يسعى إليك سعيا .

يجب أن تفرق بين من استغنى عنك وعن الدخول في الإسلام ، وبين من أراد أن يغتني بك وبالإسلام .

ويجب أن يختلف أسلوبك وطريقتك فلا تتصدى لمن استغنى ، ولا تنصرف أو يشغلك شيء عمن جاءك يريد الهدى .

ربما يكون هذا الرجل المنفرد الضعيف الهين الشأن في نظرك ونظر الآخرين أكرم عند الله وأثقل في ميزان الحق والعدل من كل هؤلاء الأشراف والزعماء ، وذلك هو الميزان الذي يجب أن تحتكم إليه في تقدير الرجال ." مع كل ذلك وجدنا الآيات الكريمة تعاتب النبي – ﷺ – عتابا تارة فيه رقة ، وتارة فيه شدة ، وذلك لأن الميزان الذي أنزله الله – تعالى – للناس مع الرسل ، لكي يبنوا عليه حياتهم هو : ((إن أكرمكم عند الله أتقاكم)) .

ولقد استجاب الرسول الكريم لهذا التوجيه ، فبني حياته كلها بعد ذلك على هذا الميزان العادل ، ومن مظاهر ذلك : إكرامه لابن أم مكتوم وقوله له كلما رآه : ((أهلا بمن عاتبني فيه ربي)) وفعل – ﷺ – ما يشبه ذلك مع جميع المؤمنين

obeikandl.com

الصادقين الذين كانوا من فقراء المسلمين ، ولم يكونوا أصحاب جاه أو نفوذ أو عشيرة قوية .

لقد جعل زيد بن حارثة - وهو الغريب عن مكة والمدينة - أميرا على الجيش الإسلامي في غزوة مؤتة ، وكان في هذا الجيش عدد كبير من كبار الصحابة .

وقال - ﷺ - في شأن سلمان الفارسي : ((سلمان منا أهل البيت)) .

وقال - ﷺ - في شأن عمار بن ياسر ، عندما استأذن عليه في الدخول : ((ائذنوا له مرحبا بالطيب المطيب)).

وكان من مظاهر تكريمه لعبد الله بن مسعود ، أن جعله كأنه واحد من أهل بيته . فعن أبي موسى الأشعري قال : قدمت أنا وأخي من اليمن ، فمكثنا حينا وما نرى ابن مسعود وأمه إلا من أهل بيت رسول الله - ﷺ - ممن كثرة دخ[illegible]م على رسول الله ولزومهم له .

وقال - ﷺ - لأبي بكر الصديق عندما حدث كلام بينه وبين سلمان وصهيب وبلال في شأن أبي سفيان : يا أبا بكر لعلك أغضبتهم ، لئن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك ، فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه .. أن أبا سفيان أتى على سليمان وصهيب وبلال في نفر ، فقالوا : ما أخذت سيوف الله من عدو الله مأخذها ، فقال أبو بكر : أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم ؟ فأتى النبي - ﷺ - فأخبره فقال :((يا أبا بكر لعلك أغضبتهم ؟ لئن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك ؟)) فأتاهم فقال : يا إخوتاه أأغضبتكم ؟ قالوا . لا ، ويغفر الله لك يا أخي ..[٩٦]

هنا الله - عز وجل - يعلم نبيه كيف يوزن الرجال ، وكيف يقدرهم ، وما معيار هذا التقدير . بعد ذلك لم يخطئ النبي قط في تقدير الرجال ، وإنما كان بيده الميزان الحق والصدق في تقدير كل من حوله وكان يمنحهم الأوسمة والنياشين التي

٩٦- التفسير الوسيط للقرآن الكريم - د . محمد سيد طنطاوي - المجلد الخامس عشر - صفحة (٢٨٦)

تقدرهم أحق تقدير ، وكانت تلك الأوسمة والنياشين أسماء وصفات يطلقها عليهم فهذا الصديق وهذا الفاروق ، وهذا سيف الله ، وهذا أمين الأمة ، وهذا ترجمان القرآن ، وهذا حبر الأمة ...الخ .

تعلم النبي من ربه – عز وجل – وتعلم أصحابه منه كيف يقدرون الرجال لأن أخطر شيء على أي أمة ، هو الخطأ في تقدير الرجال . وهذا الخطأ يدفع أن نضع الرجل غير المناسب في أهم وأخطر المناصب . ولقد سار خلفاؤه – ﷺ – على هذه السنة فكانوا يكرمون الفقراء ، فأبوا بكر – رضي الله عنه – أذن لصهيب في الدخول عليه قبل أن يأذن لأبي سفيان وسهيل بن عمرو وعمر رضي الله عنه – يقول في شأن أبي بكر ((هو سيدنا وأعتق سيدنا)) يعني بلال بن رباح "[٩٧]

إذن التكالب على الحياة الدنيا والحرص على ما ينفع في الدنيا – بغض النظر عن الآخرة – والانخداع بمظهر الرجال ، وترك الحسب والنسب والشهرة والصيت والغنى يؤثرون في تقديرنا وحكمنا على الرجال ... كل هذا مرفوض في موازين الإسلام .

٩٧- المصدر السابق – صفحة (٢٨٥)

الفصل السابع

النـــبـــــوة

" في هـذه البقعـة المنعزلـة الموحشـة كـان يقـيم وحيـدا يؤنسـه تفكيره وتامله ،يقلب في صحف نفسه هذه الحقيقة السامية التي كان الله يهيئـه لما ليبعثـه إلى النـاس بها . لم يكـن في عزلتـه وفي وحدتـه وفي انقطاعه يخاف الجبل ولا الغار وما قد يكون فيهما مـن وحـش أو هـوام . أية قوة روحية يهبها الله لمـن يتخـذ هـذا المكان القفر موئلا ! إنما قـوة فوق ما أوتي الناس جميعا وفـوق مـا في العـالم كلـه . لا يؤتاها إلا الـذين اختارهم الله لرسالته ورضي عنهم ورضوا عنه "

" وأمـا الـذين يرجعـون إلى أنفسـهم يتلمسـون الحقيقـة في أعماقها فأولئك هم الأقوياء حقا ، وهـم الـذين يقـدرون الـنفس الإنسـانية قدرها الصـحيح ، والـذين يتوجهـون إلى القـوة العليا الـتي بـرأتهم وكـان الروح من أمرها يرون فيها الحق لا حـق إلا هـو ، ويتـأملون في خلـق الله سنة الله فيه . فإذا اهتدوا اهتدت الإنسانية بهداهم وسعدت برأيهم "

د : محمد حسين هيكل – في منزل الوحي

obeikandi.com

ظلت النبوة في الضمير الإنساني كمعنى مبهم وكفكرة غامضة . وقد وجدت هذه الفكرة وهذا المعنى حينما أدرك الإنسان أن هناك عالما آخر غير هذا العالم الذي يعيش فيه ، عالم محاط بالأسرار والغيبيات لا يستطيع أن ينفيه ، كما أنه ليست معه البراهين والدلائل لإثباته . ومن جانب آخر هناك في عالمه المعاش ألغاز وطلاسم لا يجد لها حلا ، وأسئلة لا يجد لها إجابة . وفوق هذين العالمين هناك القوة المهيمنة والمسيطرة والمتحكمة في كل شيء ، حتى فيه هو .وهذه قضية أخرى أرقته طويلا .

عالم معاش حافل بالألغاز والطلاسم .

عالم غيبي لا يعلم عنه شيئا سوى إحساس مبهم بوجوده.

قوة مهيمنة على الوجود ، سواء ما يخص العالم المعاش أو العالم الغيبي

وأمضى الإنسان زمنا طويلا حائرا متخبطا ضالا . وبمرور الوقت تزداد رغبته في المعرفة والفهم ، وتزداد تلك الرغبة إلحاحا ؛ لأن الأمر متعلق بمصيره وبمكانه في الكون ، وحقيقة هذا الكون ، ومن وراء هذا الكون .

وكان لابد من إرضاء وإشباع تلك الرغبة بشكل أو آخر . فندبت الإنسانية أو تطوع أنواع من البشر ، إما لأنهم كانوا يتميزون بقدرات خاصة ومواهب غير طبيعية . أو لأن الجماعة الإنسانية قد خلعت عليهم تلك الصفات والقدرات ، وهم الكهنة والسحرة والشعراء .

فالكاهن - بالنسبة لهم - يخترق حجب الغيب ويخبرهم بما سيحدث مستقبلا أو يقوم بتفسير بعض الظواهر الغامضة .

والساحر يسيطر على قوى الشر حولهم ، أو يسخر قوى الخير في خدمتهم .

والشاعر يؤثر فيمن حوله ؛ لأنه يملك الكثير من المفاتيح وأهمها الكلمات .

إلا أن كل هؤلاء لم يكونوا على مستوى الرغبة النبيلة والحاجة المقدسة التى انتدبتهم الإنسانية لتلبيتها . فلم يقدموا للإنسانية شيئا . بل كانوا بمثابة عبء وحمل ثقيل على ضميرها .

وكان من المتوقع أن تطرح الإنسانية فكرة أن يكون هناك من يتصل بطريقة أو بأخرى بعالم الغيب . ولكن لأن مسألة العقيدة أو الإيمان غريزة ممتدة حتى جذورها فى عمق الضمير الإنسانى . فإن الإنسانية لم تتخل عن فكرة شخص ينقل لها أو يوصلها بأخبار وأنباء الغيب . سواء فيما يخص الماضى أو الحاضر أو المستقبل . وظلت متعلقة تعلقا قويا بهذا الأمر .

ولا ندرى كيف توصلت الإنسانية إلى أنه لا يصلح أن تنتدب أحدا لهذه المهمة . أو يتطوع أحد بنفسه . وإنما الذى يتولى الإختيار هو من يمت للعالم الآخر بصلة . أو الذى ينتدب هذا الشخص هى القوة المهيمنة والمسيطرة على الكون والوجود ؛ لأنها ستختار الأصلح لهذا الأمر ولأنها - أيضا - هى التى ستعطى وتمنح وتهدى وترشد . وربما وصلت إلى قناعة واقتناع بخصوص هذا الأمر لأنها وجدت من الصعوبة التفرقة بين النبى ومدعى النبوة . ولا ندرى هل ظهر أولا أنبياء صادقون . ثم ظهر بعد ذلك مدعو النبوة . أم ظهر أولا مدعو النبوة ثم الأنبياء الصادقون بعد ذلك ؟

التاريخ لا يحدثنا عن ذلك بشئ ـ ـن إليه . " يحيط بتاريخ النبوات كثير من الغموض . فإن من أشتهر منهم فى التاريخ العام . وعرفت سيرهم . وضبطت تواريخهم . عدد لا يذكر بجانب من لم تعرف أسماؤهم . ولم تصلنا أخبارهم . وقد دلت العلوم الاجتماعية على أن الجماعات البشرية فى جميع أدوار وجودها صدرت فى حياتها الدينية عن تعاليم مقررة أفضى بها إليها رجال منها . أطلقت عليهم ألقابا مختلفة من كهننة وبطارقة وموابدة ومعممى . بل وآلهة وأنصاف آلهة ظاهرين بأجساد بشرية ألخ . ولكن بسبب الظلمات المسة على تواريح تلك الأمم

Obeikandi.com

لم تعرف أسماء أكثرهم ، لم يمكن نقد ما أتوا به من التعاليم ، وتقديرها قدرها من الناحية الفلسفية وتمييز من يصح أن يحشر منهم فى زمرة الأنبياء ، لسلامة تعاليمهم من ضلالات الوثنية ، ومن يتعين الزج بهم فى قبيل الدجاجلة والمشعودين ، وطلاب السلطان والمال باستغلال جهل الجاهلين ، ليس هذا موطن تحقيق تاريخة لتمييز الصادقين من الأنبياء الكذبة ، ولكننا نلفت نظر القارئين إلى حقيقة ذات دلالة بعيدة المدى وفى فهم مرمى العاطفة الدينية ، وهى أن العالم كله متمدنه ومتوحشه ملتف حول النبوة فى جميع مظاهرها ، لا تشذ منه جماعة فى أى عهد من عهود التاريخ ، فأينما أجلت بصرك شرقا وغربا ، وشمالا وجنوبا إلى القرن العشرين ، وفيما قبل التاريخ ، فلا تصادف غير أمم وشعوب وقبائل معولة فى توفية أخص حاجاتها الروحية على النبوة ، فهل هذا التعلق الشديد بالنبوة أثر من آثار السذاجة الإنسانية الأولى توارثها الأجيال فأصبحت حاجة نفسية لابد من توفيتها على حال من الأحوال ؟ "[٩٨].

○ بضاعة الأنبياء

وبارتقاء الفكر الإنسانى ، والاحتكام إلى الضمير اليقظ ، أمكن التفرقة بين الكاهن والساحر والشاعر وبين النبى ، وكذلك بين النبى ومدعى النبوة ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كان النبى نفسه يحمل معه الدلائل والبراهين التى تؤكد وتبرهن على صدقه ، فهو لديه شهادة اعتماد من السماء .

وبدأ الأنبياء يتوالون تترى ليمارسوا دورهم الهام والخطير ، ويؤدوا مهمتهم المقدسة ، وبدأ التاريخ الحق للإنسانية منذ بدأت تلك الزمرة المباركة تتعامل مع الإنسانية والإنسانية تتعامل معهم ." ماذا حمل الأنبياء للأمم من التعاليم ، وأى شيء أفادوه المجتمعات المختلفة فى خلال العصور ؟ إن بضاعة الأنبياء معروفة فى كل زمان ومكان ، وهى تلطيف خشونة الطبيعة البشرية ، وقهر ميولها البهيمية

٩٨- السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة – محمد فريد وجدي – صفحة (٦٦)

، وإدخالها فى حدود الاعتدال وتوجيه الشخصية الإنسانية وجهة الخير ، والسمو والصلاح وذلك بلفت نظر الناس إلى أن للكون صانعا قديرا حكيما وأن لهم روحا قدر لها الخلود فى حياة بعد هذه الحياة ، وإن العدوان الذى يرتكبه الإنسان فى حياته الأرضية ضد الآداب والحقوق الخاصة والعامة ، يحاسب عليه فى تلك الحياة ، وقد دان الناس كلهم لهذه العقائد حتى لم يصادف قديما ولا حديثا أمة بغير دين ، فعلام يدل هذا العموم والشمول حتى والإنسانية فى أحط الأدوار ؟

ألا تدل على أنها مطبوعة على الانعطاف إليها ؟ وهل فى الدين إلا واجبات وتكاليف وتضحيات ؟ فلو كان الإنسان طينا محضا لما هوى إلى هذه التعاليم ، وللفظها كما يلفظ كل ما لا يشعر بميل فطرى إليه " [٩٩]

والنبوة بمثابة الجسر الذى نعبر من خلاله لنتعرف على ملامح وسمات العالم الآخر ، أو نصل إليه من خلاله ، وما يترتب على تلك المعرفة والعلم من إلتزامات وواجبات دينية وأخلاقية ، بدون هذا الجسر أو الباب ، الإنسانية تعيش فى ظلام وضلال وحيرة أبدية ، ويختم على سمعها وبصرها وقلبها ، ولا تأتى بخير أينما توجهت .

ولكن ما معنى النبوة ؟ وهل هى أصيلة – معنى ومبنى – فى اللغة العربية أم مستعارة من لغة أخرى وبيئة أخرى .

" كلمة النبى عربية لفظا ومعنى .

عربية لفظا لأن مادة النبأ والنبوة أصيلة فى اللغة .

وعربية معنى ، لأن المعنى الذى تؤديه لا تجمعه كلمة واحدة فى اللغات الأخرى : فهى تجمع معانى الكشف والوحى والإنباء بالغيب والإنذار والتبشير وهى معان متفرقة تؤديها اللغات الحديثة بكلمات متعددة ، فالكشف مثلا تؤديه فى اللغة الإنجليزية كلمة RVELATION والوحى تؤديه كلمة INSPROTION

٩٩- المرجع السابق – صفحة (٦٩ – ٧٠)

واستطلاع الغيب تؤديه كلمة DIVINOTION أو ORACLE ولا تجتمع كلها فى معنى كما تجتمع فى هذه الكلمة باللغة العربية غير مستعارة من معنى آخر. لأن اللغة العربية غنية جدا بكلمات العرافة والعيافة والكهانة وما إليها من الكلمات التى لا تلتبس فى الألسنة الأخرى عند أصل التسمية واشتقاق المعانى الجديدة من الألفاظ القديمة .

فكلمة النبى التى تدل على معنى واحد لا تدل على غيره . خلافا لأمثالها من الكلمات فى كثير من اللغات . والعبريون قد استعاروها من العرب من شمال الجزيرة بعد اتصالهم بها لأنهم كانوا يسمون الأنبياء الأقدمين بالآباء وكانوا يسمون المطلع على الغيب بعد ذلك باسم الرائى والناظر ولم يفهموا من كلمة النبوة فى مبدأ الأمر إلا معنى الإنذار " [١٠٠]

ولأن معنى النبوة ثرى وشامل فلها أكثر من مدلول ، فهى تدل – أيضا – على الرفعة وعلو الشأن وعظيم الأمر وجليل القدر " النبى فى اللغة العربية وصف من النبأ وهو الخبر لما له شأن مهم . ويصح فيه معنى الفاعل والمفعول لأنه منبئ عن الله ومنبأ منه . والنبى بالتشديد أكثر استعمالا . أبدلت الهمزة ياء . أو هو من النبوة وهى الرفعة والشرف ويطلق عند أهل الكتاب على الملهم الذى يخبر بشيء من أمور الغيب المستقلة وقيل إن معنى أصل مادته فى العبرانية القديمة المتكلم بصوت جهورى مطلقا أو فى الأمور التشريعية وهو عندنا من أوحى الله إليه وحيا فإن أمر بتبليغه كان رسولا " [١٠١] .

١٠٠- إبراهيم أبو الأنبياء – عباس محمود العقاد – صفحة (١٥١)
١٠١- الوحى المحمدى – محمد رشيد رضا – صفحة (٢٥)

٥ كيف يكون الإنسان نبيا ؟

يكون الإنسان نبيا بأن يكلمه الله ، ويعلمه أنه نبي ، ويبدأ النبى فى تلقى الوحى ، وتلقى ما يأمره الله بتبليغه إلى الناس " النبوة مرتبة روحية يستأهل بها صاحبها أن يتلقى العلم عن الله بدون واسطة العقل والحواس على ضروب شتى إما إلقاء في الروع ، أو بتوسط ملك يتمثل في صورة بشرية أو فى أثناء النوم على حالة رؤيا ، أو غير ذلك من الحالات الروحية التى لا يدركها غير نبى ، ويسمى هذا الأسلوب التعليمى المخالف للسنن العادية وحيا .

هذه النبوة قد تكون قاصرة على صاحبها ويسمى نبيا ، وقد تكون مقترنة بتكليف تقويم أود جماعة من الناس ، فيسمى هذا التكليف رسالة ، ويدعى صاحبها رسولا . وقد سجل تاريخ البشر أسماء عدد كبير من الأنبياء . ومثله من المرسلين فى جميع أدوار الإنسانية " [١٠٢] .

ومنذ إعلام النبى بمهمته تتعهده العناية الإلهية بالعلم وإرشاده إلى السبل التى يجب إتباعها فى الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته " وقد أجمع هؤلاء الأنبياء والمرسلون على أنهم يتلقون معارفهم من طريق الوحى ، وإنما يدلون إلى الناس بما أمروا أن يدلوا به إليهم ، وأوصوا بالثبات عليه ، والاستمرار فيه ، وإن غضب الناس منهم ، وتألبوا على اضطهادهم ، وقد أوذى وقتل منهم عدد كبير ، وأوبتلوا قبل قتلهم بجميع ضروب المثبطات ، فلم يزدادوا إلا إقداما ومضيا " [١٠٣] .

إذن الوحى هو الخط الفاصل بين النبى وغيره من البشر ، فالنبوة والوحى متلازمان من ناحية ومنفكان من ناحية أخرى ، فلا نبى بدون أن يوحى إليه ولكن يوجد الوحى ولا يحتم أن يكون الموحى إليه نبيا . " فالقول الجامع فى معنى الوحى أنه الإعلام الخفى السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره .

١٠٢- السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة – محمد فريد وجدى – صفحة (٤٥)
١٠٣- المرجع السابق – صفحة (٤٥)

ومنه الإلهام الغريزي كالوحي إلى النحل وإلهام الخواطر بما يلقيه الله في روع الإنسان السليم الفطرة والطاهر الروح كالوحي إلى أم موسى . ومنه ضده وهو وسوسة الشيطان قال تعالى :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١) ﴾ الأنعام: ١٢١

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) ﴾ الأنعام ١١٢

ووحي الله تعالى إلى أنبيائه قد روعي فيه المعنيان الأصليان لهذه المادة وهما الخفاء والسرعة . فهذا معنى المصدر . ويطلق على متعلقه وهو ما وقع به الوحي أي اسم المفعول . وهو ما أنزله تعالى على أنبيائه وعرفهم به من أنباء الغيب والشرائع والحكم . ومنهم من أعطاه كتابا أي تشريعا يكتب ومنهم من لم يعطه .

والله تعالى يوحي إلى ملائكته ما يأمرهم بفعله ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ الأنفال: ١٢ ويوحي إلى ملك الوحي ما يوحيه الملك إلى الرسول كقوله : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ النجم ١٠

أي أوحى إلى عبده جبريل عليه السلام ما أوحى جبريل إلى محمد ﷺ . وقال شيخنا الأستاذ الإمام في رسالة التوحيد بعد تعريف الوحي لغة ((وقد عرفوه شرعا أنه إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه . أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة . والأول يتمثل لسمعه أو بغير صوت . ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب من غير شعور منها من أين أتى . وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور)) .

هذا التعريف يشمل أنواع الوحى الثلاثة الواردة فى قوله عز وجل :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ الشورى: ٥١

فالوحى هنا إلقاء المعنى فى القلب ، وقد يعبر عنه بالنفث فى الروع – وهو بالضم القلب والخلد والخواطر – والكلام من وراء حجاب هو أن يسمع كلام الله من حيث لا يراه كما سمع موسى عليه السلام النداء من وراء الشجرة . وأما الثالث فهو ما يلقيه ملك الوحى المرسل من الله إلى رسول الله فيراه متمثلا بصورة رجل أو غير متمثل ويسمعه منه أو يعيه بقلبه "[١٠٤] .

○ مراتب الوحى :

لرسول الله خصوصية تميز بها فيما يخص الوحى . فلم يكن الوحى بالنسبة له درجة واحدة أو مرتبة واحدة . وإنما تدرج من صورة بسيطة حتى وصل إلى أعلى وأصعب الدرجات . حتى أن الرسول كان يعانى معاناة شديدة – كما لحظ المحيطون به – أثناء مروره ببعض تلك المراحل والمراتب . مع أن تكرار نزول الوحى كان من المفروض إلا يسبب له هذا الإجهاد والمشقة لرسول الله . من ناحية أنه أصبح شيئا مألوفا ومعتادا . وأن كيانه قد مرن على هذا الأمر . إلا أن الواقع غير ذلك . ففى كل مرة كان يتنزل الوحى على رسول الله على مدى الثلاث والعشرين سنة . كان نزول الوحى على الرسول يمثل إجهادا وارهاقا . ذلك أن نزول الوحى لم يخرجه عن بشريته . ولم يزد فى طاقاته أو قدرة احتماله كبشرى . وأن يلتقى به الملك على أى صورة من الصور . أو يتنزل عليه الوحى على أى درجة من الدرجات . كان يسبب له الكثير من التعب والمعاناة . معاناة جسمية ونفسية وعقلية وعصبية . حتى أن الله قد خفف على رسوله ما يجد حينما قال له

١٠٤- الوحى المحمدى – محمد رشيد رضا – صفحة (٢٣- ٢٤)

﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴿١١٤﴾ ﴾ طه: ١١٤

٥ ومراتب نزول القرآن على الرسول :

((أولها)) الرؤيا الصادقة فى النوم .

((ثانيهما)) ما كان يلقيه الملك فى صدره من غير أن يراه .

((ثالثها)) خطاب الملك له حينما كان يتمثل له بشرا سويا .

(رابعها)) رؤيته جبريل فى صورته الروحانية فيأخذ عنه .

((خامسها)) ما كان يلقى إليه بصوت مثل صلصلة الجرس ، وكان هذا النوع أشده عليه فإن جبينه ﷺ كان يتفصد فى أثنائه عرقا فى اليوم الشديد البرد .

وإذا اتفق حصوله وهو راكب بركت ناقته على الأرض ، وحدث مرة أن نزل عليه الوحى على هذا الضرب وفخذه فوق فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليها حتى كادت ترضها . وقد شوهد أنه كان إذا أوحى إليه على هذا النوع أصابته رعدة وكرب ، وتربد وجهه وغمضت عيناه ، وربما غط كغطيط البكر (أى الفتى من الإبل) " [١٠٥] .

ولم يكن يعرف رسول الله زمان أو مكان نزول الوحى ، ولا فى أى حاله من حالاته ، نائما كان أم مستيقظا ، مقيما كان أم مسافرا ، قبل حروبه أو فى أثنائها أو بعدها ، وكان هذا يفرض عليه أن يكون فى حالة استعداد دائم وترقب مستمر كى يتلقى ما يأتى به الوحى ، لذلك كان فى حالة يقظة لا يدركها البشر ، لذلك كان يقول : (إن عينى تنام ولكن فؤادى يظل يقظا) ، فلا نومه كنومنا ، ولا يقظته كيقظتنا ، إن قلبه وعقله ووجدانه دائما موصولون ومعلقون بشيء قد يحدث فجأة ، لا زمان له ولا مكان ولا مقدمات ، ولابد أن يكون فى أعلى درجات

١٠٥- السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة – محمد فريد وجدى – صفحة (٩٢)

obeikandl.com

الوعى والتيقظ وحسن الاستقبال ، لا يغفل طرفة عين عما يلقى إليه ، كل هذا لم يخرجه عن بشريته ، أو لم تتخلى عنه بشريته ، لم تنخفض نسبة البشرية فيه لتعطى مكانا للنبوة ولم تطغى النبوة لتسود وتهيمن على بشريته . فالرسول كان يعيش بشريته بنبوته ، وكان يعيش نبوته ببشريته ، فقد كان بشرا ، وقد كان نبيا وقد كان بشرا نبيا ، وقد كان نبيا بشريا . وهنا موطن العظمة في شخصية الرسول ففيها ما تتطلبه النبوة من أعباء وتكاليف وإجهاد وإرهاق ومشقة ووعى ويقظة وفيها ما تستوجبه البشرية من مشاركة الآخرين حياتهم ومشاكلهم وقضاياهم وأحزانهم وآمالهم ، وفيها ما تقتضيه البشرية النبوية من جعل النبوة كالشعاع الذي يتسلل ويتخلل كل مناحي لحياة البشرية ، فيضيئها ويبعث الدفء والحياة والحيوية فيها ، وفيها ماتتطلبه النبوة البشرية من رقى وسمو وارتفاع بالبشرية إلى المكانة والمنزلة التى أرادها الله – عز وجل – للجنس البشرى من تكريم ورفعة .

إذن لم يحدث صراع بين نبوة الرسول وبشريته ، ولم يشتبكا ولم يتزاحما وإنما كان هناك توازن دقيق بين الجانبين ، وهذا التوازن الدقيق لن يتأتى إلا إذا كان الرسول يمارس بشريته من خلال نبوته ، ويمارس نبوته من خلال بشريته. فقد تلبست نبوته ببشريته ، وتلبست بشريته بنبوته ، فإذا نظرت إليه فهو نبي أجل وأعظم وأفضل ما تكون النبوة ، وإذا نظرت إليه كبشر فهو أكمل وأتم وأرقى ما تكون البشرية ، فهما – النبوة والبشرية – ليسا جانبين منفصلين كل منهما عن الأخر ، وإنما امتزجا وتداخلا حتى صارا شيئا واحدا هو قوام شخصية الرسول لذلك ارتقت وسمت بشريته ارتقاءا وسموا عظيما لا نظير له ، حتى تظن أنه نبي خالص ليس للبشرية منه نصيب وقدر ، وتواضعت وتطامنت نبوته حتى تخال أنه بشر خالص ليس للنبوة منه نصيب وقدر ؛ حتى أن من حوله كانوا كثيرا ما يتعاملون معه من منطلق أنه بشر ، وليس نبيا ، غافلين عن هذا الأمر ، فهم يتحدثون معه كما يتحدثون مع أى فرد منهم ، ويخاطبونه وينادونه كما يخاطبون

وينادون أي واحد منهم ، ويدخلون بيوته ويمكثون ويطيلون المكوث ، ويراجعونه وقد يخالفونه أحيانا ، إلا أن القرآن سرعان ما يتنزل وينبه الصحابة أن شخصية النبي لها خصوصياتها وتميزها في أشياء كثيرة . ليس الصحابة فحسب بل النبي نفسه ، لشدة تواضعه وعظيم شخصه ونبل معدنه ، كان كثيرا ما يمارس حياته كأنه إنسان عادى ، ليس هناك اختلاف أو فارق بينه وبين من حوله ، وهنا أيضا يتدخل القرآن منبها أنه نبي كي يثوب إلى مكان ومكانة النبوة ، مع أنه في حقيقة الأمر لم يفارقها ولم يغفل عنها، ولكن لشدة تواضعه يؤثر أن يعيش وسط من حوله وكأنه فرد منهم لا تفاضل ولا ميزات ولا خصوصيات ، ولشدة رحمته يفضل ألا يحملهم عبء ومشقة وإرهاق النبوة ومتطلباتها ، ولرأفته يشفق على من حوله أن يحملهم ويكلفهم ما كان يتحمله ويتكلفه من عبادة وصوم وصلاة .

- تواضع .
- ورأفة .
- ورحمة .

تلك الصفات أو الهيئات لم يكن يتكلفها الرسول ، ولكنها كانت أصيلة فى طبعه ، هو لا يملكها ، ولكنها كانت تشتمله ، وبلغت معه أقصى درجة فى الإمكان أن تبلغها مع إنسان أو نبي .

فهو إنسان متواضع ونبي متواضع .

وهو إنسان رءوف ونبي رءوف .

وهو إنسان رحيم ونبي رحيم .

ولم تنفصل الإنسانية عن النبوة – كما لم تنفصل البشرية عن النبوة – مهما شيء واحد فى شخص الرسول .

إذا فهمنا هذا النمط من الشخصية ، أمكن لنا أن نفهم كل تصرفات وأفعال النبى محمد ، وفهمنا – حقا – النبوة وحدودها ومتطلباتها وأعبائها ومشاقها .

فنحن لا نستطيع أن نتصور النبوة إلا وهى متلبسة بالبشرية ، النبوة ليست معنى مجرد ، أو مفهوم فكرى ، النبوة رجل من لحم ودم وأعصاب يسير على قدمين محمل بمؤثرات وراثية وبيئية وفكرية واجتماعية ، وبين جنبيه نفس تتصف بكل ما تتصف به النفس الإنسانية من آمال وأهداف وطموحات وغرائز وميول ، ولكن حدثت عملية تصفية وتنقية وتهذيب لتلك النفس لتستطيع النبوة أن تجد مكانا وتمارس دورها ، والتصفية والتقية والتهذيب لم يخرجوا النفس عن طبيعتها ، فهي نفس بشرية بمعنى الكلمة ، ولكنها ارتقت وسمت وتطهرت من كل ما من شأنه أن يبعدها عن مقام النبوة ، فهذا يتيح للنبي أن يكون معصوما من الخطأ " عصمة الأنبياء فى التبليغ وأداء أمانة الوحى قضية فرغ العلماء منها ، فليس للأنبياء فضل الاختيار فى التليغ وأداء الأمانة بعد طبعهم بخاتم النبوة واختيارهم لها . وهذا التبليغ نتيجة حتمية للنبوة لا مرد لها غير أن الوحى لا يلازم الأنبياء فى كل عمل يصدر عنهم ، وفى كل قول يبدر منهم ، فهم عرضة للخطأ ، يمتازون عن سائر البشر بأن الله لا يقرهم على الخطأ بعد صدوره ، ويعاتبهم عليه أحيانا "[١٠٦]

لا نبوة الرسول ألغت بشريته ، ولا بشريته طعنت فى نبوته أو غضت من شأنها .

النبوة تأكيد للبشرية ، وليست نفيا لها .

حينما يقر القرآن ببشرية الأنبياء والرسل ، وحينما يعترف الأنبياء والرسل ببشريتهم ، هذا معناه أنهم بلغوا حد الكمال البشرى ، وليس حد الكمال البشرى مجاوزة البشرية ولكن معناه أنهم يتصفون بتلك الصفة فى حدها الأمثل والأكمل

١٠٦- حياة محمد – محمد حسنين هيكل – مقدمة الشيخ محمد مصطفى المراغى – صفحة (١١)

وتمكن الصفات البشرية منهم ، لأن معنى اختفاء أى صفة من تلك الصفات - وليست ترقية أو تصفية - هو نقص فى البشرية بل تشويه لها ، وهذا ما تنزه الأنبياء والرسل عنه ، وإذا كان ذلك كذلك ، إذن الخطأ والنسيان والذنب وارد من النبي " جاء فى القرآن والحديث الصحيح ما يفيد صريحه صدور أفعال من الأنبياء صلوات الله عليهم ، وصف بعضها بأنه معصية ، والبعض الآخر بأنه ذنب ، كما وصف نوع ثالث بأنه خطيئة . وذلك مما يدل على أنهم كانوا يجتهدون وتصدر عنهم أفعال بناء على اجتهادهم دون أن يتلقوا فيها وحيا ، وإلا فلو كانت قد صدرت عنهم بعد وحى إليهم ما صح أن يوجه الله إليه لوما ، ولا أن يلجأ أحدهم للاستغفار والضراعة والتوبة .

روى البخارى عن أنس ، قال : قال ﷺ : ((يجمع الله الناس يوم القيامة فيقولون : لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا فيأتون آدم فيقولون : أنت الذى خلقك الله بيده فاشفع لنا ! فيقول لست هناكم ، ويذكر خطيئته ويقول : ائتوا نوحا أول الرسل ، وفى رواية فيقول : قد أخرجت بخطيئتى من الجنة ، وفى رواية : هل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم ؟ اذهبوا إلى نوح ! وفى رواية ، أنه نهانى عن الشجرة فعصيت ، نفسى نفسى ! اذهبوا إلى غيرى! ، فيأتون نوحا فيقول ، لست هناكم ، ويذكر خطيئته ، ائتوا إبراهيم الذى اتخذه خليلا ! (وفى رواية ويذكر سؤال ربه ما ليس به علم - قال ابن حجر تعليقا على ذلك ، فخشى أن تكون الشفاعة لأهل الموقف من ذلك -) ... إلى أن قال فى الحديث : فيأتون موسى ، فيقول : لست هناكم ، ويذكر خطيئته (وفى رواية يقول إنى قتلت نفسا بغير نفس ، وأن يغفر لى اليوم حسبى) ...الخ)) .

وروى البخارى عن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ((قال سليمان بن داوود عليه السلام: لأطوفن الليلة على مائة امرأة كلهن يأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله ، فقال له صاحبه إن شاء الله ! فلم يقل : إن شاء الله ! فلم تحمل

منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل . والذى نفسى بيده لو قال : إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعون))

والحافظ ابن حجر يعلق على هذا الحديث بقوله : قال بعض السلف : نبه ﷺ بهذا الحديث على آفة التمنى والاعراض عن التفويض لذلك نسى سليمان الاستثناء ليمضى فيه القدر.. ثم قال : وكان سليمان عليه السلام نسى بعد تذكيره لشيء عرض له فشغله .

ورواية البخارى سواء عن طريق أنس أو أبى هريرة رضي الله عنهما تنبئ عن أن الأنبياء صلوات الله عليهم قبل نبينا محمد عليه السلام . كل منهم أحس فى نفسه بتقصير نتيجة خطأ فى الرأى أو نسيان منه أو أن ما أخبر به لم يتحقق . وذلك يدل بالتالى على أن الأنبياء بشر فحسب ، إن تجاوز بهم الأمر دائرة الوحى الإلهى جاز عليهم ما يجوز على الإنسان العادى ، وجاز عليهم الخطأ فى الاجتهاد ، كما يجوز عليهم النسيان ، ويتولد عندهم الاحساس بالذنب والشعور بالملامة كما يتولد عند الإنسان العادى ، وتتوق نفوسهم إلى التخلص من آثاره بالتضرع وطلب المغفرة من الله جل شأنه وتزداد شوقا إلى ذلك أكثر من الإنسان العادى لما يتمتع الواحد منهم من منزلة القربى من الله سبحانه وتعالى كرسول اصطفاه لأداء رسالته . ولو أن كل ما أتى به من قول أو فعل كان عن الله ولله لوجب أن يتحقق مضمون قوله ويتنزه عن الخطأ فعله حين القول والفعل أو بعد القول والفعل . وإلا كان فى رسالة الله ما لا يصح أن يكون لله الذى هو الحق منذ الأزل إلى الأبد " [١٠٧].

- معصية .
- ذنب .
- خطيئة .

١٠٧- اجتهاد الرسول - فضيلة الشيخ - عبد الجليل شلبى - صفحة (٤٩) وما بعدها .

إذن حد النبوة لا يمنع أن تدخل فيه المعصية والذنب والخطيئة ! ولكن ينبغي أن ننبه أن المعصية والذنب والخطيئة الصادرة من الأنبياء تتناسب ومكانهم ومقامهم . فليس معصيتهم كمعصية غيرهم من الناس . وكذلك الذنب والخطيئة . فقد يكون شيئا هينا على مستوى البشر العاديين . ولكن هذا الشيء الذى نعتبره هينا هو عظيم وكبير فى شأن الأنبياء . فليس معصية العالم فى الاعتبار كمعصية الجاهل . وليس ذنب العابد كذنب العاصى . وليس خطيئة المقربين كخطيئة المبعدين .

والمعصية والذنب والخطيئة دلائل إثبات وليس دلائل نفى . دلائل لاثبات أشياء منها :

- أنهم بشر.
- أنهم أحرار.
- أنهم مجتهدون .

فلم تخرج النبوة النبى من بشريته . بل هو يتمتع بكل ما يتمتع به. ويتصف بكل ما يتصف به الإنسان العادى إلا ما يتنافى مع مقام النبوة .وأنهم أحرار فى فكرهم وفى اختيارهم . فليس النبى شخص مقيد فى كل ما يفعله ويصدر عنه فهو يمارس كامل حريته في قرارته واختياراته .

وهم مجتهدون . لديهم من الجراة والشجاعة والمواجهة أن يقولوا بأرائهم ويقدحوا زناد فكرهم . فهم ليسوا جامدين . ولم تجعلهم النبوة يلغون عقولهم وبشريتهم وحريتهم واجتهادهم . فإذا اندفعت بشريتهم . أو جرهم عقلهم أو شطح بهم فكرهم لما فيه تناقض للنبوة . كان هناك التنبيه والعتاب من الله كى يعودوا مستغفرين تائبين " وابن حزم فى كتابه ((الفصل فى الملل والأهواء والنحل)) يقول : ((قد يقع من الأنبياء قصد الشئ يريدون به وجه الله تعالى فيوافق خلاف مراد الله تعالى . وأنه تعالى لا يقرهم على شئ من هذا أصلا . بل ينبههم إلى ذلك

إثر وقوعه منهم، ويظهر لعباده وربما عاتبهم علىَ ذلك بالكلام كما فعل مع نبينا ﷺ في أمر ((زينب)) وقصة ابن أم مكتوم، وربما عاتبهم ببعض المكروه فى الدنيا كالذى أصاب آدم ويونس عليهما السلام))والأنبياء عليهم السلام بخلافنا في هذا، فإننا غير مؤاخذين بما قصدنا به وجه الله فلم يصادف مراده، بل نحن مأجورون على هذا أجرا واحدا.

ثم ذكر عن آدم قوله تعالى ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾ طه: ١٢١ وقوله ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ طه: ١٢٢

وشرح ذلك بأن التوبة لا تكون إلا من ذنب. ثم قال: وهذا وقع منه وعن قصد على خلاف ما أمر به متأولا فى ذلك ولا يدرى أنه عاص، بل كان ظانا أن الأمر للندب مثلا أو النهى للكراهة. وهذا شئ يقع فيه العلماء والفقهاء كثيرا. وهذا هو الذى يقع من الأنبياء ويؤاخذون به إذا وقع منهم.

ثم قال: وقال تعالى لنوح:

﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ هود: ٤٦

لأن نوحا ظن أن ابنه من أهله، وأن المراد أهل القرابة. فلما علم أن هذا ليس مرادا ندم، وليس هنا تعمد لمعصية وقال (الله) فى يونس:

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الأنبياء: ٨٧.

وقال الله لنبينا ﷺ: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ القلم: ٤٨.

ثم قال (صاحب الفصل) : إنه غاضب قومه ولم يوافق ذلك مراد الله فعوقب بذلك وإن كان ظانا أن هذا ليس عليه فيه شئ. وهذا هو ما أراد الله من نبينا ﷺ حين نهاه عن مغاضبة قومه وأمره بالصبر على أذاهم. وأما أخبار الله

بأنه استحق الذم والملامة لولا النعمة التى تداركه بها للبث معاقبا فى بطن الحوت ، فهذا هو ما تقرر آنفا من أن الأنبياء عليهم السلام يؤاخذون فى الدنيا على ما فعلوه مما يظنونه خيرا إذ لم يوافق مراد الله ، وعلى هذا الوجه أقر ((يونس)) عليه السلام على نفسه بأنه كان من الظالمين " [١٠٨].

إذن النبوة لم تمح سمات الشخصية البشرية للرسول ، بل أكدت تلك الملامح والسمات ، وهم يخضعون ويتأثرون لما يخضع ويتأثر به الإنسان العادى ويفكرون ويتأملون كما يفعل القادة والمصلحون ، وتصادفهم العقبات والأزمات والمآزق ، ويعانون ويتألمون ، ويشعرون بالضيق والحرج ، ويحاولون من منطلق بشرى بحت أن يخرجوا من تلك المآزق والأزمات والمشاكل على قدر وسعهم . والفرق بين شخصياتهم – كأنبياء – وشخصيات غيرهم ، هو الثراء والغنى العظيم فى الشخصية ، فهم طراز راق وسام وجليل ، صفات وسمات وخصائص تجمعت يساند بعضها بعضا، ويقوى بعضها بعضا، لتخرج فى النهاية شخصية كاملة ومكتملة تامة ومتممة ،وتحار أثناء دراستك لشخصياتهم أيمكن أن تشتمل الشخصية الإنسانية على كل تلك الخصائص والصفات والسمات ؟! وبهذا الرقى والسمو ؟.

النبوة تستفز وتستنفر وتبعث وتستنهض كل ما فى الشخصية الإنسانية من خفايا وكوامن ، إنها تصهرها لتجعلها تتألق وتشتعل بنار ونور مقدسة لتضئ العالم كله . مثل تلك الشخصية تأبى إلا أن تكون فى أعلى درجات الاجتهاد والتفكير والحرية والإقدام والشجاعة والجراة والمواجهة إنها خلقت إلا لتحرك العلم وتزلزله ، وتصدع أركان الظلم والباطل ، وتواجه عناد الظالمين والمشركين .

إنها ما خلقت إلا لتقطع أشواطا بعيدة فى مضمار العظمة والجلال .

١٠٨- المصدر السابق – صفحة (٣١) وما بعدها .

إنها ما خلقت إلا لتشهد لله عظيم قدرته وعلو إبداعه فى خلق الإنسان وإيداع جبلته تلك الطاقات والقدرات والإمكانات ؛ ليصل إلى الدرجات العليات من الكمال .

ولعظيم دورهم ، وجليل مسئوليتهم كانوا فى المقدمة من إعمال العقل والاجتهاد . " وربما فى عيشهم وكفاحهم كانوا أحوج إلى الاجتهاد وإعمال العقل اكثر من غيرهم . لأن الأنبياء – وكذا المصلحون فى الجماعة – أشد الناس حاجة إلى قوة العقل ورجاحة الفكر وحسن التقدير عن طريق المران العقلى . لأن ما يصادفهم من مشاكل الحياة ويعترض طريقهم من صعاب يتطلب سرعة البت فى حل تلك المشاكل وإزالة هذه الصعاب والعقبات .

ولا يكفى فى سرعة البت هذه حسن استعداد المرء وصفاء عقله وسلامة فطرته . فكم فى الفيافى ورؤوس الجبال وبطون الأودية من خصوبة عقل وجودة طبع قضى عليها الكسل العقلى أو قلة الدربة فى معالجة الأمور .

ولأن الدربة العقلية ألزم للرسول – وكذا للمصلح – أكثر من غيره لا نجد بين من اختارهم الله لرسالته إلا من صهرهم الزمن وعركتهم الحوادث فجمعوا مع صفاء الطبع وعلو الأصل وغزارة العقل ، قوة الجلد ووفرة النصب والصبر على نوائب الدهر ومقارعة الخطوب " [١٠٩]

ونحن نؤكد على المفهوم الواقعى والحقيقى للنبوة ، محاولين تخليصها من معانى القداسة والغلو المبالغ ، حتى أن البعض يخلع عليها صفات العصمة المطلقة وبهذا تقترب شخصيات الأنبياء من الذات العليا اقترابا شديدا ، ويشركون الأنبياء مع بعض ما تتصف به الذات العليا من كمال مطلق ، وقد حدث هذا مع بعضهم ، مع أنهم أول شئ يعترفون به ويقرون به أنهم عباد مخلصون لله الواحد الأحد ، وهم أول من يوحدونه وينفون عنه الشريك والصاحب والولد .

١٠٩- المصدر السابق – صفحة (٢١) وما بعدها .

الفصل الثامن

الزوج النبي

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ الأحزاب: ٢٨ ـ ٢٩

" أما بعد ، ايها الناس ...فإن لكم على نسائكم حقا ، ولهن عليكم حقا .

لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم احدا تكرمونه ، وعليهن أن لا يأتين فاحشة مبينة .

فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح ، فإن انتهين ، فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف .

واستوصوا بالنساء خيرا ، فإنهن عندكم عوان (أسيرات) ، ولا يملكن لأنفسهن شيئا .وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاعقلوا أيها الناس قولي فإني قد بينت " .

٥ من خطبة رسول الله في حجة الوداع

obeikandl.com

obeikandl.com

مكان أوحد فى العالم يظهر ويجلى شخصية الإنسان كما خلقها الله، بدون أدنى تغيير أو تبديل أو تحوير، وبدون أقنعة أو دهانات، وبدون تقمص أدوار لا تناسب صاحبها، أو شخصيات لا تلائمه ... هذا المكان هو البيت، لأسباب منها :

- إنه المكان الذى اختاره الإنسان بملء إرادته وكامل حريته، ليكون مكانا يجد فيه السكن والراحة، ويلتمس فيه الأمن والسلام.
- إنه المكان الذى يأوى إليه الإنسان بعد التعب والنصب، وبعد الصراع اليومى بينه وبين العالم، فهو عائد إليه وهو فى قمة التعب والإنهاك، فلم تعد له القدرة أو القابلية على القيام بأى دور من تلك الأدوار أو المهام التى يؤديها خارج بيته، فهو كما يخلع عنه كل الثياب الرسمية أو الملابس التى تحدد وظيفته وتعين دوره، ويرتدى بدلا منها ملبسا كل ما يتوافر فيه أن يكون مريحا للجسم فضفاضا لينا ناعما، لا يرمز إلى شئ سوى أن يحقق لصاحبه ما يبتغيه من راحة، فهو - كذلك - يخلع عنه أو ينحى كل الاعتبارات والرسميات والأدوار والمهام الوظيفية التى يمارسها خارج بيته.
- إنه المكان الذى يخلو من الرقباء ويأمن الإنسان فيه على نفسه من الدخلاء والمتطفلين، ويستطيع الإنسان أن يغلق أبوابه ونوافذه ويسدل ستائره، ويشعر أنه فى عالمه الخاص، فى تلك اللحظة الإنسان لا يواجه إلا نفسه وذاته، فلا مناص هنا من الصدق والصراحة والمواجهة، فإن كذب على العالم كله، محال أن يكذب على نفسه فى هذا المكان، وإن استطاع أن يخدع العالم بشئ فليس معه من أحد ليحاول خداعه، هنا لا أحد سوى ذات الإنسان، لا غرور ولا تكبر لا تصنع لا تجمل وهذا يذكر بقول أبى فراس الحمدانى :

إذا الليل أضوانى بسطت يد الهوى وأذللت دمعا من خلائقه الكبر

هذا من ناحية البيت كمكان ، أما بالنسبة للبيت كمعنى ومشاعر وعواطف فهناك الشخص الذى تم اختياره – أيضا – بملء إرادتك وكامل حريتك . وقررت أن يكون شريكا لك فى تلك الحياة ، وهى الزوجة ، وعماد العلاقة – بين الزوجين – المكاشفة والصراحة والصدق ، فالرجل يكون فى حالة مكاشفة وصدق وصراحة أكثر مما يكون مع نفسه ، لأن الإنسان فى حاجة أن يمارس كل هؤلاء مع آخر ؛ لأن تلك حاجة نفسية ومطلب وجدانى ، يريد أن يرى مردود تلك المكاشفة والصراحة والصدق ، فى حاجة إلى آخر يشهد له أنه مر بمرحلة مكاشفة لكل ما يضمره ويخفيه عن العالم ، وبحالة صراحة لكل ما لا يجرؤ عن إعلانه والتصريح به بوضع صادق متخلصا من الكذب وكل ما يخشاه أو يخافه . لذلك فلا لوم على الزوج إن كاشف وصارح وصدق مع زوجته بأى شئ ، ولكن اللوم – كل اللوم – يقع على الزوجة إن هى رشحت بما أفضى به الزوج إليها ؛ لأن ذلك يعد صورة من صور الخيانة الزوجية ، وإن تكن فى حدها الأدنى ، إلا أنه شئ لا يليق بالزوجة أن تفعله ، لأن ما يحدث بين الزوجين أمانة ينبغى الحفاظ عليها وعدم البوح بها بأى صورة من الصور.

لكل تلك الأسباب وغيرها ، لا نستطيع أن نجلى شخصية أى إنسان بدون أن نظهر هذا الجانب لأن إغفاله هو بتر لجوانب هامة وأساسية من شخصية الإنسان . نعم قد يكون هناك حرج ونحن نتناول هذا الجانب . لذلك فالمرء فى حاجة إلى جرأة وشجاعة ، ولابد أن نرفع هذا الحرج أو نتحمله ، لأن تجلية الشخصية ودراستها أهم من كل شئ . فإذا كان هذا حادث مع الإنسان العادى فإن الأمر مع النبى أشد حرجا وأكثر عنتا ، ولكن نحمد الله أن رفع القرآن عنا هذا الحرج وأبعد عنا العنت ، بأن دخل بيت النبى ، وعرض بكل صراحة وجرأة ما حدث بين النبى وأزواجه من أزمات ومشكلات ومراجعات ، وما كنا لنجرؤ أن نتسور جدران حجرات رسول الله لنطلع على ما يدور خلفها ، ولغابت عنا وجهلنا

جانبا عظيما من جوانب شخصيّة رسول الله وأثراها وأغناها . ففي تلك الحجرات الضيقة مكانا . والرحبة رحابة الروح . والمتواضعة معيشة . والحافلة بالمشاعر والحب والمودة . نسجت أطهر وأنقى وأروع وأجمل وأجل وأعظم علاقة بين الرجل والمرأة عرفتها الإنسانية قاطبة . ليس هذا فحسب . بل أصبحت تلك العلاقة – بين النبي وأزواجه – منارة يهتدي بها الزوجان حينما تشتد الظلمات وتصطرع الميول والرغبات . ويحل الخلاف والاختلاف ليفسد تلك العلاقة – وأيضا – نورا يبعث الدفء والجمال في تلك العلاقة . ليحيلها حياة للروح والضمير مآلها البقاء والخلود . قبل أن تكون حياة للجسد مصيرها الزوال والفناء . وعبقا إنسانيا كريما يضوع بالأزمان والعصور . ليبعث في جوانب الحياة وزواياها البهجة والحبور . وينعش القلب . ويرضي الروح

ولقد أراد الله – عز وجل – خيرا بالإسلام والمسلمين أن شب هذا النزاع والخلاف في بيت الرسول الكريم . وهو ليس نزاعا وخلافا بمعنى الكلمة ؛ لأن الرسول حسمه في بداية أمره ولم يجعله يصل إلى مداه واجتثه من جذوره ولم يتركه لينمو ويتفرع . **وعلى كل كان خيرا لأمرين** :

- أنه جلى لنا خطوطا ومواضع هامة من شخصية الرسول . نحن في مسيس الحاجة إلى تلك الجوانب في حياتنا اليومية ونحن نتعامل مع زوجاتنا . لأن الحياة الزوجية أفضل شئ يظهر بجلاء شخصية الرجل "وليس كالحياة الزوجية ما يمتحن الرجل أدق امتحان ويزنه أصدق ميزان وأضبطه " [110] أظهرت شخصية الزوج المحب الرحيم العطوف اللين . وفي نفس الوقت الزوج الحازم القوي الذي يملك أمره وأمر بيته ونسائه وأنه الآمر الناهي – بالحق والعدل – وإن إرادته هي النافذة وأمره هو المطاع .

١١٠- نساء النبي – د . عائشة عبد الرحمن – صفحة (٢٠)

- أنه عرض لنا مثالا يحتذى ، إذا عرضت أزمة أو مأزق لأى إنسان فى بيته وبينه وبين زوجته ، لقد كان الرسول يتبع أسلوب فى غاية الرقى والسمو يتناسب مع مقام زوجاته أمهات المؤمنين رضى الله عنهن .

وإن كانت الأزمات والخلافات التى كانت تشب فى هذا البيت الكريم مما يمكن أن ينشأ فى أى بيت من بيوت المسلمين ، لسبب بسيط أن اللائي يعيشن بين جدران هذا البيت هن بشر ، ولسن ملائكة ، تعتمل فى قلوبهن وصدورهن كل المشاعر والعواطف التى تعتمل فى قلوب وصدور غيرهن من النساء ، ولكن لا تصل إلى مداها ، ولا يسمح لها أن تشتط ، وإنما تذكى وترشد وتصفى ليكون هناك عبرة وعظة .

- **بداية لابد أن نقرر أمرين :**

إن النبى لم يكن له خصوصيات فيما يخص بيته أو زوجاته ، فقد كان ما يحدث فى بيت الرسول وبين أزواجه من حوارات ومناقشات ومراجعات ومآزق وأزمات معروف ومذاع ، وهذا شئ يخالف ما تعود عليه العرب من أن يكون هناك خصوصيات للرجل ، لا سيما ما يمس ويخص أهل بيته ، فقد كانت المرأة فى الحياة العربية دونها حجب وموانع ، ومنطقة ممنوع الاقتراب منها ، كنوع من الحماية والصيانة ، فالمرأة رمز للشرف الذى ينبغى أن يصان ويحفظ ، خصوصا إذا كان الأمر يمس عظيم من عظماء القوم ، ناهيك أن يكون نبيا ، ولو لم يذكر القرآن ما حدث بين النبى وأزواجه فى آيات تتلى ، ربما أنف كتاب السيرة والمؤرخون عن ذكر تلك المواقف والقضايا ، اعتقادا منهم أن هذا أمر يخص النبى وحده ، ولا ينبغى أن نقتحم جدران بيته لنعرف ما يدور خلفها ،ولكن الصحابة رضوان الله عليهم ، لشدة حبهم للرسول ، وحرصهم على أن يقتدوا به فى كل كبيرة وصغيرة، رأوا ألا يجب أن يكون هناك مانع يمنعهم عن رسول الله فى جميع أحواله حتى وهو فى بيته مع أزواجه أمهات المؤمنين " قال عمر رضي الله عنه : ((والله إن كنا فى

الجاهلية ما نعد للنساء أمرا حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل . وقسم لهن ما قسم . فبينا أنا فى أمر أئتمره إذ قالت لى امرأتى : لو صنعت كذا وكذا ؟ ... فقلت لها : ومالك أنت ولما ها هنا . وما تكلفك فى أمر أريده ؟ ... فقالت لى : عجبا يا بن الخطاب ، ما تريد أن تراجع أنت ، وإن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان ؟ .

فأخذت ردائى ثم انطلقت حتى أدخل على حفصة . فقلت لها : يا بنية إنك لتراجعين رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان ؟

فقالت : إنا والله لنراجعه !

ثم خرجت حتى دخلت على أم سلمة لقرابتى منها ، فكلمتها . فقالت لى عجبا لك يا ابن الخطاب ! قد دخلت فى كل شئ حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله ﷺ وأزواجه " [111] .

لم يكن عمر وحده الذى كان يبغى التدخل فى أخص خصوصيات النبى .بل العالم كله ، والذى صرح بذلك وأذن - كما قلت - هو القرآن الكريم حينما عرض ما كان من قضايا بين النبى وأزواجه .

والنبى نفسه لم يكن يرى فى حياته البيتية أو الزوجية خصوصية ينبغى ألا يطلع عليها أصحابه أو يستر عنهم شيئا ، لأنه كان يثق فى أصحابه وأيضا يثق فى أزواجه ، لذلك كل التعاليم والآداب التى يجب أن يتأدب بها المسلمون وهم فى بيت النبى أو يتحدثون مع النبى أو مع أزواج النبى ، لم تكن من عند النبى . ولكن جاءت من عند الله عز وجل ، وكانت قرآنا يتلى ويتعبد به .

- طريقة وأسلوب ومعاملة النبى لأزواجه كانت عمادها الرقى والسمو . لم تكن علاقة زوج بزوجته ، بل كانت علاقة إحدى طرفيها النبى بكل جلاله ورقيه وسموه . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كان النبى يراعى فى تلك

١١١- المصدر السابق - صفحة (٢٦ - ٢٧)

العلاقة أصل ونسب زوجته ، فلم يكن يعامل ((عائشة)) ﵂ كزوجة فحسب ، بل كان هناك اعتبار أنها ابنة أعز وأحب وأجل أصدقائه ، وهو أبو بكر ، بل أن الرسول لم يقدم على التزوج من ((عائشة)) إلا لأنها ابنة صاحبه ، فقد كان يريد أن يعطى لعلاقة الصداقة بعدا آخر ، وأن تزداد تلك العلاقة قوة ومتانة ، والأمر مع ((حفصة)) ﵂ هو نفس الأمر والمبدأ مع ((عائشة)). فهو لم يتزوج ((حفصة)) إلا لأنها ابنة صاحبه العزيز عليه عمر بن الخطاب. والعادة فى زماننا هذا أن الناس يحبون أن يصاهروا العظيم أو الكبير أو الزعيم ؛ ليزدادوا شرفا وعلوا أو يقتربوا منه أما الرسول فكان يصهر لأصحابه ليزيدهم شرفا وعلوا ويكافئهم على ما قدموه للإسلام والمسلمين ، ولتزداد علاقتهم بهم قوة ورسوخا ، ويجلو هذا قصة زواجه من ((حفصة)) .

" تألم عمر لبنته الشابة التى ترملت فى الثامنة عشرة من عمرها، وأوجعه أن يلمح الترمل يغتال شبابها ويمتص حيويتها وصباها . وبدأ يشعر بانقباض أليم كلما دخل بيته ورأى ابنته فى حزنها ، فبدأ له بعد تفكير طويل أن يختار لها زوجا قد تأنس على صحبته فتسترد بعض الذى أضاعت فى حداد استغرق ستة أشهر أو تزيد .

ووقع اختياره على ((أبى بكر)) صفى الرسول وصهره ، وصاحبه الصديق.

وارتاح للفكرة ، فإن أبا بكر فى رزانة كهولته وسماحة خلقه ووداعة طبعه كفيل بأن يحتمل ((حفصة)) بما ورثت عن أبيها من حدة المزاج وما أبتلاها به الترمل من كآبة وضجر . وأيضا أن يصهر إلى أحب رجل إلى رسول الله ، ولم يتردد عمر بل سعى إلى أبى بكر ، فحدثه عن ((حفصة)) والصديق يصغى فى عطف ومواساة .

ثم عرض عليه أن يتزوجها، وفي يقينه أن ((أبا بكر)) سيرحب بالشابة التقية، ابنة الرجل الذي أعز الله الإسلام به.

لكن أبا بكر أمسك لا يجيب ...!

وانصرف ((عمر)) واجدا، لا يكاد يصدق أن صاحبه رفض ((حفصة)) بعد أن عرضها أبوها عليه.

وسارت به قدماه إلى بيت ((عثمان بن عفان)) وكانت زوجه السيدة ((رقية)) بنت الرسول قد مرضت بالحصبة بعد عودتها من الحبشة والمسلمون يلقون عدوهم في بدر، ثم ماتت بعد أن تم النصر لأبيها والمؤمنين.

وتحدث عمر على عثمان، فعرض عليه ((حفصة)) وهو لا يزال يحس مهانة الرفض من أبي بكر، وإن حاول جهده أن يكظم غيظه، فلعل الله سبحانه قد اختار لحفصة ((عثمان)) والخيرة فيما يختاره الله.

وكان جواب عثمان أن استمهله أياما، جاءه بعدها فقال: ((ما أريد أن أتزوج اليوم!)) فكاد ((عمر)) يتميز غيظا من قسوة الموقف، ثم ثار به الغضب فانطلق على رسول الله عليه الصلاة والسلام يشكو صاحبيه ... أمثل حفصة في شبابها وتقواها وشرفها، ترفض؟ وممن؟ من أبي بكر وعثمان، صاحبي الرسول وصهريه، وأولى المسنين بأن يعرفا قدر عمر، وأحق الصحابة بألا يردا مثله صهرا؟.

ودخل ((عمر)) على المصطفى وما يملك نفسه من غضب وألم، فتلقاه عليه الصلاة والسلام هاشا باشا ملاطفا، وأقبل عليه يسأله في عطف ومودة عما يؤمله ...

ونفض ((عمر)) لدى الرسول الكريم ما يرهقه ويضنيه، وكشف له عما كان من أبي بكر بن أبي قحافة وعثمان بن عفان.

obeikandl.com

فتبسم عليه الصلاة والسلام ، وقال : ((يتزوج حفصة من هو خير من عثمان ، ويتزوج عثمان من هو خير من حفصة)) .

ورد عمر مأخوذا بروعة المفاجاة : ((يتزوج حفصة من هو خير من عثمان؟)) وأشرقت فى خاطره لمحة مضيئة : أيتزوج المصطفى من ابنته ؟

ذاك والله شرف لم تتطاول إليه أمانيه .

ونهض إلى الرسول يصافحه متهللا ، وقد زال ما كان يجد من مهانة الرفض .

وخرج مسرعا ليزف إلى ابنته وإلى أبى بكر وعثمان وإلى المدينة كلها بشرى الخطبة المباركة " [١١٢] .

هذا الموقف العظيم الجليل يجلو ويضئ جانبا من جوانب شخصية رسول الله ، رأى صاحبه حزينا ، وعرف سبب حزنه ، وبيده أن يبدد هذا الحزن ، ففعل بدون أدنى تفكير أو تردد ، والناس فى العادة لا يتزوجون جبرا لخواطر أصحابهم أو تعزية وتسلية لهم ، ولكن النبى كان يفعل ذلك وأكثر من ذلك ، جبرا لخاطر صاحبه ومحوا لمرارة وأسى الرفض الذى جوبه به من صاحبيه الصديق وعثمان وأكثر زيجاته لم يخرجن عن هذا المبدأ ، الزواج عنده تعزية ومواساة وتضميد جرح وجبر خاطر وكفالة وتقوية آصرة وتجميع قلوب وتعضيد للإسلام والمسلمين ، وقلبه وفكره لا يغفل عن القريب أو البعيد ، " وتزوج رملة بنت أبى سفيان ((أم حبيبة)) وكانت قد أسلمت مع زوجها عبد بن جحش وهاجرت معه إلى الحبشة، وهناك تنصر زوجها ، وبقيت هى على الإسلام ، ففقدت زوجها ، وعلم رسول الله ﷺ فأرسل إليها يخطبها لنفسه وتزوجها ، وقد أصدقها النجاشى عنه أربعمائة دينار

١١٢- المصدر السابق – صفحة (١٢١)

وحملت إلى المدينة فوجدت بيت رسول الله مفتوحا لها بعد أن فقدت أهلها وبيت زوجها "[١١٣] .

شخصية إنسانية في غاية الرقي والسمو . يبذل من ذات نفسه . وفي كل حركة وكل خلجة وكل نفس يتنفسه هناك خاطر لا يغيب عن باله . الإسلام والمسلمين . وقصص زواجه كلها تدل دلالة واضحة على أنه كان هناك هدف بعيد وأكبر وأعلى وأرقى وأسمى من معنى الزواج فقط " وهنا نرى أن تعدد زوجات النبي – ﷺ – كان في بعضه إنسانيا . كزواجه بنساء فقدن أزواجهن ومعيلهن فضمهن إليه وكان في بعضه الآخر وفاء بحق صاحبين جليلين وهما أبو بكر وعمر وفي بعضه كان تعزيزا لحكم قرآني كزواجه بزينب بنت جحش "[١١٤] .

إذن لم يكن يربط النبي ونساءه رباط الزوجية فحسب – وهو رباط مقدس – بل كانت هناك روابط أخرى . وكان النبي يقدم تلك الأواصر والروابط على رباط الزوجية . وكان أصحابه – رضوان الله عليهم – يعرفون هذا ويقدرونه تقديرا عظيما . وقد أدرك عمر هذا الأمر . فقد حذر ((حفصة)) ذات مرة من أن تساير ((عائشة)) " وليس لها مثل حظها من حب الزوج ولا مكانتها من قلبه فقال لها : ((أين أنت من عائشة . وأين أبوك من أبيها ؟)) وإذ سمع يوما من زوجه أن ابنته حفصة تراجع الرسول حتى يظل يومه غضبان انطلق من فوره حتى دخل عليها فسألها إن كان ما سمعه حقا ؟ فلما أجابت بأنه حق صاح يزجرها : – تعلمين أني أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله . يا بنية لا يغرنك هذه التي أعجبها حسنها وحب رسول الله ﷺ لها . والله لقد علمت أن الرسول لا يحبك . ولولا أنا لطلقك "[١١٥] لولا أنا لطلقك .

١١٣- الزواج عند العرب في الجاهلية والإسلام دراسة مقارنة د. عبد السلام الترمانيني – عالم المعرفة العدد (٨٠) عام ١٩٨٤ صفحة (٢٥٦)
١١٤- المصدر السابق – صفحة (٢٥٧)
١١٥- نساء النبي – د. عائشة عبد الرحمن – صفحة (١٣٦)

إذن هناك علاقات وأواصر ووشائج أخرى كانت تربط النبى بنسائه يعرف ذلك النبى ... يعرف ذلك الصحابة ... يعرف ذلك زوجات الرسول . فكان لهن دالة ومنزلة وحظوة عن النبى . وكانت أكثرهن ((عائشة)) و((حفصة)) لمكانة ومنزلة والديهما من رسول الله ﷺ .

ولا نستطيع أن نحصر الحكمة فى زواج الرسول من نسائه . فكل زوجة تزوجها الرسول تجلو وتوضح خط أو جانب من جوانب شخصيته العظيمة . وهو الجانب الإنسانى البحت ورحمته بالمرأة وعطفه عليها . تلك العاطفة المنزهة عن أى غرض آخر . فلم يكن يضع فى اعتباره أى مصلحة سياسية . لأن أى زواج قائم على مصلحة ما يستنفد أغراضه بانتهاء وبانقضاء تلك المصلحة . ولم يكن النبى فى حاجة إلى تأليف القبائل تحت أى مسمى أو مبدأ غير مسمى ومبدأ العقيدة الدينية " وقد علل بعض الباحثين المتأخرين زواج النبى ﷺ بأنه كان لمصلحة سياسية . أراد بها تأليف القبائل التى ينتمى إليها أولئك النساء . ونحن لا نرى ذلك . فالنساء اللاتى تزوجهن النبى منهن من عقد عليهن وتزوجهن . ومنهم من عقد عليهن ولم يتزوجهن وفارقهن . ومنهن من لم يجتمع بهن . فاللواتي عقد عليهن وتزوجهن منهن قرشيات من بنات أصحابه أو ممن مات أزواجهن . فكان زواجه توثيقا لمودة أصحابه . ومواساة لمن فقدن المعيل ومنهن من كان أهلهن من المشركين وكان يمتنع عليهن العودة إليهم كرملة بنت أبى سفيان . ومنهن نساء سبين فى قتال وكن زوجات لرؤساء فى أقوامهن وقد اصطفاهن الرسول لنفسه لكى لا يقعن فى قسمة من لا يحسن صحبتهن . ثم حررهن وتزوجهن . وليس فى زواجه من بنات صاحبته أو أيمات قتل عنهن أزواجهن أو من نساء سبين بقانون الحرب ما يحقق أية مصلحة سياسية . فزواجه من رملة بنت أبى سفيان وأبوها مشرك لم يخمد سعير الحرب بين قريش وبين المسلمين . وزواجه من صفية بنت حيي أخطب زعيم يهود بنى قريظة . وزواجه من ريحانة بنت زيد بن عمرو زعيم

يهود بنى النضير ، لم يخمد حقد اليهود عليه وأثارة المشركين لحربه ، وهناك نساء من بنات الملوك عقد عليهن النبى ولم يتم الزواج بهن وفارقهن ، ولم يجتمع بهن . منهن فاطمة بنت الضحاك الكلابية ، وأسماء بنت النعمان الكندية ، وقتيلة بنت قيس بن معد يكرب الكندية ، ولو كان يريد تحقيق مصلحة سياسية لما فارقهن وفى اخبار السيرة النبوية ما يثبت أن الأسر الكبيرة والقبائل القوية المنعة كانت تطمع فى مصاهرته ، ولو شاء أن يتزوج منهن لكسب سياسى لفعل ، وقد أتاه الكسب السياسى من صدق الرسالة التى دعا الناس إليها وصحة العزيمة التى استطاع بها أن يحول مجتمعا من طور الجهالة إلى طور تتقدم به الأمم وينشر فيها الخير والأمن والسلام " [116] .

حينما كان ينتصر المسلمون على قبيلة من القبائل العربية أو حتى اليهودية ، كان الرسول يهدف إلى أن يستل هذا الإحساس بالدل والشعور بالانكسار والمهانة والضعة من صدور أفراد تلك القبائل ، لأن حروب الرسول لم يكن المقصد منها إيقاع الهزيمة بخصومه وإذلالهم ، ولكن حروبه كانت من أحل نشر العقيدة وإخضاع الجميع لشريعة الله عز وجل ، وأكثر ما تكون القبائل دلا ومهانة حينما ترى نسائها يرسفن فى أغلال الرق والعبودية ، لا سيما بنت زعيم أو شيخ القبيلة ، وربما الذل والمهانة التى تشعر بها القبيلة تباعد بينها وبين الإسلام والمسلمين ، فإذا تزوج النبى من ابنة زعيم تلك القبيلة بعد هزيمتها ، فبدلا من أن تعيش طوال عمرها فى ذل الرق والعبودية تصبح معززة مكرمة ، لأنها زوجة رسول الله ، فهذا من شأنه أن يجعل تلك القبيلة وأفرادها يشعرون بالامتنان والمعروف وسوف يفعل بقية المسلمين ما فعله رسولهم ، وهذا ما حدث بعد أن تزوج الرسول ابنة زعيم قبيلة بنى المصطلق . " والسيدة جورية بنت الحارث سيد قومه ، كانت

١١٦- الزواج عند العرب فى الجاهلية والإسلام - د. عبد السلام الترمانيني - عالم المعرفة - العدد (٨٠) - ١٩٨٤ - صفحة (١٩٠ ـ ١٩١)

بين السبايا فى غزوة بنى المصطلق ، فأكرمها النبى ﷺ أن تذل ذلة السباء فتزوجها وأعتقها وحض المسلمين على إعتاق سبياهم . فأسلموا جميعا وحسن إسلامهم وخيرها أبوها بين العودة والبقاء عند رسول الله . فاختارت البقاء فى حرم رسول الله " [117]

إنه لا يحارب لإحراز نصر ، أو كسر شوكة خصم ، أو إذلال عدو ، أو لكسب غنم أو تحقيق مجد وشهرة . إنه يريد أن يشعر خصومه وأعدائه أن عزتهم فى الإسلام ، وهو لا يطالبهم بأن يخضعوا أو يذلوا له . وإنما الخضوع كل الخضوع والإذلال كل الإذلال لله الواحد القهار ، وما ظنك بقائد لا يطلب من خصومه وأعدائه الاعتراف بقوته والخضوع لسطوته والانضواء تحت سلطانه ، وإنما يكونوا مثله وهو مثلهم عبيدا وإدلاء لله .

وقد يثور سؤال هنا ، لماذا لم يعرض الرسول أولئك النسوة على قواده وأصحابه بدلا من أن يتزوجهن ؟

ألم يكن الأولى بالرسول فعل ذلك بدلا من أن يستأثرهن لنفسه ؟ .

مجرد أن يعرض الرسول المرأة على أحد من قواده أو أصحابه هذه تعد إهانة محققة للمرأة ، وإقرار بعبوديتها وصك بإذلالها وإهانتها .

ذلك لأن المعروض عليه قد يقبل وقد يرفض ، وفى قبوله قد يكون على مضض ، لأنه قد يرى فى عرض الرسول أمرا لا ينبغى أن يخالفه ، وفى الرفض تاكيد لمشاعر الذل والمهانة

ثم أن من النساء اللاتى تزوجهن الرسول لم تكن مرغوبة من الرجال وليست مطمحا لهم

" وقد كانت كل سيدة من أمهات المؤمنين تأوى إلى البيت الطاهر ، فإنما تأوى إليه اعتصاما من الارتداد والوقوع فى أيدى الحاقدين عليها من ذويها

١١٧- المرأة فى القرآن – عباس محمود العقاد – صفحة (٩٢)

أو تأوي إليه لإكرامها عن منزلة دون منزلتها أو عن عرضها على من يضارع أهلها ممن لا يرغبون فيها . وكان فيهن النصف والعاقر ، ومن لا مال لها غير التأيم أو العرض المستكره على أشراف القوم من أندادها ، ولا يخلو ذلك العرض من غضاضة عليها ، لما يساورها من الظن بقبوله حياء من النبي وطاعة لأمره . وليس لإيثار النبي البناء بالسيدة على عرضها للزواج بين أصحابه غير سبب واحد يعقله المنصف والمكابر ، لأنه لا يقبل الفهم المعقول على وجه آخر : وذلك هو جبر الخاطر والبر بالمرأة المؤمنة أن ينتهي بها إيمانها إلى الحطة والهوان . ويكفي أن تسرد أسماؤهن وتذكر أحوالهن عند بناء النبي بهن لتنقطع الظنة في أسباب كل زواج سهلته الخصوصية النبوية .

ولم يحدث قط أن اختار زوجة واحدة لأنها مليحة أو وسيمة ولم يبن بعذراء قط إلا العذراء التي علم قومه جميعا أنه اختارها لأنها بنت صديقه وصفيه وخليفته من بعده : أبي بكر الصديق رضي الله عنه وما بنى - ﷺ - بواحدة من أمهات المسلمين لما وصفت به عنده من جمال ونضارة ، وإنما كانت صلة الرحم والضن بهن على المهانة هي الباعث الأكبر في نفسه الشريفة على التفكير في الزواج بهن ومعظمهن كن أرامل مؤمنات فقدن الأزواج أو الأولياء وليس من يتقدم لخطبتهن من الأكفاء لهن إن لم يفكر فيهن رسول الله " [118]

- **بيت رسول الله:**

كان من الممكن أن يكون بيت رسول الله كميدان المعركة ، تحتدم فيه ألوان من الغيرة ، وتشب فيه الأحقاد والتحاسد والتدابر ، وينشب الخصام ويسود التباغض ؛ لأن بيته المطهر قد ضم ألوان شتى من النساء ، مختلفات في كل شيء لا يوجد أدنى تشابه بينهن لا في السن ولا في الثقافة ولا في الظروف التي نشأن وتربين فيها ، ولا في الحالة التي أوجبت على الرسول أن يتزوجهن " تزوج سودة

١١٨- المصدر السابق - صفحة (٩١)

بنت زمعة القرشية وكانت من قبل زوجة للسكران بن عمرو بن عمرو بن عبد شمس القرشي ، فأسلما معا وهاجرا إلى الحبشة . ثم عادا إلى مكة وتوفى السكران ولا مأوى لها بعد موته إلا أن تعود إلى أهلها وكانوا مشركين فيردونها عن الإسلام ويروجونها من كافر مشرك ، فخطبها رسول الله ﷺ وتزوجها وحفظ لذلك عليها دينها ، وكانت قاربت الستين من العمر.

ثم تزوج زينب بنت خزيمة بن الحارث الهلالية وكانت زوجة لعبيدة بن الحارث بن المطلب . وأسلمت مع زوجها الذى استشهد فى وقعة بدر وظلت وحيدة بعدة فتزوجها الرسول ﷺ ولم تلبث عند سوى ثمانية أشهر وتوفيت .

وتزوج حفصة بنت عمر بن الخطاب . وكانت زوجة لخنيس بن حذافة السهمى ، وأسلمت معه فى مكة ، واستشهد فى وقعة بدر . فخطبها الرسول من أبيها ، وتزوجها ليربط بينه وبين أبيها برابطة المصاهرة كما ربط بزواجه من عائشة بينه وبين أبى بكر.

وتزوج هندا بنت أبى أمية من المغيرة المخزومى ، المعروفة بأم سلمة وكانت زوحة عبد الله بن عبد الأسد المخزومى . فأسلما معا وهاحرا إلى الحبشة ثم عادا إلى مكة . وهاجرا إلى المدينة ، وفى موقعة بدر قتل زوجها فتزوجها النبى ﷺ ، وقد روى عنها كثير من الأحاديث .

وتزوج زينب بنت جحش بن رئاب الأسدية ، وهى بنت عمته أمية بنت عبد المطلب . وكان النبى ﷺ قد زوج زينب لزيد بن حارثة الذى كان قد تبناه وقد أراد النبى بذلك تثبيت مبدأ المساواة بين الأشراف والموالى . وكان ذلك ممتنعا قبل الإسلام . فزينب من طبقة الإشراف وزيد من طبقة الموالى وبعد أن تم الزواج بقى شئ من إحساس الجاهلية وكان زيد مرهف الحس . فأحس بتعالى زينب عليه . فشكا ذلك لرسول الله ﷺ وذكر له رغبته فى طلاقها . فأخذ الرسول يدعوه أن يمسك عليه زوجته وأن يتقى الله فلا يطلقها . ولما لم يستقم الحال بين الزوجين

طلق زيد زينب ، وأوحى الله لرسوله أن يتزوجها بعد طلاقها ليتأيد بذلك مبدأ إلغاء التبنى الذى أبطله الإسلام ، ويصح لمن تبنى رجلا أن يتزوج مطلقته بعد أن كان ذلك ممتنعا ، وبهذا نزل النص القرآنى فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ الأحزاب: ٣٧

وتزوج بعد ذلك جويرية بنت الحارث ، سيد بنى المصطلق فقد سباها المسلمون فى جملة من سبوا بعد تغلبهم على بنى المصطلق وكان أبوها وزوجها قد قتلا فى الموقعة ، وقد وقعت فى سهم ثابت بن قيس بن شماس وابن عم له فكاتباها على مال تؤديه إليهما فتعتق ، فجاءت إلى رسول الله ﷺ تطلب منه العون ، ووجد الرسول الفرصة سانحة لتخفيف الأسى عن بنى المصطلق ، فعرض عليها أن يؤدى عنها ما طلب منها ويتزوجها فوافقت وتزوجها الرسول ، وقد أعتق المسلمون سباياهم من بنى المصطلق إكراما لهذا الزواج .

وتزوج صفية بنت حيي بن أخطب سيد بنى النضير اليهودى فقد كانت صفية زوجة كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق من زعماء اليهود ، وقتل عنها فى غزوة خيبر ، فاصطفاها النبى ﷺ لنفسه وخيرها بين أن يردها إلى أهلها أو يعتقها ويتزوجها ، ولم تكن جميلة بل كانت قصيرة ، وقد عيرتها عائشة وحفصة مرة ، وقالتا : نحن أكرم على رسول الله منك ، فذكرت صفية ذلك لرسول الله فقال لها : ألا قلت وكيف تكونان أكرم منى وزوجى محمد وأبى هارون وعمى موسى ؟ فاقصرتا عن تعييرها بعد ذلك ، وفيها نزلت آية الحجرات ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا

مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ الحجرات: ١١

وتزوج رملة بني أبى سفيان (أم حبيبة) وكانت قد أسلمت مع زوجها عبد بن جحش وهاجرت معه إلى الحبشة ، وهناك تنصر زوجها وبقيت هي على الإسلام . ففقدت أهلها وعلم رسول الله فأرسل إليها يخطبها لنفسه وتزوجها وقد أصدقها النجاشي عنه أربعمائة دينار وحملت إلى المدينة فوجدت بيت رسول الله مفتوحا بعد أن فقدت أهلها وبيت زوجها .

وتزوج ريحانة بنت زيد بن عمرو بن خناقة ، من يهود بني النضير وكانت قد سبيت حين غزاهم النبى ﷺ ، فأسلمت وأعتقها الرسول وتزوجها .

وتزوج ميمونة بين الحارث الهلالية ، وكانت من قبل عند حويطب بن عبد العزى بن أبي قيس ، فمات عنها ، فوهبت نفسها للنبى فتزوجها ، وفيها نزلت آية ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ الأحزاب: ٥٠ "[١١٩].

كيف أمكن لرسول الله أن يتعامل مع هؤلاء المختلفات فى كل شئ ؟!

وكيف أمكنه أن يرضيهن ؟!

الذى أمكنه أن يحكم الجزيرة كلها ، وأن ينشر عقيدة من أعظم العقائد التي عرفتها الإنسانية فى معاقل الوثنية والكفر ،ويسوس جبابرة ودهاة وعباقرة من الرجال ، أيعجزه أن يتعامل مع حفنة من النساء ؟!

١١٩- الزواج عند العرب فى الجاهلية والسلام - د . عبد السلام الترمانيني - صفحة (٢٥٢) وما بعدها

منطقيا لا يعجزه هذا الأمر. فقد أدار بكل كفاءة ومهارة - لم تحدث من قبل في التاريخ الإنساني كله - أمر أمة كانت بدرة لإمبراطورية واسعة متراميه تضاءلت بل انهارت دونها إمبراطوريات ذلك الزمان .

ولكن لا ينبغي أن يغيب عن بالنا أن شخصية الإنسان خارج بيته غير شخصيته داخل بيته ، ولا أقصد أن الشخصية تتغير ، ولكن دورها هو الذي يختلف فدور الرسول خارج بيته معروف .

أما دوره داخل بيته فهو أمر يتعلق بشحن شخصية رسول الله . فمن الصعب - بل من المحال - أن يتحمل رسول الله أعباء النبوة والرسالة ومشاقها ويكون أيضا داخل [illegible]ته ناهضا بهذا العبء الثقيل ، وإنما - من الطبيعي - سيكون داخل البيت متحررا من تلك الأعباء والمسئوليات وينعم سويعات بالراحة والاسترخاء والحياة الهادئة الوادعة بين زوجاته . أما ماذا كان يفعل داخل بيته ؟ (كان يرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويحلب شاته ويكون في خدمة أهله) ، النبي في بيته يمارس حياته الطبيعية ، وكان نادرا ما يحمل أو يشرك زوجاته في أعباء الرسالة ، إذا نهضت بعض أزواجه ، بجانب من عبء الرسالة فهذا تطوع منها وكانت تتولى توضيح الجانب الخاص بالمرأة الذي يستحين النساء أن يسألن فيه رسول الله ، أو يستحي الرسول أن يوضحه لهن " أن الروحة منهن كانت تدخل البيت النبوي معتزة بشرف الزواج من النبي المصطفى ، ثم ما تكاد تلقى من في البيت من أزواج يشاركنها في رجلها ، حتى ترى فيه ﷺ - الزوج قبل الرسول ومن هنا كانت المغاضبة والمنافسة ، والغيرة التي تحتدم أحيانا حتى تجاوز المدى وما يكون شيء من هذا في حياة نساء يرين في زوجهن نبيا فحسب !

وحياة محمد - ﷺ - في بيته ، تبدو رائعة في بشريتها ، فقد كان يؤثر أن يعيش في بيته رجلا ذا قلب وعاطفة ووجدان ، ولم يحاول إلا في حالات الضرورة القصوى أن يُفرض على نسائه شخصية النبي لا غير ، ونحن اليوم نقرأ ما

obeikandl.com

وعى التاريخ من مرويات عن تلك الحياة الزوجية ، فيبهرنا ما فيها من حيوية فياضة لا تعرف العقم الوجداني ولا الجمود العاطفي إذ كان ﷺ سوى الفطرة فأتاح بذلك لنسائه أن يملأن دنياه الخاصة حرارة وانفعالا وينحين عنها كل ظلال الركود والفتور والجفاف " [١٢٠] .

لذلك شعر أزواج النبي أن من يعيش بينهن فى البيت لم يكلفهن ولم يشق عليهن أن يطالبهن أن يعاملهن أو يتعاملن معه كنبى وإنما هو زوج ، وليس كأي زوج .

فما يميز شخصية محمد أنه يحب المرأة حبا فطريا صافيا خالصا ، وهذا راجع إلى سواء فى فطرته ، وأن المشاعر والأحاسيس والعواطف فى كيانه لم يشوبها انحراف أو نقص أو طمس أو تشويه . وقد رقى وسما هذا الحب الفطرى بارتقاء وسمو شخصيته . أضف إلى ذلك عقيدته ﷺ قد وفت المرأة حقها كما لم توفه أى عقيدة أخرى ، وجميع أقوال النبى فى المرأة ووصاياه تثبت أن حب الرسول للمرأة حبا لا مثيل له ، حب ممزوج بالاحترام والتقدير والإكرام والعطف والحنان والمودة والإعزاز والرأفة والرحمة . هذا الأمر لا يتكلفه الرسول ، وإنما هو أمر فطرى فى شخصيته ، وخاصية أصيلة من خواص شخصيته الإنسانية .
"فالحق أن محمدا ﷺ لم يفرض على نفسه الشريفة محاسنة المرأة كما تفرض الأوامر السماوية على من يطيعها ولا مسرة له فى طاعتها . ولكنه حاسنها فطرة كما حاسن كل مخلوق حي ولا سيما الضعفاء وجعل البر بها مقياس المفاضلة بين أخلاق الرجال وعنوان المنافسة في طلب الخير والكمال ، فقال غير مرة : ((خيركم خيركم للنساء)) وبلغ من ذلك أنه يأوى إلى البيت ((فيكون فى مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة)) وأنه استحب خدمة الزوجة فى منزلها فقال : ((خدمتك زوجتك صدقة)) وكان أكيس رجل فى معاملة أهل بيته ، يشفق أن

١٢٠- نساء النبي – د . عائشة عبد الرحمن – صفحة (٢٢)

يرينه غير باسم في وجوههن ويزورهن جميعا فى الصباح والمساء . وإذا خلا بهن ((كان ألين الناس ضحاكا بساما)) كما قالت عائشة رضى الله عنها " [121].

لم يعامل النبى المرأة كامرأة ليؤصل فيها الإحساس بالضعف والمهانة والاحتياج والانكسار كما كان الوضع قبله.

ولم يعامل النبي المرأة كأنثى ليبث فيها الشعور بالضعة والاحتقار كما كان الوضع قبله . ولكنه كان يعاملها كإنسانة لها كافة الحقوق ، كمخلوق له ذاتيته وكيانه المستقل . لذلك لم تكن نبوة محمد فاصلا بينه وبين نسائه ؛ لأن نبوته أصلت وأكدت إنسانيته وأن يتعامل مع من حوله من منطلق إنسانى بحت . " لم يجعل من هيبة النبوة سدا رادعا بينه وبين نسائه . بل آنساهن برفقه وإيناسه أنهن يخاطبن رسول الله في بعض الأحيان . فكانت منهن من تقول أمام أبيها : ((تكلم ولا تقل إلا حقا)) ومن تراجعه أو تغاضبه سحابة نهارها . ومن تبلغ فى الاجتراء عليه ما يسمع به رجل كعمر بن الخطاب فى شدته فيعجب له ويهم بأن يبطش بابنته حفصة لأنها تجترئ كما تجترئ الزوجات الأخريات .وإذا رأى النبى غضبا كهذا من جرأة كتلك كف من غضب الأب وقال : ((ما لهذا دعوناك !)) وكان يتولى خدمة البيت معهن . أو كما قال ((خدمتك زوجتك صدقة)) . فحب المرأة لا معابة فيه .

هذا هو سواء الفطرة لا مراء .

وإنما المعابة أن يطغى هذا الحب حتى يخرج عن سوائه . وحتى يشغل المرء عن غرضه وحتى يكلفه شططا فى طلابه . فهو عند ذلك مسخ للفطرة المستقيمة يعاب كما يعاب الجور فى جميع الطباع " [122]

١٢١- الصديقة بنت الصديق – عباس محمود العقاد – صفحة (١٨)
١٢٢- عبقرية محمد – عباس محمود العقاد – صفحة (١١٩)

olibrary.com

أبدا لم تشغل النبوة محمدا عن واجبه كإنسان ، وأبدا لم تصرفه عن دوره كزوج ، وأبدا لم تستحوذ عليه وتمنعه أن يتصرف كرجل فى بيته ، ولم تهيمن عليه لتكون فاصلا بينه وبين أزواجه " وإنها ترينا النبي فى بيته ، فترينا الرجل الذى ارتفع بالنبوة إلى عليا مراتب الإنسانية ، ولكنه مع هذا هو الرجل فى بيته ، كما يكون الرجال بين النساء على سنة الفطرة المعهودة من آدم وحواء "[١٢٣] .

لذلك فنساء النبي – رضوان الله عليهن – لم يغفلن أنهن يعشن ويعاشرن نبيا ، ولكن النبوة التي فهمنها وعرفنها من النبى نفسه أن خلاصتها رأفة وعفو وغفران وحب وعطف ومودة وتسامح ، وهذا طمعهن وجرأهن أن يتعاملن مع النبى بكل تلقائية وحرية لدرجة أن الصاحبي الجليل (عمر بن الخطاب) تعجب بل فزع وارتاع حينما سمع بمراجعة زوجاته له . وهذه خصيصة من خصائص شخصية النبى . أنه لم يكن يحب أن يقيم الناس بينه وبينهم أسوارا من الهيبة والخشية أو يضعوا مسافات من الخوف والإجلال ، وإنما كان يريد أن يشعر أنه بين أصحابه والمسلمين كواحد منهم ، له ما لهم وعليه ما عليهم ، النبى لم يستمتع بامتيازات النبوة – وللنبوة امتيازات لا شك – وإذا كان هذا أسلوبه وطريقته خارج بيته ، فإنه كان أشد حرصا أن يكون هكذا داخل بيته .

ولنبل شخصيته وكرم أخلاقه ولشدة حيائه ، ترك للآخرين أن يلتزموا بتلك الخطوط الفاصلة فى التعامل معه كنبي ، إن شاءوا وقفوا عندها ولم يتجاوزوها ، وإن شاءوا تعدوا تلك الخطوط ، وفى تعديهم لم يكن الرسول يغضب أو يثور ؛ لأنه لم يكن يغضب أو يثور لشيء يمس شخصه الكريم ، فرحمته ورأفته كانتا تهيمنان على ثورته وغضبه . فكثيرا ما تلقى إهانات وتجاوزات وتعديات بالنسبة لشخصه ممن حوله ، وكان الصحابة المقربون يثورون ويغضبون ويستأذنونه أن يردوا الإهانة ويعاقبون على التجاوزات ، ولكنه كان عالما بمواطن

١٢٣- الصديقة بنت الصديق – عباس محمود العقاد – صفحة (٢٣)

الضعف الإنسانى . فكان يرفض ردّ الإهانة أو العقاب على التجاوز . ويظل مع هذا المهيمن والمتجاوز ، حتى يجعل من أمامه يثوب إلى رشده . ويعرفه أن النبوة تسامح وعفو وغفران .

وما قلنا إن النبى لم يكلف نساءه شيئا من أعباء النبوة والرسالة . وإنما سمح لهن ، بل شجعهن أن يمارسن حياتهن فى بيته كما خلقهن الله . بكل ما فى نفوسهن من نوازع وعواطف ومشاعر . وتلك آية من آيات كمال البشرية فى الرسول . أن يشجع الأخريات أن يصلن ببشريتهن إلى تمامها وكمالها ، وأن لا يكبتن أو يطمسن ملمحا من ملامح تلك البشرية . وأن يعبرن عن كل تلك المشاعر والأحاسيس ولكن مع ما يتفق وكرامة الإنسان .

لذلك كان أزواجه يمارسن ويعبرن عن مشاعرهن وعواطفهن بكل ـ ـة وتلقائية بدون حرج أو تعنت . ويفعلن ويقلن ما يشأن . فمن كانت تغار على النبى كانت تعلن عن ذلك وتأتى أفعالها وتصرفاتها – وقد تتجاوز الحدود – معبرة عن ذلك . ومن كانت تبرم بعيشتها وضيق النفقة كانت تعبر عن ذلك . ومن كانت ترى أن الرسول يجامل إحدى نسائه عن الأخريات كانت تعبر عن ذلك . وتشكو وتحرص أن تصل الشكوى إلى الرسول . حتى أنهن حينما شعرن بميل الرسول إلى السيدة ((عائشة)) أكثر من غيرها " انتهى بهن الرأى إلى أن يلتمسن من السيدة ((فاطمة الزهراء)) مخاطبة أبيها ﷺ بالأمر . واستجابت رضي الله عنها فدخلت على أبيها وعائشة عنده فقالت : ((يا أبى ، إن نساءك أرسلننى إليك وهن ينشدنك العدل فى ابنة أبى بكر بن أبى قحافة)) .

سألها أبوها المصطفى : ((أى بنية ، أتحبيننى ؟)) .

فهتفت بملء إيمانها : بلى يا أبى .

قال : ((فأحبيبها)) .

obeikandi.com

وعادت الزهراء إلى أزواج أبيها فنقلت إليهن ما سمعت . فألححن عليها أن تعاود الحديث فى الموضوع ثانية . ولكنها أبت أن تكلم أباها عليه الصلاة والسلام فيما يكره .

واخترن من بينهن إحدى اثنتين . هما أحب نساء النبى إليه بعد عائشة : زينب بنت جحش . أم سلمة . فتحدثت إليه ﷺ فيما يشكو نساؤه . مرة ثانية وثالثة إلى أن قال : ((لا تؤذينى فى عائشة)) [١٢٤] .

أى امرأة وكل امرأة تتمنى فى قرارة نفسها أن يخلص لها زوجها لها إخلاصا تاما . ولا ترتضى بنصف زوج أو ربع زوج . فالمرأة تستطيع أن تقاوم الكثير من المشاعر والأحاسيس إلا الغيرة . فللغيرة سلطان على المرأة لا ينكر . وهى مهما حاولت أن تخفف من سيطرتها فهى واقعة لامحالة فى قبضتها . والمرأة لا تغير من ضرائرها فحسب . بل تغير حتى ولو لم يكن هناك ضرائر . ولن تعدم أن تجد للغيرة أسبابا ومبررات . وتشتد الغيرة إذا كان هناك ضرائر . وتغير بصفة خاصة ـن يقربنها فى جمالها أو حسنها أو نسبها . وتشتد الغيرة أكثر وأكثر إذا كان الزوج له مكانة ومنزلة . ومع أن الغيرة تسبب للمرأة الكثير من المعاناة والمشقة والألم . إلا أنه إحساس وشعور محبب عند المرأة ؛ لأنه يؤصل ويؤكد معنى الأنوثة لديها . وهي ليست على استعداد أن تتخلص منه . لأن معنى ذلك أن تتنازل عن عاطفة الحب وعن المحب وفوق ذلك إحساسها بأنها أنثى .

" إن الغيرة ثمرة الحب والأثرة والخوف . وهذه العناصر الثلاثة تثمر فى طبائع النساء ما ليست تثمره طبائع الرجال . فهؤلاء وهؤلاء يغارون . ولكن أحرى الـ ريقين بالزيادة من هو أحرى بالإشفاق وأخسر صفقة فى الضياع " [١٢٥] .

١٢٤- نسا' نتبي - د. عائشة عبد الرحمن - صفحة (١١٠)
١٢٥- هذه الشجرة - عباس محمود العقاد - صفحة (١٣٦)

وعلى المشقة والمعاناة التى كان نساء النبى يجدنها فى حب النبي ، لم يكن يؤثرن أى حياة عليها . فالمرأة منهن قد ترضى بربع زوج أو حتى بجزء ضئيل من هذا الزوج ، فهى واجدة فى هذا الجزء البسيط ما لم تجده فى العالم كله لو خيرت بين الاثنين " ولو خيرت نساء النبى بين حياتهن المشتركة فى بيت واحد ، لزوج واحد وحياة أخرى منفردة مستقلة فى غير ذلك البيت ، لما رضين عن حياتهن بديلا.

وكن مع ذلك مرهقات بهذه المشاركة ، تضنيهن الغيرة ويشقيهن ألا تنفرد كل منهن بقلب زوجها ، وقد شهد البيت المحمدى من غيرتهن ما يخيل إلينا معه أنها جعلت من هذا البيت ميدانا لمعارك نسوية لا تهدأ ولا تفتر ، وإن لم تر فيه الطبيعة سوى أثر لحيوية هؤلاء السيدات ، ومظهر تنافس على حب زوجهن والرغبة فى الاستئثار به والحظوة لديه "[١٢٦]

ولكن ما موقف النبى مما كن يفعلنه بينهن بعضهن وبعض ، وبينهن وبينه؟

هل كان يضيق ذرعا ، هل كان يتأفف ويتبرم ، وإذا كان يضيق لماذا لم يأخذ موقفا حازما من هذا الأمر ؟

لا نستطيع أن ننكر أن النبى كان يتململ من تلك السفاسف والهنات وكان يرى أن يتعالين زوجاته عنها ، أو يتحكمن إلى حد ما فى تلك العواطف والمشاعر ، أو يرشدنها ويوجهنها الوجهة السديدة ، ومع ذلك فقد كانت سعة صدره وحلمه وصبره ، كل هذا يتيح له أن يتغاضى ويعفو ويصفح كى تسير الأمور سيرتها المعتادة فى بيته وبين زوجاته ، "وما من شك فى أن المصطفى قد عانى من ذلك كثيرا ، لكنه راض نفسه على احتماله ، تقديرا للدوافع الطبيعية التى كانت تدفع إليه قسرا ودون اختيار ، وما تزال الإنسانية تصغى حتى اليوم ، وغد وبعده ، إلى

١٢٦- نساء النبى – د . عائشة عبد الرحمن – صفحة (٢٦)

كلمته فى زوجته ((عائشة)) حين لجت بها غيرتها الجامحة : ((ويحها لو استطاعت ما فعلت !)) .

وترى فيها آية على سلامة الفطرة وصحة النفس ، وعمق الفهم لطبيعة حواء ، وقد كانت نساؤه يعرفن هذا فى زوجهن الرسول ، ويلذن به كلما أخرجتهن طبيعة حواء عما ينبغى لنساء النبى من مسالمة ووئام ، ويدركن أن الغيرة مهما تجمح بهن ، فمثل رسول الله من يعذر ، ويقدر ويرحم ، دون أن يرى فى ضعف البشرية إثما لا يغتفر ، أو يجد فى فطرة حواء ما يدعو إلى الإنكار "[١٢٧]

وما ضر الرسول أن يعيش سويعات ينعم فيها بتلك المشاعر والأحاسيس المتأججة فى صدور نسائه ، وهن يمارسن دورهن الطبيعى بكل أريحية ، ويرقبهن ويتابعهن ويسددهن إلى ما يجب أن تفعله المرأة المسلمة فى بيتها ، وما يجب أن تتخلق به ، وما الأسلوب والطريقة التى يجب أن تتعامل بها مع زوجها ، فهن أمهات المؤمنين وتثوب المسلمات إليهن ليتعلمن منهن الكثير والكثير ، وأن يجتمع هذا العدد من النساء بكل ما بينهن من خلافات واختلافات تحت الرسول والجميع يتسابقن فى إرضائه بكل وسيلة محاولات جذب نظرته واهتمامه ، وفى نفس الوقت كل منهن تحاول أن تصرف نظره واهتمامه عن قريناتها ، هذا – ولابد – من شأنه أن يخلق مشاكل وأزمات فى بيت الرسول ، " وفيما عدا تلك الحالات القليلة التى اضطر فيها إلى أخذ نسائه بالشدة لم يكره ﷺ أن يقف فى ساعات فراغه من معركته الكبرى ضد الوثنية وضد اليهود أعداء الإسلام وأعداء البشر ليرقب تلك المعركة الصغيرة بين نسائه يشعلها حبهن له وغيرتهن عليه ولعله كان مما يرضى الرجل فيه أن يغار مثلهن على مثله ، وأن تتنافس أزواجه على الظفر بحبه ورضاه إلى حد ينسين معه أحيانا أنه ليس كغيره من الأزواج ، وما حاول – ﷺ – أن يروضهن على قهر غريزة الأنثى فيهن ، ولا كان بحيث يطيب

١٢٧- المصدر السابق – صفحة (٢٦)

له أن تمسخ فطرتهن فيبرأن من نزازع حواء وأهوائها . ويتجردن من الغيرة والشوق واللهفة والرغبة فى الاستئثار بالزوج الحبيب . وما كان أحلمه ﷺ وأرق وجدانه وألطف مزاجه . حين سمع قصة ائتمار نسائه بعروس له أشفق من جمالها فأوصينها أن تستعيد بالله حين يدخل المصطفى عليها . استجلابا لمحبته ورضاه ففعلت وسرحها المصطفى قبل أن يدخل بها "[128] .

○ غضب النبي

وإذا حدث وغضب النبي . فهو غضب الغرض منه التأديب والتهذيب وإيصال رسالة إلى ما يليق بالزوجة المسلمة من ناحية . وبزوجة نبى من ناحية أخرى . وهذا كل ما كان يفعله مع زوجاته . لا سيما ((عائشة)) رضي الله عنها . صاحبة المواقف الحادة مع رسول الله . لأنها كانت أكثرهن حبا لرسول الله . وأصغرهن سنا . وأكثرهن دالة على رسول الله . لذلك فلمشاعرها وعواطفها فورة وثورة فى أحيانا كثيرة لا تستطيع التحكم فيها . " وكان غضب النبي من غيرتها غضب تأديب وتهذيب . لا غضب سخط وتأنيب . فكان يعذرها فيما يمسه . ولا يعذرها فيما ينبغى لها أن تتوخاه أو تتحراه . أو فيما يحسن بالمرأة التى أحبها هذا الحب أن تقلع عنه وتعرف موضع الملامة فيه .

فقلما لامها فى شيء يمسه من غيرتها . ولكنه كان لا يسكت مرة عن مؤاخذتها على فلتات هذه الغيرة التى تمس أناسا آخرين . فيؤاخذ مؤاخذة المؤدب الرفيق ولا يدع لها أن تعيد ماآخذها عليه .

عاتبت أمامه زوجته السيدة صفية . فذكرت من عيوبها أنها قصيرة . فكره أن تمضى فى حديثها وقال : يا عائشة ! لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته"[129] .

١٢٨- المصدر السابق – صفحة (٢٧) وما بعدها .
١٢٩- الصديقة بنت الصديق – عباس محمود العقاد – صفحة (٣٥)

هو يعلم أنّ حب ((عائشة)) له ليس كحب بقية نسائه ، لذلك فغيرتها ليست كغيرة بقية نسائه ، ولأن حبها له شديد يملأ قلبها والجوانح ، فإن غيرتها تأتى على قدر هذا الحب ، وقد تخرجها عن حالتها الطبيعية ، فتقول ما ليس لها بحق . فسنها الصغيرة مع قلة تجربتها ، مع طبيعتها المندفعة العصبية مع ثقتها فى حلم وسماحة وعفو الرسول ، كل هذا كان يهيئ لها مواقف قد لا ترضى الرسول لا سيما وإذا عاتبت شخصا له كل التقدير والاحترام والإجلال مثل السيدة ((خديجة)) رضي الله عنها ، فقد كانت ((عائشة)) تغير من مجرد ذكرى ((خديجة)) وهى لم تعد إلا ذكرى يحلو ويطيب لرسول الله أن يسترجع ذكريات تلك الأيام الجميلة مع تلك السيدة العظيمة . " وكان عليه السلام يبر بعض العجائز فسألته السيدة عائشة فى ذلك فقال : إن خديجة أوصتنى بها ... فقالت مغضبة :

- خديجة . خديجة ... فكأنما ليس فى الأرض امرأة إلا خديجة .

وعلى حلم رسول الله ربما غضب أحيانا من ثورتها على ذكرى خديجة فغضب فى هذه المرة وتركها فترة ثم عاد وأمها – أم رومان – عندها فقالت له أمها : يارسول الله مالك ولعائشة ؟! إنها حديثة السن وأنت أحق من يتجاوز عنها .

فلم يدعها حتى أخذ بشدقها معاتبا وهو يقول لها :

- ألست القائلة كأنما ليس على وجه الأرض امرأة إلا خديجة !

وسألته مرة : ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين قد بدلك الله خيرًا منها .

فأسكتها قائلا :

- ((والله ما أبدلنى خيرا منها . آمنت بى حين كذبنى الناس ، وواستنى بمالها حين حرمنى الناس ، ورزقت منها الولد وحرمته من غيرها " [١٣٠]

١٣٠- الصديقة بنت الصديق – عباس محمود العقاد – صفحة (٣١)

▫ المؤامرة النسائية الكبرى

كل هذا مفهوم ومبرر أن يصدر عن نساء النبى .

وكل هذا مشمول بسماحة وعطف وعفو الرسول على نسائه .

وأن يصدر من واحدة أو اثنتين أو ثلاثة .

وأن يصدر منهن بين الأونة والأخرى .

ولكن ما ليس مفهوما ولا مبررا أن يجتمع نساء النبى على أمر جامع ويتخذن موقفا واحدا ويتظاهرن عليه ، ويكون بينهن ترتيبات وتعهدات وتوصيات الغرض منها إحراجه أو دفعه لاتخاذ قرارات قد يلام من أجلها ، وأن تقود واحدة أو اثنتان حركة في بيت النبي والباقيات يسرن ورائها ، وبذلك لم يعد البيت يمثل السكن الذى يبتغيه النبى ولم تعد أزواجه ملاذ الأمن والراحة والاستقرار " ومد لهن فى لجاج الغيرة بهن هذا الرفق الذى كان محمد يعاملهن به ، وهذه المكانة التى رفعهن إليها ، ومحمد ليس خليا فيشغل وقته بهذا اللجاج ويدع نفسه لعبث نسائه ، فلابد من درس فيه حزم وفيه صرامة يرد الأمور بين أزواجه إلى نصابها ، ويدع له طمأنينة التفكير فيما فرض الله عليه من الدعوة إلى رسالته ، وليكن هذا الدرس هجرهن والتهديد بفراقهن ، فإن ثبن إلى رشدهن فذاك وإلا متعهن وسرحن سراحا جميلا " [١٣١] .

عاصفة فى بيت الرسول .

ما حدث فى بيت الرسول ، وما صدر من أزواجه يحدث مثله وأكثر فى أغلب البيوتات ، ويصدر مثله وأكثر من أغلب الزوجات ، وأهمية وخطورة الموضوع ليس لمجرد حدوثه ، ولكن لأنه حدث فى بيت النبي ، وصدر من أزواج النبي ، وبيت النبي يعتبر البيت الذى يثوب المسلمون كلهم إليه ، يستلهمون منه الحل لكل مشاكلهم ، والخروج من كل مآزقهم ، ويعتبرون زوجات النبي أمهاتهم تربطهم

١٣١- حياة محمد – د . محمد حسين هيكل – صفحة (٣٥٧)

وإياهن أواصر الحب والمودة والإعزاز والإجلال والإكرام .. من هنا يأتى حرص وخوف واهتمام المسلمين ببيت النبى ؛ لأنه يضم بين جدرانه أعز وأحب من لديهم الرسول وأزواجه . وليس كما قيل أن المسلمين خشوا على أواصر المصاهرة والنسب التى تربط النبى ببعض القبائل العربية ، وأن تطليق النبى أزواجه تصديع وقطع وتمزيق لتلك الأواصر والوشائج ، فما حدث كان يمس المسلمين فى أشياء عزيزة على قلوبهم ، فما حدث كان له أبلغ الأثر فى حياة الجماعة الإسلامية كلها " حدث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : ((كنا تحدثنا أن غسان تنتعل النعال لغزونا ، فنزل صاحبى يوم ندبته ، فرجع عشاء ، فضرب بابى ضربا شديدا وقال : أثم هو ؟ ففزعت فخرجت إليه ، وقال : حدث أمر عظيم ! ... قلت : ما هو ؟ أجاءت غسان ؟ .. قال : لا ، بل أعظم منه وأطول ... طلق النبي صلى الله عليه وسلم نساءه ...))

أن تقتحم قبائل غسان المدينة ، وتتعرض المدينة للغزو والحرب وما فى هذا من ويلات للإسلام والمسلمين ، أعظم وأجل وأخطر منه أن يطلق النبى نساءه !!

ولكن من الذى فجر وحرك تلك العاصفة ، هل نفد صبر الرسول وضاق لما كان يتسع له صدره من قبل ؟ .

أم أن نساءه قد تجاوزن الحد ، وتعدين كل الخطوط التى رأى الرسول أنه يجب الالتزام بها ؟ .

أم أن الأمرين حدثا فى وقت واحد ، أن صبر الرسول - بالنسبة لأفعالهن - نفد ، وأن النساء تجاوزن وتعدين .

من أجل وأعظم المشاهد التى تجلى شخصية الرسول .

يضم المشهد داخل بيت الرسول : الرسول وحوله نسائه ، والصاحبين الجليلين أو الوزيرين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وكان قد أذن لهم بالدخول.

خارج بيت الرسول : يجلس المسلمون ينكتون الحصى ، ينتظرون وكلهم قلق وتوتر ، ولا يعرفون حقيقة ما يحدث داخل بيت الرسول ، وهناك أقوال متضاربة ، وأكثرها ترجيحا أن الرسول طلق نساءه أو بعضهن .

" ولما تألب ربات البيت يشكون ويلحفن في طلب المزيد من النفقة لبث النبي في داره مهموما بأمره ، وأقبل أبو بكر فوجد الناس جلوسا لا يؤذن لأحد منهم ، فدخل الدار ولحق به عمر بن الخطاب ، فوجد النبي واجما وحوله نساؤه فأحب أبو بكر أن يسرى عنه بكلمة يقولها وكأنه فطن لسر هذا الوجوم من النبي بين نسائه المجتمعات حوله فقال : ((يا رسول الله ! ... لو رأيت بنتي خارجة ... سألتني النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها ... ! فضحك النبي وقال : هن حولي ، كما ترى يسألنني النفقة ، فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها ، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها ، ويقولان : تسألن رسول الله ما ليس عنده ؟ فقلن : والله لا نسأل رسول الله شيئا أبدا ليس عنده "[١٣٢] .

أيمكن أن يكون هناك إنسان يصل بالنبل إلى تلك الدرجة ؟ .

أيمكن أن يكون هناك إنسان يرتفع بكرم الأخلاق إلى تلك المنزلة ؟ .

وكأن الرسول وضع حلا لكل المشاكل التي تحدث ويمكن أن تحدث في أي بيت ، وبين أي زوج وزوجته ، لا تشدد ولا تعسف ، وبكل هدوء وبمطلق الحرية والتخيير ... إما ... أو ..... وتنتهي المشكلة ، ويحل المأزق .. وتنفرج الأزمة . " هجر النبي نساءه شهرا ، يمهلهن أن يخترن بعد الروية بين البقاء على ما تيسر له ولهن من الرزق ، وبين الانصراف بمتعة الطلاق . وبدأ بالسيدة عائشة فقال : ((إني أريد أن أعرض عليك امرا أحب ألا تتعجلي فيه حتى تستشيري أبويك)) فسألته : ((وما هو يا رسول الله ؟)) فعرض عليها الخيرة مع سائر نسائه في أمرهن . فقالت : ((أفيك يا رسول الله استشر قومي ؟ بل اختار الله ورسوله والدار

١٣٢- المرأة في القرآن – عباس محمود العقاد – صفحة (٩٥) .

الأخرة)) وأجابت أمهات المؤمنين بما أجابت به السيدة عائشة . وانتهت هذه الأزمة المكربة بسلام ، وما استطاع صاحب الدار – وهو يومئذ أقدر رجل فى العالم المعمور – يحل أزمة داره بغير إحدى اثنتين أن يجمع النية على فراق نسائه أو يقنعن معه بما لديه من رزق كفاف "[١٣٣].

٥ كلمة إنصاف لنساء النبي :

ما طلبه نساء النبى من توسعة فى النفقة ليس فيه ما يستدعى الموقف الحاسم الذى وقفه الرسول منهن ، إلا إذا كان موقف الرسول هو رد على تصرفات كثيرة ومتعددة لنسائه ، وكان الرسول – كما رأينا – يتسامح ويعفو ويتغاضى فأراد الرسول أن يضع حدا لكل ما سبق من تصرفات وأفعال ، وما كان يتحمله النبى بالأمس قد لا يتحمله اليوم ، وما كان يتسامح ويتغاضى عنه فيما مضى قد لا يتسامح ويعفو عنه اليوم . " وما كان ﷺ فارغ البال لهذا العبث النسوى المسرف ، ولا كان يستطيع أن يرخى لعائشة وحفصة والباقيات أكثر مما فعل فاعتزلهن جميعا فى صرامة لم يألفنها ، وأعلن فى حزم أنه منقطع عنهن منصرف عن مؤامرتهن الصغيرة إلى شواغله الكبار "[١٣٤].

إذن الموقف الذى وقفه الرسول من نسائه كان عبارة عن كشف حساب إجمالى ، أو خط فاصل بين أمرين ، فقد أراد الرسول أن ينصهرن كلهن ويأتلفن ويتفقن فيما بينهن وينسجمن متخلقات بالخلق النبوى ، مستمتعات بما يشيع بين جدران هذا البيت الطاهر من نور ورحمة وحكمة وهدى ، وكان يترفق بهن لأنه يعلم أن هذا الأمر شاق على النفس مضنى لها ، وأن الأمر فى حاجة إلى سياسة ومعالجة حتى يأخذ بأيديهن إلى ما يرضى الله .

١٣٣- المصدر السابق – صفحة (٩٥)
١٣٤- نساء النبي – د. عائشة عبد الرحمن – (٩٩)

أو أن نساءه قد دخلن فى منطقة محظورة لا يجوز الدخول فيها وهو أسلوب وطريقة ونهج حياة الرسول .

ولكن منذ طلب نساء النبى التوسعة فى النفقة فى هذا الوقت بالذات وما السياق الذى تم فيه هذا الطلب . " جاء فى البحر : أنه لما نصر الله نبيه ، ورد عنه الأحزاب وفتح عليه النضير وقريظة ، ظن أزواجه أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم . فقعدن حوله وقلن : يارسول الله ، بنات كسرى وقيصر فى الحلى والحلل والإماء والحول ، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق ، وآلمن قلبه الشريف – عليه الصلاة والسلام – بمطالبتهن له بتوسعة الحال وأن يعاملهن بما تعامل به الملوك وأبناء الدنيا وأزواجهم " [135] .

إذن السياق الذى طلب من النبى التوسعة فى النفقة سياق طبيعى فهناك زيادة فى الغنائم التى غنمها المسلمون فى الغزوات التى انتصروا فيها وأقربها ما غنمه المسلمون من بنى قريظة ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أن ما طلبنه يتفق مع بشريتهن ومع طبيعة المرأة ، ومن ناحية ثالثة أن معيشة الرسول كانت معيشة كفافا " وحياته مع زوجاته نهج من الشظف لا يطيقه أحد . روى البخارى عن أنس بن مالك قال : ما أعلم النبي رأى رغيفا مرققا حتى لحق الله. ولا رأى شاة سميطا بعينه قط . وعن عائشة قالت : إن كنا لننظر إلى الهلال ، ثلاثة أهلة فى شهرين وما وقدت فى أبيات رسول الله ﷺ نارا.

فقال لها عروة بن الزبير : ما كان يعيشكم ؟ قالت السودان ... التمر والماء .

وقالت عائشة أيضا : ((لقد توفى رسول الله ﷺ وما فى رفي شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير فى رف لى)) .

١٣٥-التفسير الوسيط للقرآن الكريم - تأليف لجنة من علماء الأزهر الشريف- المجلد الثالث - صفحة (١٧٥)

أما الفراش الذي يأوي إليه هذا النبي ﷺ فهو أدم - جلد - حشوة ليف يثوى فيه قليلا . فما أن يستدفئ به حتى يسمع الصارخ - الديك - فينهض متأهبا لصلاة الفجر "[١٣٦] .

إذن الخير يفيض أمام أنظار وأسماع أزواج النبي ، ونساء المسلمين ينلن الكثير من هذا الخير ويستمتعن به ، ولا غضاضة في ذلك ، لأن هذا حق . فلم يحرم نساء النبي مما هو مباح وحق لبقية النساء ؟ " ولكن نساء النبي - ﷺ - كن نساء من البشر ، لهن مشاعر البشر . وعلى فضلهن وكرامتهن وقربهن من ينابيع النبوة الكريمة ، فإن الرغبة الطبيعية في المتاع ظلت حية في نفوسهن . فلما أن رأين السعة والرخاء بعدما أفاض الله على رسوله وعلى المؤمنين راجعن النبي - ﷺ - في أمر النفقة . فلم يستقبل هذه المراجعة بالترحيب ، إنما استقبلها بالأسى وعدم الرضى ؛ إذ كانت نفسه - ﷺ - ترغب في أن تعيش فيما اختاره لها من طلاقة وارتفاع ورضى ، متجردة من الانشغال بمثل ذلك الأمر . والاحتفال به أدنى احتفال ، وأن تظل حياته وحياة من يلوذون به على ذلك الأفق السامي الوضيء المبرأ من كل ظل لهذه الدنيا وأوشابها ، لا بوصفه حلالا وحراما - فقد تبين الحلال والحرام - ولكن من ناحية التحرر والانطلاق والفكاك من هواتف هذه الأرض الرخيصة "[١٣٧] .

فشيء طبيعي ومنطقي أن يطلبن من النبي التوسعة ، فإن لم يطلبنها فلسن بنساء تتنزى في كيانهن طبيعة الأنثى التي تهفو نفسها إلى كل شيء جميل وطيب في الحياة ، على هذا فطرت المرأة وعلى هذا خلقت الأنثى ، بغير هذا أنت تكلف المرأة من أمرها عنتا وشدة ، " وهذا المنهج الصارم في المعيشة تقاضى نساءه أن يتحملن شدة ما كن يعرفنها من قبل لقد جئن إليه من بيوتات كبيرة .

١٣٦- فقه السيرة - الشيخ - محمد الغزالي - صفحة (٣٨١) .
١٣٧- في ظلال القرآن - سيد قطب - المجلد الخامس - صفحة (٢٨٥٤) .

وأكثرهن اعتادت فى صدر حياتها الزاد الطيب والنعمة الدافقة إما مع آبائهن وإما مع رجالهن السابقين .

فلا عجب إذا تململن من هذه الحياة الجديدة ، وطلبن الرغد والنعومة واجتمعن – على ما بينهن من خلاف – ليسألن الرسول مزيدا من النفقة !!

إنهن فى بيت أعظم رجل فى العرب ، فيجب أن تتكافأ معيشتهن مع مكانتهن ، وقد تزعم هذه المطالب عائشة بنت أبى بكر ، وحفصة بنت عمر، وتبعهن الباقيات ! " [١٣٨].

• طريقة معيشته تكشف بجلاء عن معدن شخصيته :

أكثر وأصدق شيء يكشف عن شخصية الإنسان ، هو طريقة حياته وأسلوب معيشته ، ودعك من أى شيء آخر قد يتكلفه الإنسان أن يتجمل به ، لأن أى إنسان ليس على استعداد أن يعيش على الشظف طوال عمره ليقول عنه الناس أو لمجرد أن يظهر للناس أنه زاهد ، لأنه لو فعل ذلك فقد خسر خسرانا مبينا ، فقد أضاع أهم وأجل ما لديه وهو عمره وحياته ، لشيء قد يقوله الناس أو لا يقولونه ينخدعون به أو لا ينخدعون ، إذن أسلوب الإنسان طوال عمره ليس شيئا متكلفا أو مفتعلا ، لأن لا أحد يستطيعه ، فطريقة الحياة وأسلوب المعيشة مسألة مبدأ وشيء فطرى مغروز فى كيان الإنسان لا يستطيع عنه تبديلا أو تحويلا ، وهو ليس على استعداد أن يضحى به فى سبيل إرضاء أى مخلوق أو جلب استحسان أو ثناء الآخرين . ولنا أن نسأل لماذا اختار محمد – ﷺ – أن يعيش تلك النوعية من الحياة ، ويتخذ هذا الأسلوب والنمط فى معيشته ،فليس من لوازم النبوة ودواعيها أن يتقشف النبي ، ويميل إلى الحياة الصعبة الخشنة ، ويؤثر هذا الأمر عن غيره ، فقد كان هناك ملوك أنبياء ، وهناك أنبياء أوتوا من الملك ما لم يؤت أحد من العالمين !

١٣٨- فقه السيرة - الشيخ محمد الغزالى - صفحة (٣٨٣) .

الأمر العجيب أن محمدا لم يَتخذ هذا الأسلوب لأنه لم يكن هناك بديل عنه أو فرضته الظروف وحتمه الواقع ، وإنما كان هناك إصرار من الرسول ، وتعمد ورفض وامتناع عما غير ذلك ، " ولا يحسبن أحد هذا الأخشيشان فعل من لا يجد ! وانه لو فتحت إلى بيوت النبي ﷺ نافذة تطل على بحبوحة الحياة الراغدة لاستمتع واكتنز ، واستمتع نسوته وابتهجن .

لا ... كان قادرا أن يحجز من المال الذى يمر به ويحكم فيه ما يشاء ، لو يشاء ، لكن النبي السمح كان فوق التطلع إلى اللذات الصغيرة ، لأن عينه ترمقان هدفا أسمى ، ولو سيقت إليه خزائن الأرض لفكر – قبل كل شيء – فى إشباع نهمة الناس منها .

عن أبي ذر : كنت أمشى مع النبي فى حرة المدينة ، فاستقبلنا أحد ، فقال : يا أبا ذر ... قلت لبيك يا رسول الله ، قال : ((ما يسرنى أن عندى مثل أحد هذا ذهبا ، تمضى على ثالثة وعندى منه دينار – إلا شيئا أرصده لدين – إلا أن أقول به فى عباد الله هكذا وهكذا وهكذا)) عن يمنه وعن شماله ومن خلفه .

ثم مشى ثم قال : ((إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة ، إلا من قال هكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله ومن خلفه ، وقليل ما هم)) .

أن أشهى الطعام فى فم الرجل الشبعان الممتلئ لا مذاق له ، وقد كان النبى شبعان القلب فما يهفو إليه غيره من زينة الدنيا لا يحرك منه شعرة ، فلا غرو إذا بعثر ما يصل إليه على المحتاجين والمترقبين ، أما هو فغناه فى قلبه "[١٣٩] .

ذلك رجل غناه فى قلبه .

إنه يستمد سعادته وهنائه من قلبه .

ذلك لأن قلبه عامر بالإيمان والقناعة ، ممتلئ بالرضا والحب لله والناس .

١٣٩- المصدر السابق – صفحة (٣٨٢)

وطالب المتعة والمال ، إما أن ينفد هذا المال وتنتقص تلك المتعة ، أو أن يتسرب إلى نفسه الإحساس بالملل من كثرة المال ، أو عدم الاستساغة بالمتع لكلل أصاب الجسم أو مرض ، أما طالب الشعور والإحساس فلدى قلبه معين لا ينضب وعطاء لا ينفد ، يسعد نفسه ، ويسعد الآخرين ، لذلك كان الرسول يجد سعادته وراحته وأمنه وسلامه فى تلك الطريقة من العيش .

٥ غناء النبوة وتفردها .

وكأن محمدا رأى فى اجتباء الله له ، وإنعامه عليه بالندوة أعظم منة من الله ، فعاش بها ولها ، وآلى على نفسه ألا ينال من الدنيا إلا الحد الأدنى الذى يحفظ عليه حياته ، لقد جاء ليقوم من أمر وشان تلك الحياة ، ولن يتسنى له ذلك وهو فى أسر ما فى الدنيا من متاع وزينة ، أو وهو خاضع لحكمها ، ومضطر لظروفها ، فليس للحياة الدنيا سلطان عليه ، بل هو المالك لأمره ، المتصرف لشأنه لذلك لن تجد أحدا يصدر حكما أو وصفا دقيقا وصادقا مثل أحكام محمد – ﷺ – على الدنيا .

النبوة ملأت كيان وفكر وضمير محمد ، فلم يعد هناك مكان للتفكير فى نعيم الدنيا ، أو أن محمدا أراد ألا يشغله شيء من أمر الدنيا عن النبوة ، لأن أى أمر حتى ولو هان شأنه شغله أو أهمه فهو على حساب النبوة وشواغلها ، أو أن محمدا أراد أن يظل على صلة وثيقة بفئة من فئات أمته الحريص عليها ، وهى فئة الفقراء والمساكين ، فهو يعيش عيشتهم ، ويحيا حياتهم ، ويبتلى بما يبتلون به ، إنه أسلوب ارتضاه واختاره وأحبه ، ودأبه وديدنه إذا اختار شيئا أو صمم علي شيء فالعالم كله لن يثنيه عما اختاره أو يزحزحه قيد أنملة ، فأهم شيء يميز شخصه قوة إرادته وصلابة تصميمه التى تخر لها الجبال ، وتعنو لها أعناق الجبابرة .

وهنا يتبادر سؤال: هل فرض محمد – ﷺ – أسلوب حياته على أزواجه ؟

أو هل استغل محبة أزواجه لإجبارهن على أن يتخذن أسلوبه فى العيش ؟

ولكن إذا اختار الإنسان أسلوبا ما في حياته ، وهذا الأسلوب وتلك الطريقة شاقة على النفس ، وفيها الكثير من العنت والشدة ، فهو حر في ذلك، ولكن ما ذنب المقربين منه والمتصلين به ؟ فليس اختياره اختيارهم ، وليس قناعته قناعتهم ، وليس الأسلوب الذى اختاره حتما وملزما لهم ، أو على الأقل من حق من يعيشون معه ان يكون لهم مطلق الحرية أن يتبعوه أو لا يتبعوه ، فربما أوتى من القوة والقدرة والعزم والتحمل ما لا يتوافر لديهم !

كان الرسول يدرك تلك الحقيقة ، بل لم يدركها أحد بوضوح وجلاء مثلما أدركها محمد ، فهو يعرف أن الإنسان ضعيف ، وأن النفس أضعف ما تكون أمام مغريات الحياة الدنيا .

و حينما كان يرى أن أصحابه يريدون أن يتشبهوا به فى كل شيء فهو ينهاهم ، لأنه يدرك أن أصحابه قد لا يستطيعون ما يستطيعه ، وقد لا يتحملون ما يتحمله ، وقد لا يقدرون على ما يقدر عليه ، فقد كان يواصل الصيام ، ويقوم الليل حتى تتورم قدماه ، حتى أن من حوله كانوا يتعجبون من ذلك ويقولون له : ((ألم يغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر)) إلا أنه كان يرى أن هناك ضريبة لهذا الغفران ، وهو مزيد من الشكر والعبادة والتذلل لله .

نعم كان أصحاب النبي أحرارا أن يتبعوا هذا الأسلوب الخاص فى الحياة أو لا يتبعوه ، لأنهم ليسوا ملاصقين النبي ليلا نهارا ، أما مع أزواج النبي فالأمر مختلف ، نعم هن أحرار أن يلتزمن بهذا الأسلوب أو لا يلتزمن ، ولكن الحرية هنا لها وجه مختلف ، فهناك صلة أو علاقة تربط النبي بأزواجه ، وهى علاقة الزوجية تلك العلاقة تفرض أو تحتم على الزوجة أن تتبع أسلوب وطريقة ونهج الزوج فى المعيشة ، وهنا أيضا يتوافر عنصر الحرية والتخيير ، فإما أن توافق وترتضى طريقة المعيشة ، وإما أن ترفضها ، ولكن فى حالة رفضها لأسلوب المعيشة هى تفصم عرى

تلك العلاقة الزوجية ، فرفض طريقة معيشة النبي أو التململ ، هو فى نفس الوقت قطع ونقض لتلك العلاقة .

إذن حدث هنا امتزاج أو تطابق بين النبى وأسلوبه فى المعيشة والحياة أو أراد النبي أن يكون هذا ، رفضت أسلوب النبى فقد رفضت العيش مع النبى قبلت أسلوبه فقد ارتضيت ووافقت العيش معه .

ولا أحد يقول إنه ليس هناك امرأة تزوجها النبي تجرأ على أن توافق على أن يطلقها النبي ، فتطليق النبي لأحد أزواجه لن يخرجها عن الملة ، ولن يضيرها فى شيء ، وجاءت آيات القرآن الكريم واضحة كل الوضوح ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ ﴾ الأحزاب: ٢٨ .

" أى : قل أيها الرسول الكريم - لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ولا تستطعن الصبر على المعيشة معى فلكن أن تخترن مفارقتى ، وإنى على استعداد أن أعطيكن المتعة التى ترضينها ، وأن أطلقكن طلاقا لا ضرر منه ولا ظلم معه ، لأنى سأعطيكم ما هو فوق حقكن "[١٤٠] .

هنا كل الضمانات مكفولة للزوجة إذا طلبت الطلاق ، ثم أنها لن تضار أدبيا ولا معنويا .

ولا أحد يقول أن النبي قد استغل حب وإعزاز وإجلال نسائه له . فهو - لا شك فى هذا - يعلم أنهن يرتضين أى شيء إلا فراقه والبعد عنه . إذن القضية حسمت . فالحب لشخص الرسول نابع منهن ، لأنك قد تجبر الإنسان على فعل أى شيء إلا الحب ، وإذا كن نساء النبي يحببن الرسول ، فهن على استعداد على تحمل ما يفرضه هذا الحب عليهن ، وحب بدون التزامات ومسئوليات هو نوع من العاطفة الخرقاء لا مبرر لها ، وأنت إذا أحببت إنسانا أو رضيت بالارتباط به

١٤٠- التفسير الوسيط للقرآن الكريم - د. محمد سيد طنطاوى - المجلد الحادى عشر - صفحة (٢٠٢)

obeikandi.com

ارتباطا زوجيا . فإن هذا الحب والارتباط يتضمن القبول التام بمشاركة الطرفين في كل شيء ، طالما لا يتضمن هذا الشيء معصية الله .

﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ الأحزاب: ٢٩ .

إذن هما أمران عرضا على نساء النبي بصفة خاصة ، ومعرضان على البشر بصفة عامة رجال ونساء منذ أن أنزل الله – سبحانه وتعالى – الآيات الكريمة على النبي الجليل إلى أن تقوم الساعة ، وعلى الإنسان أن يختار – بكل حرية – أحد الطرفين . متحملا ما يترتب على هذا الاختيار. وما من قلب إلا وتتنازع فيه هاتان الرغبتان . الدنيا والآخرة . وجاءت الآيات لتحسم وتفصل في هذا التنازع . " لقد جاء القرآن الكريم ليحدد القيم الأساسية في تصور الإسلام للحياة . هذه القيم التي ينبغي أن تجد ترجمتها الحية في بيت النبي – ﷺ – وحياته الخاصة ؛ وأن يتحقق في أدق صورة وأوضحها في هذا البيت الذي كان – وسيبقى – منارة للمسلمين وللإسلام حتى يرث الله الأرض ومن عليها " [١٤١] .

وإذا كن نساء النبي قد نظرن إلى الدنيا . أو أردن أن يعشن كما تعيش بقية النساء . فهذا غير جائز. لأنهن ببساطة أزواج النبي ، والنبي ليس كبقية الرجال، فهو قدوة وأسوة يقتدى بها ويتأسى بها ، كذلك نساؤه لسن كبقية النساء . إنهن قدوة وأسوة لبقية نساء المسلمين من ناحية . ومن ناحية أخرى حملن شرف وجلال الانتساب إلى النبي كأزواج .

فما حدث في بيت الرسول ما كان ينبغي أن يمر مرا عابرا ؛ لأنه يمس حياة الرسول وأزواجه في الصميم . – وأيضا – يمس جوهر المجتمع الإسلامي ، وما جاء مترتبا عليه يرسم بكل وضوح وجلاء ما ينبغي أن يكون عليه الفرد المسلم في حياته الزوجية . " ونحب أن نقف لحظات أمام هذا الحادث نتدبره من بعض

١٤١- في ظلال القرآن – سيد قطب – المجلد الخامس – صفحة (٢٨٥٥)

زوايـاه ، إنـه يحـدد التصـور الإسلامى الواضـح للقـيم ، ويرسـم الطريـق الشـعورى للإحساس بالدنيا والآخرة ، ويحسم فى القلب المسلم كل أرجحة ولكل لجلجة بين قيم الدنيا وقيم الآخرة ، بين الاتجاه إلى الأرض والاتجاه إلى السماء ، ويخلص هذا القلب من كل وشيجة غريبة تحول بينه وبين التجرد لله والخلوص له وحده دون سواه . هذا من جانب ومن الجانب الآخر يصور لنا هذا الحادث حقيقة حياة رسول الله – ﷺ – والذين عاشوا معه واتصلوا به . وأجمل ما فى هذه الحقيقة أن تلك الحياة كانت حياة إنسان وحياة ناس من البشر ، لم يتجردوا من بشريتهم ومشاعرهم وسماتهم الإنسانية . مع كل تلك العظمة الفريدة البالغة التى ارتفعوا إليها ؛ ومع كل هذا الخلوص لله والتجرد مما عداه . فالمشاعر الإنسانية والعواطف البشرية لم تمت فى تلك النفوس ، ولكنها ارتفعت وصفت من الأوشاب ، ثم بقيت لها طبيعتها البشرية الحلوة ، ولم تعوق هذه النفوس عن الارتفاع إلى أقصى درجات الكمال المقدر للإنسان "[142]

وإذا كان الاتصال بشخص رسول الله والقرب منه والانتساب إليه نوعا من التشريف ليس بعده شرف ، فإنما يتضمن فى نفس الوقت نوعا من التكليف وتكليف ثقيل وليس هينا . فكما قال المتنبي :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم   وتأتى على قدر الكرام المكارم

فعلى قدر الشرف والمكانة والمنزلة التى بلغها نساء النبي ، يكون الحساب والمؤاخذة ، فهن لسن ملزمات أن يتبعن طريقة الرسول فى المعيشة وأسلوبه في الحياة فحسب ، بل أن يعملن على الحفاظ وصيانة أنفسهن والارتفاع والارتقاء إلى المكانة والمنزلة النبوية ، " إنها تبعة المكان الكريم الذى هن فيه . وهن أزواج رسول الله – ﷺ – وهن أمهات المؤمنين وهذه الصفة وتلك كلتاهما ترتبان عليهن واجبات ثقيلة ، وتعصمانهن كذلك من مقارفة الفاحشة . فإذا فرض وفارقت

١٤٢- المصدر السابق – المجلد الخامس – صفحة (٢٨٥٥)

واحدة منهن فاحشة مبينة واضحة لا خفاء فيها ، كانت مستحقة لضعفين من العذاب . وذلك فرض يبين تبعة المكان الكريم الذى هن فيه ((وكان ذلك على الله يسيرا)) ... لا تمنعه ولا تصعبه مكانتهن من رسول الله المختار .. كما قد يتبادر إلى الأذهان !.

((ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا)) والقنوت والطاعة والخضوع . والعمل الصالح هو الترجمة العملية للطاعة والخضوع .. ((نؤتها أجرها مرتين)) ... كما أن العذاب يضاعف للمفارقة ضعفين ((واعتدنا لها رزقا كريما)) فهو حاضر مهيأ ينتظرها فوق مضاعفة الأجر فضلا من الله ومنة " [١٤٣]

٥ مراضاة الأزواج :

لكم هى عظيمة وجليلة شخصية هذا الرسول . والأعظم والأجل تلك الأفعال والتصرفات لهذا الرسول ، ولولا هذا ما دخل القرآن فى حياة الرسول البيتية، ونشر وأعلن أدق الأسرار ، وأمس الخصوصيات بحياة النبي . لقد رسم القرآن صورة لشخصيته ، وأنت لا تستطيع أن ترسم صورة لإنسان بخطوط مستقيمة ولا بمساحات مضيئة ، فلابد أن يكون هنا خط منحنى ، وهناك خط منكسر ، ولابد أن تكون مساحات الظل موجودة بجوار مساحات الضوء ، ولا بد أن تكون مساحات الظل متفاوتة وكذلك مساحات الضوء .

لذلك كان القرآن حريصا على ألا يكون هناك خصوصيات للرسول ، حتى ما قد يسبب للرسول خجلا أو حياءا ، ليخجل الرسول وليزدد حياءا ، ولكن ربه رأى أن ما يستفيده الإسلام وما يخرج به المسلمون والمسلمات من عظة وعبرة ودرس ، يفوق ويربو على إحساس الرسول بالخجل والحياء ، هذا إذا كان الرسول يخجل من مواضع بشريته ودلائل إنسانيته ، فقد نذر نفسه منذ أول لحظة دعا الناس فيها إلى تلك العقيدة ، فكل شيء فى حياته العامة والخاصة لا قيمة له ما لم

١٤٣- المصدر السابق – المجلد الخامس – صفحة (٢٨٥٣) .

يكن في سبيل تلك العقيدة . " ثم يجعل الله حياته الخاصة والعامة كتابا مفتوحا لأمته وللبشرية كلها . تقرأ فيه صورة هذه العقيدة . وترى فيه تطبيقاتها الواقعية ومن ثم لا يجعل فيها سرا مخبوءا . ولا سترا مطويا بل يعرض جوانب كثيرة منها في القرآن . ويكشف منها ما يطوى عادة عن الناس في حياة الإنسان العادي . حتى مواضع الضعف البشري الذي لا حيلة فيه لبشر . بل إن الإنسان ليكاد يلمح القصد في كشف هذه المواضع في حياة الرسول – ﷺ للناس . إنه ليس له في نفسه شيء خص . فهو لهذه الدعوة كله . فعلام يختبئ – ﷺ – أو يخبأ ؟ إن حياته هي المشهد المنظور القريب الممكن التطبيق من هذه العقيدة . وقد جاء – ﷺ – ليعرضها للناس في شخصيته وحياته . كما يعرضها بلسانه وتوجيهه ولهذا خلق ولهذا جاء .

ولقد حفظ عنه أصحابه – ﷺ – ونقلوا للناس بعدهم – جزاهم الله خيرا – أدق تفصيلات هذه الحياة فلم تبق صغيرة ولا كبيرة حتى في حياته اليومية العادية لم تسجل ولم تنقل ... وكان هذا طرفا من قدرة الله في تسجيل حياة هذا الرسول . أو تسجيل دقائق هذه الحياة . أو تسجيل دقائق هذه العقيدة مطبقة في حياة الرسول . فكان هذا على جانب ما سجله القرآن الكريم من هذه الحياة السجل الباقي للبشرية إلى نهاية الحياة "١٤٤ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ
فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ
أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ
قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن
تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ

١٤٤- المصدر السابق – صفحة (٣٦١٠)

﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ التحريم ١ - ٥

أي ما كان الأمر الذى دفع الرسول للتحريم – سواء كان شرابا أولقاء بأمة أو بمارية فى حجرة السيدة حفصة – فإن هذا لا يعنينا فى قليل أو كثير، لا لشيء إلا لأن القرآن لم يذكره، ليس لعدم أهميته، ولكن لأن هناك الأهم والأجدر والأولى بالاعتبار، وهناك ما يجب أن نقف أمامه نستخلص منه العبرة والعظة، والأهم أن هناك ما يلقى ضوءا على جانب عظيم من جوانب شخصية الرسول أو يأخذ بأيدينا لنطلع ونرى.

فى البداية تذكر الآيات أنه قد وقع تحريم من الرسول، والتحريم نوع من التضييق والتشدد والتعنت، مع أن الله – عز وجل – قد وسع على رسوله وسهل ويسر. وحياة الرسول حافلة بالمشقات والأزمات والمجاهدات من جراء العمل والسعى لنشر الإسلام وتوطيد أركانه فى النفوس وفى الأرض. لذا فالأمر ليس فى حاجة إلى مزيد من التضيق والعنت يفرضه الرسول على نفسه، فحسب الرسول ما يلقى من المعاندين والكفار والمنافقين والحاقدين. وهنا نلحظ العناية الواضحة والاهتمام من الله – عز وجل – لنفسية الرسول والحرص على أن تكون نفسيته خالية مما يعوقها أو يثبطها، فيجب أن تكون متفرغة تفرغا كاملا للجهاد والكفاح فى سبيل الدعوة. هذا من ناحية منطق العتاب أو العجب من فعل الرسول. ومن ناحية أخرى أن الذى يحرم أو يحلل هو الله، وليس الرسول، نعم إن التحريم أوقعه الرسول على نفسه، ويقول المفسرون إنه ليس تحريما شرعيا، ولكن حتى هذا لا ينبغى للرسول فعله. " قال بعض العلماء ناداه بلفظ ((النبي)) إشعارا بأنه الذى نبئ بأسرار التحليل والتحريم الإلهى، والمراد بتحريمه ما أحل له امتناعه منه، وحظره إياه على نفسه، وهذا المقدار مباح، ليس فى ارتكابه جناح وإنما قل له (لم تحرم ما أحل الله لك) رفقا به، وشفقة عليه، وتنويها لقدره

obeikandl.com

ومنصبه - ﷺ - أن يراعى مرضاة أزواجه بما يشق عليه . جريا على ما ألف من لطف الله-تعالى-به ورفعه عن أن يحرج لسبب أحد من البشر الذين هم أتباعه [١٤٥]

نأتي إلى العلة والسبب الذي من أجله وقع التحريم من الرسول (تبتغى مرضاة أزواجك) فالرسول حريص على أن يرضى أزواجه . وهذا فى حد ذاته نوع من النبل والكرم ويزداد نبله وكرمه حينما يتوصل إلى تلك المرضاة من خلال التضييق والتشديد على نفسه . ولكن إذا كان هذا جائز حدوثه من أى رجل . فهو لا يجوز أن يحدث من النبي . لأنهن – أزواج النبي - هن اللاتى يجب أن يحرصن على مرضاة النبي وطاعته . وليس العكس . ويسارع الله – عز وجل – فى مواساة نبيه (والله غفور رحيم) غفر لك ما حدث ورحمك بأن وسع عليك بأن تحل يمينك .

ماذا حدث ؟

أسر النبي إلى إحدى زوجاته حديثا . ومعنى أسر أنه أخبرها دونا عن الأخريات . وأنه استكتمها هذا الحديث . هنا لا يجب أن يشغلنا موضوع الحديث وكذلك لا يشغلنا اسم الزوجة . وإنما المهم أن هناك سرا بين النبي وإحدى زوجاته وطالما أودع الرسول لديها سرا . فينبغى أن تكون أهلا وجديرة بهذا الأمر . فأي زوجة لأي رجل لو استكتمها حديثا وأذاعته فهذه صورة من صور الخيانة . خيانة أمانة السر. وللزوج أن يغضب . وللغضب أن يتصاعد . ليصل الأمر إلى الفراق والطلاق . فإذا سولت نفس الزوجة أن تفشى سرا طلب الزوج أن تكتمه . فأين يضع الزوج أسراره إن لم يضعها عند زوجته ؟! ومن الجدير بالحفاظ على السر إن لم تكن الزوجة ؟

هذا مع الرجل وزوجته . فكيف لو كان الرجل هو النبي . والزوجة هى زوجة نبي ؟

١٤٥- التفسير الوسيط للقرآن الكريم - محمد سيد طنطاوى – المجلد الرابع عشر – صفحة (٤٦٨)

هنا الأمر فى غاية الخطورة ، والأمر تجاوز أن يكون من خصوصيات النبي وأزواجه . لذلك تدخل القرآن ليحسم تلك القضية . فقد أخبر الله رسوله أن زوجته قد نبأت به غيرها . وعرف النبي الزوجة بأنها لم تصن السر . ولنبل شخص الرسول لم يشأ أن يعرضها لكثير من الحرج ، ولم يطل بها الأمر ، فسألته : من أخبرك ؟

فقال : نبأني العليم الخبير .

ثم تتجه الآيات إلى مخاطبة زوجين من أزواج الرسول ، مع العلم إن التي أخبرت واحدة فما بال الآيات تخاطب اثنتين ؟

لأن الأولى أخبرت الثانية ، وكان المفروض من الثانية أن تنصح الأولى بعد إفشاء السر ، ويستكتما الاثنتان الحديث ، ولكن الاثنتين أذاعتا الحديث بين بقية أزواج النبي ، وبعملهما هذا قد مالتا عن الحق ؛ لأن هذا ليس من شيم أزواج نبي كريم ، وليس أمامهما - فى تلك الحالة - إلا التوبة ، لأن ما فعلاه ذنبا يستوجب التوبة .

○ مهمة أزواج النبي:

لأزواج النبي مهمة مقدسة ، وهو الحفاظ على شخصية الرسول أن يناله أى نصب أو تعب ، وإبعاده عن أى قضايا أو مشكلات أو أزمات تكون من شأنها أن تشغله أو تعرقله عن تأدية مهمته المقدسة ، والتخفيف عنه والترويح ، فهو يحمل أعباء تنوء تحتها الجبال الشم ، ويكافح ويجاهد فى ميادين شتى ، ووجوده كله متعلق برسالة إلى الإنسانية جمعاء ، فإذا عاد إلى بيته فلابد أن يجد الهدوء والأمن والاستقرار والسكينة ، ولابد أن تقوم على هذا البيت زوجة تعرف حقا مهام النبي وأعبائه وكل ما يواجهه من مشقة ، فتألو على نفسها أن تزيح عن كاهله كل تلك الأثقال والأوزار ، وتضمد جراحه وتشفى آلامه ... نعم ، زوجة واحدة قد لا تنهض بهذا العبء الثقيل ، وربما تكون الحكمة من تعدد أزواج النبي - مع بقية الأسباب - أن يتعاون ويتآزرن ويتشاركن فى أداء تلك المهمة ، فإن عجزت إحداهن، فهناك

الأخريات ، وإن تعبت إحداهن فهناك التى لم تتعب ، وإن سأمت وملت إحداهن فهناك التى لم تسأم ولم تمل ، فراحة واستجمام الرسول هى فى تلك السويعات التى يقضيها فى بيته ، ومع زوجه ، فى جو من الحب والحنان والأمن والسكينة والهدوء .

أما أن ينقلب البيت إلى ميدان معركة ، وتحاك فيه الاتفاقات والمؤامرات والمعاهدات ، ويجتمعن على شخص الرسول الكريم ، ويدفعنه إلى فعل يعاتبه الله - عز وجل - عليه ، فإن هذا الامر يوحى أن أزواج النبي حدث منهم تفريط فى المهمة المناطة بهن ، نعم الدافع لهن حبهن للنبي وغيرتهن عليه ، ولكن إن جاز هذا فى كل البيوت فإنه لا يجوز فى بيت النبي ، وإن حدث هذا من كل النساء - وهو منطقى ومتسق لطبيعة المرأة - فلا ينبغى أن يحدث من نساء النبي ، فيجب أن يتعالين ويتسامين فوق كل تلك المشاعر الطبيعية .

وإذا كن تجمعن عليه وتحزبن ضده ، فإن حزب النبي هو الغالب ، لأن الله معه وجبريل وصالح المؤمنين ، وبعد كل هذا الملائكة معينة ومساعدة له ، فإن النبي مؤيد بكل هؤلاء .

ثم تطلق الآيات طلقة من العيار الثقيل ، فربما أن طريقة معاملة النبي لأزواجه وعطفه وحدبه عليهن أنساهن أن فى يده أن يطلقهن ، وأن الله قادر على أن يبدله أزواجا خيرا منكن ، - هذا إن تم الطلاق وخرجتن من عصمة النبي - وأولئك الأزواج يتوافر فيهن ما يجب أن يتوافر فى أزواج النبي ، أنهن مسلمات مؤمنات قانتات عابدات سائحات ثيبات وأبكار ، وإذا عرفت المرأة أن الزوج فى يده أن يطلق ، ليس هذا فحسب ، بكل قادر على أن يستبدل بدلا منها يتوافر فيها ما كان يتوافر فى أزواجه السابقات بل وأكثر ، إذا علمت المرأة بكل هذا ، فقدت كل مما لديها من دلال وزهو وأسلحة .

٥ ما دلالة كل هذا على شخصية الرسول ؟

من يستعرض سيرة الرسول ، سيجد أنه حريص أشد الحرص على إرضاء كل من حوله ، هذا الحرص يصل إلى مداه ، إلى الدرجة التى يكلف الرسول نفسه كثيرا من المشقة والتعب ، ولكن كل هذا يهون عند النبي حينما يجد نفسه قد وفق إلى إرضاء من حوله ، صغيرا كان أم كبيرا ، رجلا كان أم امرأة ، هذه خصيصة من خصائص شخصية رسول الله ، حرص لا نهاية له حتى مع الكافرين المعاندين ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ الكهف : ٦ .

فإذا كان هذا شأن الرسول مع من حوله ، فكيف يكون شأنه مع أزواجه، لا شك أنه سيكون حريصا حرصا شديدا على أرضائهن ، ولا شك أنه قد حدثت مواقف كثيرة أثبتت لنساء النبي أنه حريص على أرضائهن ويكلف نفسه الكثير من العنت فى هذا ، وهو لا يملك ألا يفعل ذلك ، لأن تلك الصفة أصيلة فى شخصه ، ولا تكون الصفة أصيلة فى شخص الإنسان إلا إذا خرجت من مجال التحكم فيها إراديا ، فهى تصدر عنه صدورا تلقائيا ، فهو لا يملك لها تبديلا أو تحويلا أو تغييرا .

وحرصه على إرضاء أزواجه ، وعدم إغضابهن لم يفارقه حتى وهو يعاتب زوجته التى أفشت سره (عرف بعضه وأعرض عن بعض) فهو لم يشأ أن يؤلمها ويطيل إيلامها ، ولم يشأ أن يحرجها ويمعن فى هذا الإحراج ، مع أ ن الأمر يستدعى ذلك ، إلا أن شخصية الرسول تأبى إلا التمسك بصفة الكرم والنبل .

وعجيب أمر هذا الرسول ، فحينما تثار أي أزمة فى بيته ، لا يتولى هو العقاب أو التأديب أو اللوم ، وإنما يتولى ذلك عنه الله – عز وجل – أو يخبر الله نبيه الكريم أن يقول لأزواجه ....

وهذا يدل على أن الله شديد الحرص والرعاية والعناية والغيرة على شخص رسوله ، فلا يترك الرسول ليتولى التأديب أو اللوم وإنما هو الذى يتولى ذلك .

أو لأن اللوم والتأديب والتأنيب يستدعي نوعا من الحسم والحزم والشدة والتى قد تصل أحيانا إلى القسوة . وهذا ما لا يتناسب وما طبع عليه الرسول من رحمة وعطف وحدب على المؤمنين (بالمؤمنين رءوف رحيم) .

أو لأن الرسول ليس من الشخصيات الحريصة على مكانتها فى قلوب المحيطين به فهو من المتواضعين الزاهدين عن أن يبجل أو ترتفع مكانته عن بقية المؤمنين . وكثير من الأقوال والأفعال التى صدرت عنه تطالب المسلمين أن لا يبالغوا فى تقديره أو يعاملوه كملك أو رئيس أو سلطان . وإنما يجب أن يعاملوا ويتعاملوا معه كواحد منهم ليس له عليهم من فضل .

وإنما كل حرصه على مكانته عند الله - عز وجل - محتكما إلى المعيار العظيم (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .

الفصل التاسع

وصف النبى

محمد سيد الكونين والثقلـ ... ـين والفريقين من عُرب ومن عجم

نبينا الآمر الناهي فلا أحد ... أبر في قول لا منه ولا نعم

هو الحبيب الذي ترجى شفاعته ... لكل هول من الأهوال مقتحم

دعا إلى الله فالمستمسكون به ... مستمسكون بحبل غير منفصم

فاق النبيين في خَلق وفي خُلق ... ولم يدانوه في علم ولا كرم

وكلهم من رسول الله ملتمس ... غرفا من البحر أو رشفا من الديم

وواقفون لديه عند حدهم ... من نقطة العلم أو من شكلة الحكم

فهو الذي تمّ معناه وصورته ... ثمّ اصطفاه حبيبا بارىء النّسم

منزه عن شريك في محاسنه ... فجوهر الحسن فيه غير منقسم

○ **الإمام البوصيري**

يا من له الأخلاق ما تهوى العلا ... منها وما يتعشق الكبراء

لو لم تقم دينا لقامت وحدها ... دينا تضيء بنوره الآناء

زانتك في الخلق العظيم شمائل ... يغرى بهن ويولع الكرماء

أما الجمال فأنت شمس سمائه ... وملاحة الصديق منك إياء

والحسن من كرم الوجوه وخيره ... ما أوتي القواد والزعماء

○ **أحمد شوقي**

obeikandi.com

obeikandl.com

هل إذا عرفنا أوصاف النبي بالتفصيل ، هل هذا سيزيدنا معرفة به وقربا منه ؟

وهل تفيدنا أوصاف النبي مثل طريقة مشيته أو ملامح وجهه وطوله وعرضه ولون بشرته ولون عينيه ... إلخ ؟

نعم .

لأن للشخصية الإنسانية مكونين ، مكون داخلي ، ومكون خارجي ، ولن يكتمل معرفتك للشخصية إلا بمعرفة هذين المكونين ، فإذا قيل لك عن شخص ما أنه صادق وأمين ووفيٌ وشجاع وجرئ ..فستظل تلك الأوصاف أوصاف مجردة ومعاني هائمة إلى أن ترى ذلك الشخص أمامك يتحرك ويتنفس ويسير على قدمين حينئذ تتحول تلك الأوصاف وتلك المعاني إلى شيء حقيقي أمامك تدركه بكل حواسك ، وتتحول تلك الأوصاف والمعاني إلى مظاهر للحياة تؤثر كأشد ما يكون التأثير وتفعل فيمن حولها كأقوى ما يكون الفعل .

أيضا لابد وأن يكون الداخل والخارج على وفاق ، بمعنى أن الصادق والأمين والوفي في الغالب تكون هناك دلائل وإمارات لا تخطئها عين الفاحص على مظهر الشخصية ، بل في أحوال كثيرة نحكم على داخل الشخصية بما نراه من صفاتها وملامحها الخارجية .

والذي يغفل عن إدراك تلك العلاقة الوثيقة بين المظهر الخارجي للشخصية وحقيقتها هو جاهل كما عبرت الآية الكريمة:

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ﴾ البقرة: ٢٧٣

والسمة هي العلامة والأمارة، وهي التي تقودك - من خلال الفحص والدراسة - إلى حقيقة الشخصية، وإن لم يكن الإنسان على دراية بحقيقة الملامح وقسمات الوجه وما تدل عليه فقد يخدع. فالناظر إلى هؤلاء يحسبهم أغنياء، وهم في حقيقة الأمر ليسوا بأغنياء، ولكن التعفف هو الذي أظهرهم بهذا المنظر، وحينما نتفقد أحوالهم وظروفهم وأوضاعهم نجد أنهم فقراء، ولكنهم سلكوا مسلك الغني فالفقر لم يقبض ويقيد ملامح الوجوه، كما أنه لم يستعبد نفوسهم، فلديهم من العزة والكرامة والكبرياء أن لا يطلبوا العون أو المساعدة من الآخرين. وليس من العسير على أي متفحص لملامح الوجه أن يدرك حقيقة ما تدل عليه، وملامح الإنسان كأشد ما تكون دلالة على حقيقته مهما حاول أن يحملها ما لا تحتمل؛ لأن هناك ارتباط وثيق بين ما يدور ويحدث في داخل النفس وما ينعكس على صفحة الوجه. والوجه - وهو أول ما يواجهك ويقابلك من الشخصية - ينبئ عما في داخل النفس سواء كان خيرا كما في الآيات الكريمة

﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ الفتح: ٢٩

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ المطففين: ٢٢ - ٢٤

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ الغاشية: ٨ - ٩

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ عبس: ٣٨ - ٣٩

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ القيامة: ٢٢ - ٢٣

أو شرا كما في الآيات الكريمة:

﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ ﴾ الحج: ٧٢

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ عبس ٤٠ - ٤٢

﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾ الرحمن: ٤١

وليس ملامح الوجه هي فقط التي تدل على ما في داخل النفس وتكشف خبيئة تلك النفس بل أيضا طريقة مشي الشخص :

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ الفرقان: ٦٣

﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ الإسراء ٣٧

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ لقمان: ١٨ - ١٩

﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ القصص: ٢٥

والجسم - بصفة عامة - وما يتصف به من قوة واعتدال من الدلائل التي تساعد في سبر غور الشخصية فقد قال القرآن في حق طالوت

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ ﴾ البقرة: ٢٤٧

إذن المظهر الخارجي للشخصية لا نستطيع أن نغفله إذا كنا نريد دراسة الشخصية دراسة حقيقية ، أو أن نفهم الشخصية فهما صادقا .

والوصف عند العرب - في أغلبه - يقوم على العلاقات ، تلك العلاقات تمنع الذهن او الخيال أن يشتط ويخرج من الصورة الواقعية ، بل المغرقة فى الواقعية وفي الجاهلية حينما جسدوا وجسموا الآلهة سواء كان صنما أو وثنا ، لم يخلعوا عليها أو يمنحوها صفات غير واقعية بالمرة ، وحينما جاء الإسلام امتزج الوصف الواقعي لديهم بالوصف الخلقي ، أى واقعيا صادقا ، والصدق هو مطابقة الواقع فلم يصفوا الأشخاص بصفات غير إنسانية أو غير بشرية ، وإنما وصفوهم بصفاتهم

الحقيقية مع شيء من المبالغة ، والمبالغة نوع من التجميل ، والتجميل ليس خروجا عن الواقع أو الحقيقة وإنما هو محاولة إظهارها في أحسن وأفضل صورة .

ومن غريب الأمر أنه حينما ورد إلينا وصف النبي لم يتضمن أي نوع من المبالغة بأي صورة من الصور ، وإنما هو وصف واقعي صادق كل الصدق لم يشوبه إحساس أو شعور بالتقديس أو محاولة الارتفاع به فوق مقام البشرية ، وقد يرجع هذا لأمرين :

- فهمهم لحقيقة النبوة ، وأنها لا تخرج شخص النبي عن كونه بشرا .
- أنهم شعروا وهم بإزاء وصفهم للنبي أنه لا بد وأن يتحروا الصدق والحقيقة بدون تحريف أو تبديل .

" لأن الذين وصفوه أحبوه وأحبوا أن يقتدوا به فتحرجوا في وصفه كما يتحرج المرء في الاقتداء بصفات النجاة والأخذ بأسباب السلامة ، فكانت أمانة الوصف هنا مزيجا من العطف والتدين وضربا من اتباع السنن وقضاء الفروض "[١٤٦]

٥ شكل وبنية النبي :

لابد وأن تكون بنية النبي قوية وبنيانه متماسكًا ومتينًا ، قضى بهذا وفرضته المهام الجسام والأعباء الثقيلة التي كلف بها النبي وفرضت عليه فرضا وألزم بها إلزاما ، تلك القوة سند له في حالتين :

- حينما يباشره الملك ، أو يتنزل عليه الوحي ، فكما عرفنا أن النبي تعرض – في بداية الوحي – إلى صدمة زلزلته زلزالا عظيما ، والتغيرات التي تطرأ عليه – أثناء نزول الوحي عليه بعد ذلك – ويبصرها المحيطون به تدل على أنه يتعرض لمعاناة ومشقة لا مثيل لها ، فقد كان يتفصد عرقا في اليوم الشاتي ويصدر منه – ﷺ – غطيط وأصوات تدل على مدى المعاناة،حتى

١٤٦- عبقرية محمد – عباس محمود العقاد – صفحة (١٦٢)

أنهم كانوا يضعون على وجهه غطاء كي لا يتأذون وهم يرون دلائل وإمارات المعاناة مرتسمة على ملامح وجهه .وهو مطالب بعد ذلك – وهو في أثناء تلك المعاناة والمشقة – أن يعي ما يلقيه إليه الملك ، أي أن حواسه ومداركه في كامل استعدادها وفي قمة يقظتها ، لذلك لابد أن يكون ليس قويا فحسب بل يتعدى هذا الوصف بمراحل كي يتحمل تلك المعاناة ، وإلا فإن لم يكن قويا بما فيه الكفاية فقد يتلف هذا الكيان وتتحلل تلك البنية

" كانت أوصافه في غير حالة الوحي توافق الاستعداد الذي يرشحه لتلقي الوحي والنبوة ، فكان حسا كله وحياة كله ، يراه من ينظر إليه فيرى فؤادا يقظا يتنبه لكل خالجة نفسية وكل نبأة خفية " [١٤٧]

فإذا تجاوز النبي مرحلة مباشرة الملك وتلقي عنه الوحي ، تأتي مر... أخرى ، وهي تبليغ ما أمر بتبليغه ، وكم من عقبات أقيمت بينه وبين هذا الأمر وكم من أزمات ومآزق ومؤامرات ومعارك ومكائد وضعها الأعداء والكارهون والكاشحون والحاقدون ، تحديات شرسة ، ولابد أن يواجهها ويقارعها وينتصر عليها ، هنا أيضا لابد أن يكون قويا وقادرا وصلبا في مواجهة كل هذا . أضف إلى ذلك الجانب النفسي والضغط العصبي ، وهو لابد مؤثر على كيانه وبنيانه ، فهو دائم التفكير والتوجس والقلق تتعاوره مشاعر الحزن والاحباط واليأس والخوف ، كل هذا لا يمكن إنكار تأثيره على بنيته وكيانه .

- واصفو الرسول

أشهر هؤلاء هو الإمام على بن أبي طالب وأم معبد الخزاعية (عاتكة بنت خالد) وهند بن أبي هالة .

١٤٧- المصدر السابق – صفحة (١٥٦)

- **أولا** : الإمام على بن أبي طالب " أما صورته الشخصية ، المنظرَ والمظهر العام فكان كما وصفه ابن عمه (الإمام على) وسجل كتاب السيرة وبالذات الطبري في تاريخه والسهيلي في الروض الأنف ((..شابا وسيما ، معرب الملامح أزهر اللون، ربعة في الرجال ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد... ضخم الرأس ، مبسوط الجبين مرسل الذقن ، عالي العنق ، عريض الصدر غليظ الكفين والقدمين يتوج هامته شعر كث شديد السواد ، وتشع عيناه الدعجوان الواسعتان جاذبية وسحرا ، تحت أهداب حوالك ، وتتألق أسنانه المفلجة البيضاء إذا تكلم أو ابتسم ... وكان يسرع الخطو ملقيا بجسمه إلى الأمام ، ويحسن الأصغاء ملتفتا إلى محدثه بكل جسمه ، لطيف المحضر يضحك أحيانا حتى تبدو نواجذه ، فإذا غضب لم يخنه حلمه بل ينفر عرق بين حاجبيه السابغين المتصلين من أثر الغضب .
- **ثانيا** " .... وفيما سجل ابن عبد البر عن الرواة الثقاة في كتابه ((الاستيعاب في معرفة الأصحاب)) فإن أم معبد الخزاعية ((عاتكة بنت خالد)) بعد أن رأت "محمدا" قالت تصفه " رأيت رجلا طاهر الوضاءة ، أبلج الوجه حسن الخلق ، وسيما قسيما ، في عينيه دعج ، وفي عنقه سطع ، وفي صوته صحل ، وفي لحيته كثاثة، أزج أقرن ... إن صمت فعليه الوقار ، وإن تكلم سما وعلاه البهاء ... أجمل الناس وأبهاه من بعيد ، وأحسنه وأجمله من قريب ، حلو المنطق فصل ، لا نزر ولا هذر ...ربعة ، لا بائن من طول ولا تقتحمه عين من قصر ..له رفقاء يحيطون به ، إن قال أنصتوا لقوله وإن أمر تبادروا لأمره " [١٤٨]

١٤٨- من مقال للأستاذ (نصر عبد اللطيف) بعنوان:النبي زوجا وأبا - مجلة الهلال العدد العاشر- أول اكتوبر ١٩٧٢

- **ثالثا** " يقول الحسن بن علي رضي الله عنهما : سألت هند بن أبي هالة عن حلية رسول الله ﷺ ، وكان وصافا ، وأنا أرجو أن يصف لي منه شيئا أتعلق به فقال : كان فخما مفخما : يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر ، أطول من المربوع وأقصر من المشذب ، عظيم الهامة ، رجل الشعر ،عظيم الهامة ، إن انفرقت عقيقته فرق ، وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفره ، أزهر اللون واسع الجبين ، أزج الحواجب سوابغ من غير قرن ، بينهما عرق يدره الغضب أقنى العرنين ، له نور يعلوه ، ويحسبه من لم يتأمله أشم ، كث اللحية ، أدعج سهل الخدين ضليع الفم ، أشنب ، مفلج الأسنان ، دقيق المسربة ، كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة ، معتدل الخلق ، بادنا ، متماسكا ، سواء البطن والصدر ، بعيد ما بين المنكبين ، ضخم الكراديس ، أنور المتجرد موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجري كالخط ، عاري الثديين، أشعر الذراعين والمنكبين وأعلي الصدر ، طويل الزندين ، رحب الراحة ، شثن الكفين والقدمين ، سائل الأطراف ، عبل الذراعين خمصان الأخمصين مسيح القدمين ، ينبو عنهما الماء إذا زال زال تقلعا ، ويخطو تكفؤا ويمشي هونا ، ذريع المشية ، إذا مشى كأنما ينحط من صبب ارتقاد وإذا التفت التفت جميعا ، خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جل نظره الملاحظة يسوق أصحابه ، ويبدأ من لقيه بالسلام " [١٤٩] .

معاني بعض الكلمات : بلج وجهه : تنضر سرورا /أطول من المربوع بين الطول والقصر، والربعة : الوسيط القامة / القسامة : الحسن والجمال ، قسم الوجه : حسن فهو قسيم ، والقسمة ملامح الوجه ، ووسم : يوسم وسامة حمل وحسن حسنا وضيئا ثابتا فهو وسيم /المشذب : البائن الطول في نحافة / رجل الشعر : ليس بسبط ولا جعد وهو استرسال الشعر كأنه مسرح وهو ضد الجعودة /

١٤٩- محمد المثل الكامل – الأستاذ : محمد احمد جاد المولى – صفحة (٨ و ٩)

عقيقته : شعر رأسه / الحاجب الأزج : المقوس الطويل الوافر الشعر / القرن : اتصال شعر الحاجبين / القنا : أحديداب في الأنف / في صوته صحل : أي بحوحة وفي صفة رسول الله ﷺ حين وصفته (أم معبد) وفي صوته صحل كالبحة والصحل أيضا انشقاق الصوت وألا يكون مستقيما يزيد مرة ويستقيم أخرى / أدعج : شديد سواد الحدقة ودعجت العين دعجا : اشتد سواد سوادهما وبياض بياضهما واتسعت فهي دعجاء / ضليع الفم : واسعه عظيم أسنانه على التشبيه بالضلع وفي صفته ﷺ : ضليع الفم أي عظيمه وقيل واسعه . والعرب تحمد عظم الفم وسعته وتذم صغره وفي صفة منطقه ﷺ : أنه كان يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه . وذلك لرحب شدقيه . والأشداق : جانب الفم مما تحت الخد . وكانت العرب تمتدح رحابة الشدقين لدلالتها على جهارة الصوت . شدق شدقا : اتسع شدقه . وكان ﷺ يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه . الشداق جوانب الفم . وإنما يكون ذلك لرحب شدقيه / الشنب : رونق الأسنان وحسنهما / الفلج : فرق بين الثنايا / دقيق المسربة : الشعر المستدق من الصدر إلى السرة / البادن : ذو اللحم / المتماسك : الذي يمسك بعضه بعضا / الكراديس : رءوس العظام . يريد غليظ العظام والكردوس كل عظم عليه لحم / شثن الكفين والقدمين : الشثن : الغليظ وهذا من صفة النبي ﷺ التمام وأنه ليس هناك استرخاء / سائل الأطراف : طويل الأصابع / عبل الذراعين غليظهما / خمصان الأخمصين : متجافي أخمص القدم / التقلع : رفع الرجل بقوة / التكفؤ : الميل إلى سنن المشي وقصده . ويتكفأ : يتمايل في مشيته . وهذا مدح في المشي ؛ لأنه لا يكون إلا عند تؤدة وحسن مشي / الهون : الوقار / الذريع : الوسع الخطو / الصبب : العلو . وقوله في صبب . الصبب: الحدور . والماشي يترفق / آثرنا أن نورد ثلاثة أوصاف للنبي من ثلاث مصادر مختلفة . ومن غريب الأمر أن الثلاثة مصادر تكاد تكون متطابقة . وإن كان هناك اختلاف فيرجع إلى الواصف وليس الموصوف . أو يرجع لاختلاف مشاعر

وأحاسيس الواصف حينما وصف ، وأظن أن مشاعر المحيطين بالنبي تكاد تكون متشابهة ، فهي مزيج من مشاعر الاجلال والاحترام والتوقير والحب " لم يختلف الوصف مرة إلا كما تختلف نظرة الناظر إلى وجه واحد بين ساعة وأخرى . فيقول غير ما قال آنفا ثم لا يبدو التناقض ولا قصد التحريف بين القولين " [١٥٠]

○ أولا : الوجه :

الوصف هنا يدل على أنك أمام شخص يطيب لك أن - ليس أن تنظر إليه فحسب - تديم النظر إليه ، أن تمضي بعض الوقت تتملى تلك الملامح والقسمات لا لشيء إلا لأنك تشعر بنوع من الراحة والانبساط والانشراح ، مثل إدامتك النظر إلى أي شيء حولك جميل في الطبيعة ، مثل زهرة متفتحة ، شجرة ظليلة ، القمر وهو في ذروة اكتماله ، البحر ، السماء ، الزرع الأخضر ، الطير محلقا على صفحة السماء الزرقاء .. إلخ .

مع هذا الوجه وما ينطق به وما يوحي به ، لا تشعر أنك تديم النظر فحسب بل أنت منجذب إليه انجذابا إراديا ؛ لأنه يعمر أو يرضي جوانب ظمأى في النفس الإنسانية ، تلك السمات والملامح مفعمة بالحياة والحيوية المتجددة دوما ، وكانت (أم معبد) موفقة حينما قالت (قسيما) فهناك فرق دقيق بين القسامة والوسامة ، فالوسامة هي الحسن والجمال ، والقسامة أيضا بالإضافة أن هذا الحسن والجمال ثابت دائم موجود في كل ظرف وحال بمعنى أنك لا تمل ولا تسأم من النظر إليه لأنه كل لحظة نظر يعطيك شيئا جديدا ، تشعر أنك على درجات سلم ترتقي درجة إثر درجة وكلما ارتقيت ازددت قربا من نبع أو مصدر للإحساس بالراحة أو الرضا .

ولكن ألا نعد ذلك الوصف نوعا من المبالغة ، أو هو وصف المحب لمن أحبه ؟

١٥٠- عبقرية محمد - الأستاذ عباس محمود العقاد - صفحة (١٦٢)

وإذا كان ، فهذا لأن الرسول أهل للحب ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ليس هناك أي مبالغة ، لأن ما في داخل الرسول من مشاعر وأحاسيس من خير وحب لبني الإنسان انطبعت على أسارير وصفحة وجهه .ما في داخل نفس الرسول من صفاء وطهر ونقاء وسماحة وود ورحمة وشفقة وحنان وعطف وبر وحدب وتسامح ورأفة وكرم وسخاء وكرامة وعزة وإباء وشموخ كل هذا – ولا سك – لن نجد له نظيرا أو مثيلا في نفس أي بشر يسير على الأرض غير نفس رسول الله .وكل تلك المشاعر – ولا شك – سيكون له نصيب وأثر على الوجه ، إذن من المنطقي أنك لن تصادف وجها كوجه رسول الله ، ولا نقصد جمال الوجه ، ولكن نقصد دلالة وإمارات وسمات كل تلك المعاني على ملامح الوجه ، وأن يكون الوجه بمثابة معبر يعبر بك إلى تلك المعاني الراقية السامية الجميلة ، فنحن لا نحب الوجوه في حد ذاتها ، ولكن نحب ما تدل عليه وتجسده من معان ، بدليل أنك تحب أن تنظر إلى وجه ما في حالة ما ، وتكره أن تنظر إلى نفس الوجه في حالة أخرى ، إذن حينما يقول الواصف له : (تشع عيناه الدعجوان الواسعتان جاذبية وسحرا) و (ظاهر الوضاءة أبلج الوجه وسيما قسيما في عينيه دعج) و (يتلألأ وجه تلألؤ القمر ليلة البدر) لا نجد في هذا أي مبالغة من أي نوع ، بل هذا وصف في غاية الواقعية وفي منتهى الصدق ، وهل يستطيع أحد أن يجرد هذا الوجه الكريم من كل تلك المعاني؟ وهل يستطيع أحد أن ينفي أن كل تلك الملامح والسمات التي كان يتمتع بها رسول الله ؟ إن مجرد ذكر اسم رسول الله كفيل أن ينشر في نواحي النفس ودروبها مشاعر الأمن والسكينة والراحة والاطمئنان والرضا والوداعة والصفاء والطهر والنقاء ، نعم ، أن مجرد ذكر اسمه يرقق النفس ويلين مشاعرها ، بل يجعلها تذوب رقة وحنانا .

فما بالك لو وقع نظرك على وجهه الكريم ؟

○ ثانيا : اللون

كثير من الوجوه تمر بك أو تمر بها ، تصادفك أو تصادفها ، فلا تثير فيك أي إحساس أو شعور من أي نوع ، فهي لا تجذبك لأنها ليس لها أي صدى أو وقع في نفسك ، بل قد تنفرك وتبعدك عنها أو تبتعد عنها ، وهناك من الوجوه من تجذبك نحوها ، وتتأملها طويلا باحثا عن سر الجاذبية ، وقد تحار في ذلك ،لأنك لم تعثر عن هذا الذي جذبك ، وتجد مشقة في بحثك هذا ، وبعد ذلك قد تجد ما تبحث عنه ، وقد لا تجد ، وإذا وجدته فقد لا يرضيك لتفسير سبب جاذبيتك له أو إستهوائك له وربما تكون أنت الذي أضفيت من عندك على هذا الوجه مسحة من الجمال ، فهذا الجمال أو التناغم صاعد من نفسك أنت ، لأنك في شوق أن ترى وجها جميلا فشوقك وظمؤك للجمال ، أضفي على هذا الوجه ما أضفى ، وهناك من الوجوه من يستدرجك فى هدوء وتؤدة من خلال تلك الهالة المحيطة به ،مثل ضوء القمر الذي يجذبك بكل رفق ودعة لترفع وجهك إلى السماء باحثا عن منبع ومصدر هذا الضوء ثم تمضي بعد ذلك وقتا ليس بالقليل متأملا هذا الجرم السماوي في عليائه وما يبعثه فى نفسك من مشاعر الأنس والألفة ، كذلك لون وجه رسول الله ، فهو بمثابة الهالة التي يجذبك ضوؤها لتقودك إلى ملامح الوجه . فلون الوجه ليس بالأسمر وليس بالأبيض ،وإنما زهري اللون ، ويقال رجل أزهر : أي أبيض مشرق الوجه والأزهر الأبيض المستنير ،وزهر: تلألأ وأشرق ،وزهر: حسن وأبيض وصفا لونه والأزهر : كل أبيض صاف مشرق مضيء ، والأزهر : اللبن ساعة يحلب وهو الوضح الناهض الصريح " قال شمر : الأزهر من الرجال الأبيض العتيق البياض النير الحسن وهو أحسن البياض كأن له بريقا ونورا يزهر كما يزهر النجم والسّراج"[١٥١] وكأن اللون غلالة رقيقة شفافة تظهر ملامح هذا الوجه كأجمل وأفضل وأحسن ما يكون الظهور ، وكأنه دعوة صريحة لا تقاوم لتأمل ملامح الوجه .

١٥١- لسان العرب صفحة (١٨٧٧).

○ ثالثا : الطول والقامة:

لا يمكن أن ندرج الرسول بين طوال القامة ، ولا يمكن أن نعده من ضمن قصار القامة ،وإنما كان وسطا ، فالغالبية العظمى من ولد آدم لا هم من الطوال ولا هم – كذلك – من القصار ، وكأن الرسول لن يكلف الناس أن يرفعوا رؤوسهم أو يمدوا أعناقهم ليسمعوا عنه أو يتحدثوا إليه ، أو يحنوا رؤوسهم ليتلقوا عنه ، فهو لم يتميز عن الغالبية من الناس . وكان معتدل الخلق بادنا ليس بالنحيف ، وكان متماسكا ليس بالمتهالك أو الرخو أو الضعيف ، مستوي البطن والصدر، عريضا

○ رابعا : الهامة والشعر:

كان الرسول ضخم الرأس عظيم الهامة ، مبسوط الجبين مرسل الذقن عالي العنق ، وهذا يتناسب ويتناغم مع طول الرسول ومع بقية الأعضاء من ناحية ، ومن ناحية أخرى يدل على كثرة تلافيف المخ وكبر حجمه . أما شعره فقد كان أسود شديد السواد، كثيف مسترسل سواء كان ما يخص الرأس أو اللحية أو الحواجب أو رموش عينيه أو الذراعين أو أعلى الصدر.

○ خامسا :الذراعين والقدمين:

كان الرسول طويل الزندين ، عبل الذراعين أي ضخمهما، شثن الكفين ، أي في أنامله غلظ بلا قصر ، ويحمد ذلك في الرجال ؛ لأنه أشد لقبضتهم وأصبر لهم على المراس . وكانت راحته رحبه وأصابع يديه طويله ،و هذا يدل على القوة والبأس وأن حياة الرسول لم تكن حياة مرفهة أو ناعمة ، أوهو – ﷺ – اختار مثل تلك النوعية من الحياة الخشنة مثل بداية نشأته ،وطبعت ذلك على يديه ، وكان الرسول يرى أن الحياة كفاح وجهاد مستمر لا ينقطع ،وقوله (اخشوشنوا فإن النعمة لا تدوم) يفسر موقفه من الحياة .والقدمين – أيضا – لم يكن بهما إعوجاج أو إنحراف بحيث لو سكبت ماء عليهما لم يبقى عليهما أي أثر ، فهو مسيح القدمين ، كذلك القدمين ليس بهما أي عيب من أسفلهما ، ما نقول عليه في العصر الحديث (فلات

فوت) فقد كان أخمص الأخمصين ، والأخمص :باطن القدم ، وما رق من أسفلها وتجافى عن الأرض . وإذا كان خمص الأخمص بقدر لم يرتفع جدا ولم يستو أسفل القدم جدا فهو أحسن ما يكون ،فإذا استوى أو ارتفع جدا فهو عيب ، والمقصود أن اخمصه معتدل الخمص ، وهذا الأمر يؤثر تأثيرا شديدا في اعتدال واستواء الجسم وسهولة واستقامة حركته .

- سادسا :مشيته :

لكل شخصية طريقة في السير والمشي ، فالقوى له طريقته ، كذلك الضعيف له طريقته ، وللمتكبرطريقته ، وللمتواضع طريقته ، وقد نهى القرآن وذم طريقة معينة في المشي ، كذلك مدح ورغب في طريقة أخرى في المشي ، فطريقة المشي لها دلالة نفسية وسمة من سمات الشخصية ، وكان للرسول الله – ﷺ أسلوب مميز ومعروف به في طريقة مشيته . فهو كان يسرع الخطو ملقيا بجسمه إلى الأمام كأنما ينزل من مكان عال ،وكان يغلب على طريقته في المشي الوقار والتؤدة والهون ولكن في قوة ونشاط وحيوية . وكأنه أمامه هدف وغرض ومقصد واضح المعالم، يريد أن يصل إليه في أسرع وقت ومن أقرب طريق ، وكأنه لا يريد أن يبدد أي لحظة من عمره بدون أن يزداد إقترابا من هذا الهدف والمقصد . توجد قوة قدسية داخله تدفعه وتحثه أن يصل إلى هدفه ويكمل رسالته . أو أن الرسول دائما وأبدا مشغول البال والفكر، وعقله وفكره لايهدأ ولا يقف أو يكف لحظة عن العمل ، وحركاته تساير حركة فكره وعقله . وكانت تلك المشية مميزة عرف بها رسول الله دونا عن بقية الصحابة .

- سابعا الصدر :

تتوقف أمور كثيرة ومصيرية في حياة الإنسان العادي على سلامة صدره وأمر الهدى والضلال متعلقة بهذا الأمر . يقول الله – عز وجل – في كتابه الكريم

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ الأنعام: ١٢٥.

﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ الزمر: ٢٢.

وإذا كان هذا شأن الصدر مع الإنسان العادي، فإن الشأن مع الرسول أكثر أهمية، لأن أمور الدعوة، وما يتعرض الرسول له من أزمات ومآزق ومحن وشدائد في حاجة إلى صدر يتسع لكل هذا وأكثر. وقد وصف الرسول بأنه عريض الصدر بعيد ما بين المنكبين، وهذا الوصف يتناسب ويتوافق ويتناغم مع بقية أوصاف أعضاء رسول الله ﷺ، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، يدل على عظيم وجليل دور ومهمة هذا الجزء من بنية وكيان رسول الله، لذلك تكرر ذكره أكثر من مرة في القرآن الكريم، ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الأعراف ٢

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ ﴾ هود ١٢

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ الحجر ٩٧

ولكي لا تنال الأزمات والمحن من صدر رسول الله، تدخلت العناية الإلهية بشرح صدر رسول الله، ومن معاني الشرح: البسط والسعة والحفظ والفتح والبيان والفهم والكشف، وقد خاطب الله عز وجل معلنا لرسوله تلك المنة العظيمة التي التي إمتن بها عليه ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ ﴾ الشرح: ١

" والمراد بشرح الصدر هنا: توسعته وفتحه، لقبول كل ما هو من الفضائل والكمالات النفسية، وإذهاب كل ما يصد عن الإدراك السليم وعن الحق والخير والهدى.

obeikandl.com

وهذا الشرح يشمل الشق البدني لصدره – ﷺ – كما يشمل الشرح المعنوي لصدره – ﷺ – عن طريق إيداعه الإيمان والهدى والعلم والفضائل "[152]

إذن هنا حدث معنوى كان له أثر مادي، أو تهيئة وإعداد مادى في بنية الرسول لإستقبال عطاء وفيض رباني " لقد صرح الله – عز وجل – في كتابه بأن شرح صدره ﷺ فقال : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ الشرح ١، وشرح الصدر يعني التوسعة والقدرة على الاستيعاب وصحة الفهم وأريحية النفس واطمئنانها مما يعطي صاحب هذه الصفة القدرة على التلقي والفهم وبيان المراد في طمانينة وثبات وكل هذه المعاني من متطلبات الرسالة، يقول الشيخ محمد عبده : ((الشرح هو التوسعة والبسط ولقد كان شرح الصدر وسعته عند العرب دليل القوة وعظم المنة وكثيرا ما كان يفتخر مفتخرهم بعظم صدره ولهم الحق لأنه – أي شرح الصدر – يعطى الأحشاء فسحة للنمو مع الراحة الجسدية والنفسية فالقوي قاهر لما ينتابه فهو في مسرة وحضور رأي دائما لا يضيق زرعه بأمر لذلك كنوا بشرح الصدر عن المسرة وانبساط النفس إلى الفعل والقول "[153]

وفي هذا السياق يمكن أن نفهم المرويات التي تكررت عن شق صدر رسول الله أكثر من مرة وهو في الثانية من عمره، وهو في العاشرة، وبعد البعثة إبان رحلة الإسراء والمعراج، ولا يعنينا – هنا – إن كان الشق ماديا أو معنويا، فالأمر على أهمية عظيم وخطر هذا الجزء من بنية وكيان الرسول ﷺ " ومن خلال كلام الشيخ محمد عبده السابق ندرك أن الله عز وجل بشق صدر رسوله محمد ﷺ وشرحه قد جمع له الكمالين الجسدي والنفسي، ولهذا نقول إنه لا تنافي إطلاقا بين شق الصدر المعنوي بمعنى تطهير القلب وتنويره وجعله منبسطا منشرحا لا حرج

١٥٢- التفسير الوسيط للقرآن الكريم - الجزء الخامس عشر د. محمد سيد طنطاوي – صفحة (٤٣٦)

١٥٣- مقال بعنوان (إعداد الله لرسول محمد) د.الشبراوي محمد عبد الهادي الجهوري - مجلة منبر الإسلام - فبراير - مارس - (٢٠١٠) ربيع أول (١٤٣١)

فيه اضرار ولا ضيق وبين شق الصدر الحسي وتطهيره وتنقيته وإحداث الراحة النفسية والاطمئنان القلبي والرضا النفسي والهداية العقلية كما هو واضح في تنزيله

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴿١٢٥﴾ ﴾ الأنعام. ١٢٥ [١٥٤]

○ الثامن : الصوت

قالت (أم معبد) أن في صوته – ﷺ – (صَحَل) ، أي بُحُوحَةٌ ، الصَّحَل هوالبُحّة وألا يكون حادا ، " وفي حديث ابن عمر : أنه كان يرفع صوته بالتلبية حتى يَصْحَلَ أي يَبَحّ . وحديث أبي هريرة في نبذ العهد في الحج : فكنت أنادي حتى صَحِلَ صوتي ؛ قال الراجز :

فلم يزل ملبيا ولم يزل
حتى علا الصوت بحوح وصَحَل
وكلما أوفى على نشز أهل

قال ابن بري: وقد صَحِل حلقه أيضا ، قال الشاعر :

وقد صَحِلَت من النوح الحلوق

والصَّحَل: حدة الصوت مع بَحَحٍ ، قال اللحياني : الصحل من الصياح قال: والصحل أيضا انشقاق الصوت وألا يكون مستقيما يزيد مرة ويستقيم أخرى قال : والصَّحَلُ أيضا أن يكون في صدره حشرجة ".[١٥٥]

وهذا الصوت يعطي إحساسا بالشجن والحزن ، فهل تلك البحة في صوت رسول الله قد ولد بها أم هي طرأت عليه من كثرة ما مر به من أحزان ومحن وشدائد ؟ أم من كثرة قراءة القرآن ؟ هل هي راجعة إلى سبب من تلك الأسباب أم أنها راجعة إلى كل تلك الأسباب مجتمعة ؟

١٥٤- المصدر السابق – صفحة (٤٥- ٤٦)
١٥٥- لسان العرب – ابن منظور – صفحة (٢٤٠٥)

obeikandi.com

أيما كان الأمر، فإن تلك الصفة في الصوت تجعله يجد طريقه بكل يسر وسهولة إلى النفس؛ لأنه يشيع فيها الرقة والشجن والحزن والصفاء، مع هذا الصوت يشعر المستمع بالهدوء والهدهدة والطبطبة والمواساة والتعزية. هذا الصوت صدى لما في النفس - المتحدث والمستمع على حد سواء - وهذا ما يجعل الصوت أليفا ومألوفا، بسرعة وبدون مقدمات يزيل كل الحجب والموانع والمسافات بين المتحدث والمستمع. إن نبرة صوت المتحدث لك - وليس مضمون وفحوى الكلام - كفيلة أن تقنعك بكل حرف وكل كلمة، وكفيلة في نفس الوقت أن تثير في نفسك الكثير من الإرتياب والشكوك، والأمر لا يقف عند حد اقتناع من عدمه، ولكن الصوت كفيل أن يوقظ في النفس الإنسانية - بل يفجر - ينابيع المشاعر والأحاسيس. والذين آمنوا بالرسول من الصحابة لم يؤمنوا كلهم اقتناعا بما في القرآن من دلائل وبراهين دالة على صدق الرسول، لأنهم كانوا شرائح شديدة الاختلاف من ناحية والعلم والثقافة والإدراك والمعرفة. أظن أن الكثير قد آمنوا بالرسول لوقع حديث الرسول في أنفسهم ... نعم إن "الوليد بن المغيرة المخزومي" قد فتن وأعجب إعجابا بالقرآن حتى قال (والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يعلى) وقد قال الوليد ما قاله؛ لأنه عليم بدروب الكلام ومسالك الفصاحة، ولذلك أكد أنه ليس بكلام بشر. ولكن غير الوليد بن المغيرة والذي لم يؤتى ما أتاه الوليد من معرفة بالفصاحة والبلاغة آمن بمحمد وعدم علمه وإدراكه للفصاحة والبلاغة لم يضره ولم يمنعه من الإيمان، فالعلم بالفصاحة والبلاغة هنا لم ينفع الوليد، والجهل بها لم يضر من آمن بمحمد، لأن الكثير لم يعرضوا كلام محمد على عقولهم، وإنما عرضوه على قلوبهم، لا بل كلام محمد استولى على نفوسهم واستحوذ عليهم، فهم حينما كانوا يستمعون إلى النبي موصولون كأقرب ما يكون من النبع والمصدر وهو ملك الوحي، فلا يمكن أن نتأثر

بالقرآن الآن كما كان يتأثر الصحابة وهم يستمعون إلى الرسول وهو يتلو عليهم القرآن ،وهذا يدل على أن صوت رسول الله كان يتنوع ويتغير حسب المعاني القرآنية ويعطي لكل مقام ما يناسبه ويلائمه ويوافقه من نبرة الصوت . علوه وانخفاضه ومن حدته وشدته . ومثل هذا الصوت . وما به من بحه وانشقاق لا يكون جهوريا ، بدليل أن الرسول كان يندب أحد الصحابة ليبلغ عنه . مثلما حدث في حجة الوداع حينما كان (ربيعة بن أمية بن خلف) يبلغ عنه .

- تاسعا : منطقه

كان ﷺ ضليع الفم . ومن معانيه سعة الفم وقوته . والعرب تحمد عظم الفم ؛ لأنه يتيح لصاحبه التمكن والتحكم في النطق . وكان الرسول يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه . فهو يعطي لكل حرف من حروف الكلمة حقها التام والموفور بدون أن يطرأ على الحرف أو الكلمة اعوجاج أو انحراف . وطالما الفم واسع وقوي فجهاز النطق ومكوناته في أكمل وأتم صورته ويؤدي وظيفته على خير وجه ، أضف إلى ذلك سلامة وانتظام وصحة أسنانه . ولا ننسى أنه نشأ في بادية بني سعد وكان يفتخر بذلك " نشأ في بني سعد ورتبته في قريش عالية . فجمع من الكلام رونق الحضارة . وجزالة البادية .وأيد ببراعة خصه بها من حكم بتوفير قسمه : لأن مدده الوحي الذي لا يدركه البشر ولا يحيطون بشيء من علمه . كان صلى الله حلو المنطق . في كلامه ترتيل . كلامه فصل لا نزر ولا هذر . بين . يحفظه من جلس ويفهمه كل من سمعه . كأنما هو درر نظمت . لا فضول فيه ولا تقصير . ولو عده العاد لأحصاه .

نزه الله منطقه عن التكلف وتعقيد الصوت والتمتمة والفأفأة والرتة والتنطع والتمطق والتفيهق .وجعل منطقه مساوقا لطبيعة اللغة. فتم له إحكام الضبط وإتقان الأداء : فجاء لفظه مشبعا ولسانه بليلا وتجويده فخما . ومنطقه عذبا . ومصداق ذلك قول عائشة رضي الله عنها : ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسردكم

هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل، يحفظه من جلس إليه ، وفي رواية أخرى : كان رسول الله ﷺ يحدث حديثا لو عده العاد لأحصاه "[156] .

لذلك كان كل من يجلس إليه مستمعا كان يؤخذ بمنطقه ، ويدرك على الفور أنه لا يجلس أمام إنسان عادي ، ومن هنا تبدأ شخصية النبي تبسط سلطانها وتأخذ المستمع إلى عالم أخر من الصفاء والطهر والنقاء والأمن والسلام ، ومع تلك الثقة والوضوح والصراحة والمكاشفة التي تنضح من كلماته لا يملك المستمع إلا أن يقتنع اقتناعا كاملا ، لا بل هو يتجاوز تلك المرحلة إلى التسليم الكامل والخضوع التام لما يقول به النبي ، لذلك قالوا عن القرآن أنه سحر ، وقالوا - من ضمن ما قالوا - على محمد أنه ساحر ، والسحر والساحر يتأبى على كل عقل أو منطق ،كل ما يمكن أن يقال أنه قوة جارفة من شأنها أن تضعف أو تزيل أي مقاومة تحاول أن تمنع التأثر بهذا المنطق النبوي " ألقى الله على كلامه المحبة ، وغشاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وهو مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ،ولا يحتج إلا بالصدق ،ولم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ،ولا أصدق لفظا ، ولا أعدل وزنا ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين عن فحواه من كلامه ﷺ .

كان ﷺ يقتصر فى كلامه على قدر الكفاية : فلا يسترسل فيه هذرا ولا يحجم عنه حصرا ، وهو فيما عدا حالي الحاجة والكفاية أجمل الناس صمتا

١٥٦- محمد المثل الكامل - محمد أحمد جاد المولى - صفحة (٩-١٠)

وأحسنهم سمتا ، حلا كلامه فاستعذبته الأفواه حتى بقى محفوظا في القلوب مدونا في الكتب ، سالما من الزلل "[157].

○ عاشرا: محضره

لكل تلك الصفات التي ذكرناها والتي لم نذكرها لرسول الله – ﷺ – تميزت شخصيته بالثراء والتنوع والغنى ، وإن كل إنسان يجد فيه ما يبتغيه من مثل عليا ، ومن هنا كثر وتعدد وتنوع أصحاب رسول الله ، فمنهم السياسي ومنهم رجل الدولة ومنهم المفكر ومنهم الشاعر ومنهم المحارب ومنهم القائد ومنهم الزعيم ومنهم العابد ، وكل هؤلاء كانوا يجدون في رسول الله العلم والهدى والنور والرشاد ويلتمسون منه ما ينفعهم في دنياهم ودينهم ، وكان يطيب لهم أن يجلسوا إليه ويمكثوا وألا يفارقونه ليلا أو نهارا ، وهذا راجع إلى شخصيته وما يتمتع به سمات وصفات وخصائص تزيل من النفس الإنسانية تلك الحجب والموانع ، التي تجعلها بل تدفعها دفعا إلى أن تحب وتخلص في هذا الحب ، إخلاصا لا مثيل ولا نظير له وبدلا من أن نسأل لماذا كانوا يحبون رسول الله ، نسأل ولماذا يكرهونه ؟!

هذا إنسان صيغ من خير وجمال ، يحب كل الحب والخير للإنسان ، يتمنى من قرارة نفسه أن يهدى الجميع – بلا استثناء – إلى الهدى والرشاد ، عامرة نفسه بالعفو والتسامح والصفح والود ، عن كل ما ينشده الإنسان الخير السوى من معاني الرقي والسمو ، يجده مجسدا في شخصه ، حتى الذي كان يبغضه بغضا شديدا ، ما هى إلا مدة وجيزه ويجد الحب يتسرب إلى قلبه ، فيتحول البغض الشديد إلى حبا جارفا . " عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : بعث رسول الله – ﷺ – خيلا قبل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ((ثمامه بن أثال سيد أهل اليمامة ، فربطوه بسارية من سواري المسجد ، فخرج رسول الله – ﷺ – فقال ما عندك يا ثمامة بن آثال ؟ فقال : عندي يا محمد خير إن تقتلني تقتل ذا دم وإن

١٥٧- المصدر السابق – صفحة (١٢)

تنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت . فتركه رسول الله حتى الغد ، ثم قال : ما عندك يا ثمامة ؟ قال ما قلت لك إن تنعم تنعم على شاكر ، وإن تقتل تقتل ذا دم ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت . فقال رسول الله : أطلقوا ثمامة . فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد ان محمدا رسول الله ، يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلي ، والله ما كان دين أبغض من دينك فقد أصبح دينك أحب الدين كله إلي والله ما كان أبغض إلي من بلدك ، فقد أصبح بلدك أحب البلاد إلي ، وإن خيلك أخذتني وانا أريد العمرة فماذا ترى ؟ فبشره رسول الله وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل : صبوت ؟ قال لا ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ " .

الإنسان لا يكذب نفسه ، لا سيما وإذا كان الأمر متعلقا بمصير الإنسان في هذا الوجود ، وقد اعترف " ثمامة " أنه لا يبغض أحدا على وجه الأرض مثل بغضه محمدا ، وهي بالنسبة له حقيقة وجدانية لا يجد " ثمامة "غضاضة أن يجهر بها ، لا لشيء إلا لأن تلك الحقيقة - الوجدانية - تحولت في مدة وجيزة إلى النقيض ، وهذا ليس عيبا ، ولكن العيب كل العيب أن يتسم الوجدان بالثبوت والجمود والتحجر فدلالة الحياة أن تتغير المشاعر من الكرة إلى الحب أو من الحب إلى الكره ، أو تزداد المشاعر تألقا وقوة ، المهم أن يكون هناك حركة ، فوران ، عنفوان ، فالإنسان الحي كتلة من المشاعر والأحاسيس ، تزداد عند البعض توهجا واشتعالا وتأججا ، وتقل عند البعض، حتى إذا فارقت الحياة الجسد انطفأت وغاضت تلك المشاعر والأحاسيس .

إذن الأمر أكبر وأعظم أن أصف محضر الرسول أو الرسول بأنه لطيف المحضر ،أو أنه أجمل الناس وأبهاه من بعيد ، وأحسنه وأجمله من قريب ، ولكن

مدى تأثير وأثر شخصية محمد فيمن يقف أمامه ، فيمن يحدثه ويحاوره ويناقشه فيمن تلامس يداه يد محمد ، فيمن تلتقي نظراته بنظراته ، تلك شخصية إنسان تعامل وتعاطى واقتبس من ملك الملائكة ، الروح ، جبريل عليه السلام ، وتنزلت عليه كلمات الله ، وتجمعت فيه صفات وسمات وخصائص استدعت أن تختاره العناية الإلهية ليكون بشيرا ونذيرا للناس ، وأن يكون حاملا لأعظم وأبقى وأخلد معجزة على مر الزمان ، وهو القرآن ، وتجمعت واجتمعت الألسنة والقلوب والأفئدة على الشهادة له ، بعدما شهد الله – عز وجل – له .

نحن في العصر الحديث إذا قدر لفرد منا أن يقابل ذا منصب رفيع قد لا ينام ليله ، وقد يتعثر ويتلجلج ويرتج عليه ، ويتفصد عرقا ، أثناء المقابلة ، ويخرج من المقابلة غير مصدق نفسه أنه قد قابل ذا الشخص ، ويحفظ كلماته كلمة كلمة ويحتفظ بكل إشاراته وإيماءاته ، ويعتبر ان تلك المقابلة - المقابلة في حد ذاتها – نوعا من التكريم له ، وكل ما يتمتع به الشخص الذي قابلته ، أنه ذو منصب، مديرا كان أو محافظا أو وزيرا أو رئيسا ، وأن هذا المنصب يضفي على صاحبه هالة من الكبرياء والاعتداد والثقة ، وكل هذا – ولا شك – له تأثيره فيمن حوله . فما بالك لو كانت تلك المقابلة مع رسول الله ﷺ ؟.

لاننكر ولا أحد ينكر أن لشخصية الرسول تأثير عظيم فيمن حولها ، وإن هذا التأثير كفيل أن يزيل أي نوع من المقاومة أو العناد أو الإصرار على الوقوف موقف العداء أو الخصام لرسول الله ، فالرسول يستطيع أن يعرف ما يدور داخل نفس محدثه او من يقف أمامه او يقابله ، ليس هذا فحسب ، بل يدرك الطريقة أو الأسلوب الأمثل للتعامل ، أو العلاج الناجع لمرضى النفوس ، والمواقف كثيرة في سيرة الرسول ، والتي أثبتت وبرهنت علمه وخبرته ودرايته بما يطبب تلك النفوس وموقفه من فضالة خير مثال على ذلك " وفضالة بن عمير بن الملوح عندما أراد قتل النبي وهو يطوف بالبيت عام الفتح ، فلما دنا منه قال رسول الله أفضالة ؟

obeikandi.com

قال : نعم فضالة يا رسول الله .

قال : ماذا كنت تحدث به نفسك ؟

قال : لا شيء ، كنت أذكر الله

فضحك النبي ثم قال : استغفر الله .

ثم وضع النبي – ﷺ – يده على صدره فسكن قلبه ، فكان فضاله يقول : والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إليّ منه " .

أراد قتل النبي

ومن يريد قتل إنسانا ، أي إنسان فإن ، إيماءاته وإشاراته إلتفاتته. نفضح ما يحاول أن يخفيه .

فما بالك من يريد قتل نبيا ، ومن ؟ رسول الله .

لا شك أن الرسول عرف وأدرك ما ينويه ويدبره هذا الرجل .

أو أنه ألهم ذلك .

أيما كان الأمر ، فإن الرسول سمح للرجل أن يقترب منه ويدنو ، ليس هذا فحسب بل مد يده الشريفة إلى صدر الرجل ، ما هي إلا لحظات حتى برأ صدرالرجل من كل كراهية للرسول ، ليس هذا فقط بل تحول هذا الكره إلى حب ليس هذا فقط بل صار الرسول أحب خلق الله إلى قلب الرجل .

كل هذا حدث . وما كان له أن يحدث لولا أن الرجل في حضرة الرسول .

وليس لنا أن نسأل لم وكيف تحولت كل تلك الكراهية إلى كل هذا الحب .

ولكن لنا أن نسأل لم الكره لشخص رسول الله ؟

فليس هناك سبب واحد لكراهية رسول الله .

وتوجد ملايين الأسباب لحب رسول الله ، بل ليكون أحب المخلوقات إلى قلب الإنسان ، أي إنسان .

وأن تقف أمام رسول الله ، أو يقف أمامك رسول الله ، أوتحدث رسول الله أو يحدثك رسول الله ، وتلمس رسول الله أو يلمسك رسول الله ، فجأة يمتلأ كيانك بهذا الوجود النوراني ، والحضور الملائكي الرباني ، في تلك اللحظة يبدأ تاريخ الوجود الحق للإنسان ، من لحظة أن ينبض القلب بحب هذا الشخص الكريم وإنها لأشرف وأطهر نبضة ينبض بها قلب المخلوق .

صلاة ، وسلاما..... عليك يار رسول الله .

obeikandl.com

الفصل العاشر

أعظم الفتوحات

" إنه ما من رجل غير محمد نذر نفسه لهدف أسمى كهذا الهدف ، فقد كان هذا الهدف مما يفوق القدرة البشرية ، هدم المعتقدات الباطلة التي تتخذ زلفى ووساطة بين الخالق .. ، رد الله إلى الإنسان ، والإنسان إلى الله ... ، الفكرة العقلانية والقدسية للألوهية الصحيحة في هذا السديم من الشرك والوثنية .... ما من رجل سوى محمد انجز بمثل وسائله الضعيفة عملا كهذا العمل الذي يتجاوز المألوف ويفوق طاقة البشر ، ذلك لأنه لم يعتمد في تصوروانجاز مقصد عظيم كهذاالمقصد إلا على نفسه ، ثم قلة من الامين في ركن من اركان الصحراء .

ثم انه ما من رجل عدا محمد استطاع أن في مثل هذا الوقت القصيرترقى إلى مثل هذه العظمة والاستمرار، إذ ما أن مضى اقل من قرنين على مبعثه حتى ساد الإسلام المبشر به ارجاء البلاد العربية كلها كاسبا لتوحيد الله كلا من الفرس وخراسان وجنوب الاتحاد السوفيتي والقوقاز ، وأسبانيا ، وجزءا من بلاد الغال".

ه شاعر فرنسا الكبير : لامرتين.

obeikandl.com

لقد شهدت الإنسانية الكثير من الفتوحات في مختلف المجالات . وتلك الفتوحات هي التي أعطت للإنسانية وجهها المشرق الوضاء ، ودفعتها في مضامير التطور والتقدم ، سواء في المجالات الفكرية والعلمية والأدبية . وأصبحت الإنسانية تدين لأصحاب تلك الفتوحات وتجلهم ، وتبوأهم مكانة عظيمة تتناسب وما قدموه للإنسانية .

ولكن أعظم تلك الفتوحات ، الفتوحات التي تمت في مجال الضمير الإنساني . لأن أي تطور أو تقدم إن لم يكن دافعه ومحرضه الضمير فلا قيمة له؛ لأن الضمير هو أنبل وأشرف محفز للإنسان ، أن يضع مصلحة الإنسانية فوق كل وأي إعتبار

وهناك من يعتبر أن الفتوحات العلمية هي أعظم تلك الفتوحات . لأنها هي التي نقلت الإنسانية أو عبرت بها من مرحلة إلى أخرى ، أو خلقتها خلقا آخر ولولا تلك الفتوحات العلمية لبقى الإنسان وظل في ربقة الجهل والتخلف ، تمضي عليه القرون فما تزيده إلا تخلفا وتأخرا ، ولكن إذا نظرنا إلى تلك الفتوحات فسنجد أنها ما كانت لتفتح للإنسانية أبوابا وطرقا ومجالات إلى المستقبل إلا بقدر ما توافر لدى أصحابها قسطا ونصيبا من بواعث ونوازع الضمير ، وإلا لظلت تلك الفتوحات مجرد أفكار هائمة في رؤوس أصحابها ، أو لبقيت حكرا على فئة دون فئة ، وهذا في حد ذاته ينتقص من كونها فتوحات ، لأن الفتوحات لا تعد كذلك إلا لأن نفعها عم البشرية بأسرها ، من تحمل ضريبتها أو من لم يتحمل ، من بذل في سبيلها الكثير ومن لم يقدم أي شيء ، ولابد أن تصدر البشرية حكما وصكا أن هذا فتح أفادها في ماضيها ويفيدها في حاضرها ، وسينفعها في مستقبلها والإنسانية لا تشغلها المنافع المادية أو العاجلة ، بقدر ما يشغلها ما ينفعها في آجلها ، ويقوم منها الضمير ، وما يجعل أحكامه هي المهيمنة ، وهو القاضي الذي تلجأ إليه كلما دفعها دافع إلى ذلك . وكل تلك الأوصاف لا تنطبق بحق إلا على الرسالات السماوية ، فهي الفتوحات التي شهدتها الإنسانية على مدار تاريخها

الطويل ، لأن كل تلك الرسالات قد أكدت على شيء واحد ، أن الضمير يجب أن يقود الإنسان في حياته على تلك الأرض ، وليس شيئا آخر .

نعم ، كثير من الدعوات والرسالات لم تنل قسطا من النجاح ، والبعض وصل إلى درجة متواضعة من التوفيق والنجاح ، ولكن لا ينكر أن حتى تلك التي لم توفق تركت أثرا ، وسجلت علامة ونبهت الأذهان ، بل وبعثت النبض في الضمير وهذا النبض - وإن كان ضعيفا - فهو دليل - وإن لم يكن قويا - على صحته الكاملة ، إلا أنه إشارة على أن الضمير لم يمت ، وأن هناك أنفاس متقطعة واهنة تتردد بين الحين والآخر ، وأن هناك حركة ضعيفة تلمحها العين الفاحصة . وأعداء الضمير على مر التاريخ أرادوا أن يكون الضمير على تلك الدرجة من الضعف والوهن ، ليس هو بالميت ، وليس هو بالحي ، أما لماذا لم يجهز على الضمير ، ويوجه إليه طعنة قاتلة ويستريح أعداء الضمير منه ، فهذا يرجع لأمرين :

- أن الضمير هو صوت الله الذي يتردد بدون توقف في هذا الكون الواسع أو هو نور الله ، والصوت والنور من المكونات الأساسية والأصيلة في هذا الكون ، وأن تهدم هذا الكون ، فهذا شيء خارج طوق وقدرة الإنسان ، إذن الضمير قدر مقدور على البشرية .
- أعدى أعداء الضمير يريدونه ويحافظون عليه ، لا لكي ينتشر ويسود في حياة الناس ، ولكن ليهمنوا ويتحكموا فيه ؛ لأنهم يعلمون أنه قادر على أن يعيش في أي مكان وتحت أي ظروف قاسية ، وكذلك قادر على أن ينمو ويكبر ، وأن يكون له الكلمة العليا ، وهذا يمثل أكبر الخطر عليهم ، وعلى مشاريعهم ، أما لماذا لا يتخلصون منه نهائيا ؟ لأن أكبر مكاسبهم ما يحققونه باسمه ، فكيف يخدعون الآخرين الخديعة الكبرى إلا وهو معهم ولكنه ضمير مروض ، مخدر ، مسلوب الإرادة ، ممنوع عن الفعل والعمل

obeikandi.com

وعندما يستعصى الضمير على الترويض والخضوع ، ويعلن عن نفسه ، ويبدأ في أخذ حقه المشروع ، فإنهم يضحون به على أقرب مذبح !

وتاريخ البشرية حافل بالمواقف والمواقع والمعارك ، التي ذبح فيها الضمير ذبحا مجسدا في صورة أنبياء ورسل ومصلحين وقادة وثوار ، وقفوا صامدين أمام الظلم والاستبداد والبطش والجبروت ، وكانت نهاية بعض هؤلاء مؤسفة في زمانهم ، ولكن كانت مناط العظمة والعبرة لكل الأجيال المتعاقبة ، وملهما ودافعا وباعثا لاستمرار روح الضمير تطوف في سماء الإنسانية ؛ لتبقى شاهدا على سمو ورقي هذه الجبلة التي شاءت إرادة الله أن تشتمل على قبس من نور وصوت الله عز وجل .

وعلى قدر عظمة الفتح تكون القوة المناهضة والمعارضة له ، وإذا كانت طموحات الفاتح متواضعة هينة ، فإنه يستدعي ويستنفر ويستثير من المعارضة ما يتوافق وتلك الطموحات ، وإذا كانت طموحاته بلا حدود ، فالمعارك التي سيثيرها ستكون بلا حدود ايضا .

وطموحات رسول الله – ﷺ – أو طبيعة الدعوة التي نذر نفسه لها ليست لها حدود ، فقبل أن يستقر الأمر له في الجزيرة العربية ،وما يزال الإسلام غضا طريا ، وعود المسلمين ما يزال لينا ، يتلقى الضربات والطعنات من هنا وهناك ، أرسل النبي رسله إلى خارج الجزيرة لأكبر إمبراطوريتين في ذلك الوقت ، وأيضا إلى النجاشي وإلى مصر ، يدعوهم إلى الدخول في الإسلام .

وبالفعل أثارت تلك الدعوات التي وجهها رسول الله الكثير من الغضب عند البعض ، حتى أن الروم فكروا في تجهيز حملة تخترق الجزيرة العربية وتأتي بهذا النبي مقرنا في الأصفاد عقابا له على جرأته في مخاطبتهم بتلك الطريقة وهذا الأسلوب !

دعوة تلك طبيعتها ، أنها إلى الناس كافة ، ممتدة ما امتدت الأرض أمامها متسعة ما اتسع الفضاء .

وداع تلك طبيعته وشخصيته ، يجسد الدعوة تجسيدا صادقا ، يرى أن تكون دعوته هي الكلمة الأخيرة في النشيد الإلهي المقدس لأهل الأرض ، وأن تلك الكلمة - التي لا كلمة بعدها - ينبغي أن تعيها كل الأذان ، وأن تستوعبها كل القلوب ، وأن تفهمها كل العقول ، وأن تكون من القوة والوضوح والسطوع ، وأن لا شيء يحجبها وان لا شيء يخفيها ، وأن لا شيء يمنعها عن الناس أو يمنع الناس عنها . وأن لا تتعرض الدعوة - كما تعرض غيرها - للخذلان والهزيمة والخديعة .

طبيعة الدعوة هنا ، وطبيعة شخصية الداعي ، تحتم أن تكون القوة ليست ترفا أو وسيلة أو صورة ، القوة هنا والسيف من صميم الدعوة ، بحيث إذا تخلت الدعوة عن القوة ، فقد تخلت عن جزء من طبيعتها ، وإذا تخلت عن هذا الجزء - بالتحديد - فقد تعرضت للانكشاف ، وإذا انكشفت فإن بنيانها الشامخ والراسخ قابل لأن يتداعى وينهار .

وأصحاب الدعوى أن الإسلام انتشر بالسيف .

وأصحاب الدعوى أن الإسلام لم ينتشر بالسيف .

كلاهما على خطأ ، لأن كلا الرأيين يفصل بين الدعوة وطبيعتها ، أو يريد أن يجزئ شيئا لا يتجزأ ، أو يفصل شيئا واحدا . فليست القوة من آليات الدعوة الإسلامية ، وليست القوة من أساليب وطرق الدعوة الإسلامية ، القوة هنا من طبيعة الدعوة . الفرق هنا كالفرق بين وجود نبي وحوله وأمامه وعلى يمينه ويسارد جنود تحرسه وتدافع عنه وتنافح دونه . وبين نبي هو من يتولى حراسة نفسه والدفاع والجهاد عن نفسه ، ليس هذا فحسب بل من حوله يحتمون به ويلوذون به ويلجئون إليه ، ويستمدون منه القوة والشجاعة .

فالقوة بالنسبة للدعوة ليست كالسلاح للجندي ، يحمله وقت اللزوم ، ويتركه حينما لا يكون في حاجة إليه ، القوة نسيج حي من أنسجة الدعوة الإسلامية ، خلية أو خلايا رئيسية تدخل في تكوين كيان الدعوة ، وإذا أبطلت عمل تلك الخلايا

فأنت لا تدري مدى الخلل الذي سيتغلغل في الكيان ، ولا تدري متى يتقوض ويتداعى هذا الكيان .

ولكن أي قوة ؟

حينما تعرف ملامح وسمات ومجال استخدامات تلك القوة والمحظورات والموانع المحاطة بها ، تدرك أن السيف في الإسلام لم يكن سيفا مسلطا على رقاب العباد ، ولكنه كان كمبضع الجراح لا يزيد ولا يجور ولا يتعمق أكثر مما هو مسموح به بأي حال من الأحوال ، وإذا استخدم فهو يستخدم لبتر واستئصال الأجزاء المريضة المتليفة الخبيثة التي يمثل بقاؤها خطرا محققا على الكيان الحي ، فهي أجزاء متسرطنة أكل وأتلف ودمر السرطان خلاياها ، وسوف ينتقل ويتسرب في صمت رهيب وسكون مفزع إلى بقية أعضاء الكائن ليدمر ويتلف ويميت ... إنما البتر ليس قسوة ، والاستئصال ليس تحجر مشاعر ، ولكنه في قمة الرحمة وفي ذروة الشفقة ، فكل ما تفعله رائدك وهدفك هو استبقاء الكائن الحي وانقاذه من موت محقق ، من نهاية مأساوية سيصل إليها عن طريق الالام والمعاناة والعذاب .

يكفي أن القوة هنا الذي سمح واذن باستخدامها هو اللّه - عز وجل - والمستخدم لها هو نبي ، والجيوش هي جيوش نبي تأتمر بأوامره وتنتهي بنواهيه .

" وهو دين يعلوا بالقوة ويدعو إليها ، ويريد إخضاع الدنيا وحكم العالم ويستفرغ همه في ذلك ، لا لإعزاز الأقوى وإذلال الأضعف ، ولكن للارتفاع بالأضعف إلى الأقوى ، وفرق ما بين شريعته وشرائع القوة ،إن هذه إنما هي قوة سيادة الطبيعة وتحكمها ، أما هو فقوة سيادة الفضيلة وتغلبها ، وتلك تعمل للتفريق ، وهو يعمل للمساواة ، وسيادة الطبيعة وعملها للتفريق هما أساس العبودية ، وغلبة الفضيلة وعملها للمساواة هما أعظم وسائل الحرية "[158] .

١٥٨- من مقال بعنوان (الإشراق الإلهي وفلسفة الإسلام) مصطفي صادق الرافعي- مجلة الأزهر ربيع الأول ١٤٣٣ ـ فبراير ٢٠١٣ الجزء ٣ السنة " ٨٤"

إذن طبيعة الدعوة الإسلامية تستنفر وتستفز جيوش لا حصر لها من الأعداء والمعارضين ؛ لأنها دعوة – ولأول مرة في التاريخ الإنساني – تخطت الزمان والمكان، ليس هذا فحسب بل هي التي تصوغ زمانها ومكانها، ولن يتأتى لها ذلك إلا إذا أصبحت كل الأمكنة هي مكانها، وكل الأزمنة هي زمانها.

وطبيعة الداع – النبي – تستنفر وتستفز العد . . فما فطر عليه – ﷺ – من قوة وصلابة وإرادة وتصميم ومضاء عزم وقناة لا تلين وعزيمة وحماس لا يفتران وعدم قبول بأنصاف الحلول، كل هذا يجعل هناك نوعية وحيدة من العلاقات التي تربط بينه وبين من حوله، فإما أن تنضوي تحت لواء دعوته، وإما أن تتركه لشأنه وتذهب لشأنك، وإما أن يكون التحدي، التحدي المصيري، الذي يدفعه أن يضحي بأي شئ وكل شئ في سبيل الوصول إلى هدفه وتحقيق قصده. وفي فصول هذا الكتاب، قلنا أن هناك تطابقا وتكاملا وتوافقا تام بين الدعوة وصاحبها فشخصية النبي مستمدة ملامحها وخطوطها وسماتها من الدعوة. وشخصية محمد تجسيد حي لتلك الدعوة. فإذا كانت القوة مكونا أساسيا، أو طبيعة من طبائع تلك الدعوة. فشخصية الرسول كذلك، تنطق في كل أقوالها وأفعالها بتلك الطبيعة.

هذه الخصيصة في شخصية محمد تلقي الضوء وتفسر الكثير من القضايا فالبعض يتعجب، من أين استمد محمد تلك الخبرة العسكرية في قيادة الجيوش وهو لم يسبق له أن خاض أي معركة أو تلقى خبرة عسكرية من أي قائد، أو عمل تحت إمرته ليعلمه من فنون الحرب وأساليب القتال ؟ ومع ذلك لم يخض الرسول غمار أي غزوة إلا وحالفه التوفيق وكان النصر يسير في ركابه أينما سار.

قد يجيب البعض بأن هذا التوفيق والسداد والنجاح في غزوات الرسول راجع إلى الوحي الذي يهديه ويرشده.

ونحن لا ننكر ذلك، ولكن كثير من الغزوات التي خاضها الرسول والمسلمون كانت نتيجة تدبير عقلي صرف، وأن الوحي لم يتدخل لا من قريب ولا من بعيد

وأن الوحي لم يشر على الرسول بأي خطة أو مناورة أو حركات تكتيكية ، وأن الرسول في تلك الحالة وهذا الموقف لم يستهد ولم يسترشد سوى بعقله وبعد نظره وسداد رأيه ومشورة الصحابة .

ولكن هذا يحيلنا إلى البداية التي بدأنا منها ، ويظهر السؤال أمامنا مرة أخرى : كيف تسنى للرسول هذا النجاح والتوفيق في كل غزواته ، حتى تلك التي هزم فيها المسلمون ، فما حدث في تلك الغزوات لم يكن راجعا إلى سوء تخطيط أو إلى سوء تقدير ولكن كان راجعا إلى مخالفة تعليمات وأوامر القائد ، وعدم الالتزام الحرفي بأوامره .... كيف لرجل يقود تلك الجيوش ، وهو لم يتدرب ولم تكن له خبرة سابقة ، ولم يؤثر عنه قبل ذلك أنه قاد حتى سرية ، ولم يؤثر عنه الميل أو التفكير بأي شيء يتعلق بأمر الحرب والكر والفر ؟

ولكن من قائل أن النصر في الحروب راجع إلى خبرة وعلم ومعرفة القائد ؟

فالتاريخ يحدثنا أن أكثر القواد خبرة وعلم ومعرفة ، كل هذا لم يمنعهم من أن يذوقوا مرارة الهزيمة ، وكسرت جيوشهم وهزمت شر هزيمة .

إذن ليس العلم والخبرة والدربة هم الأسباب الوحيدة التي يكون عليها المعول في النصر أو الهزيمة ، بل هي أسباب من ضمن أسباب أخرى ، قد لا تكون فعاله إن لم تنضم أو ينضم إليها بقية العناصر ، بل إنها قد تورد الجيوش موارد الخسران والهزيمة إن اعتمد عليها القائد دون غيرها ، لأن الخطة التي يضعها القائد قد تكون خطة عبقرية لا مثيل لها ، ولكن كل هذا والخطة ما تزال أفكارا هائمة في رأس صاحبها ، أو خطوط متعرجة أو مستقيمة أو متقاطعة على الورق أو على أرضية الميدان ، أما حين تطبق تلك الأفكار وتجسد تلك الخطوط في الواقع وعلى الأرض ، ومن خلال الآلاف من البشر ، مطلوب منهم الشجاعة والجرأة والتضحية بأنفسهم وأرواحهم وبذل مهجهم والاستماتة والصبر .... فالأمر هنا مختلف ، بل أن التاريخ يحدثنا أن كثيرا من الأفكار والخطط حينما نفذت وطبقت على أرض

الواقع تغيرت تغيرا كاملا ، بل لا يكاد لا يكون هناك أي علاقة بين ما وضع على الورق وما نفذ سواء كانت النتيجة نصرا أو هزيمة .

إذن الجيوش لا تقاد بأفكار أو خطط ، كذلك النصر لا يتحقق بتلك الأفكار والخطط ... الأمر أكبر من ذلك وأشمل وأخطر وأعقد .

ورب سائل يسأل : هل إذا توافرت الأمور - بل كل الأمور - للقائد ، ولم يتوافر العلم والخبرة والخطط والأفكار ... هل هذا يحقق النصر ؟

الإجابة بالنفي طبعا .

فكل الأمور لا تغني عن العلم والخبرة والخطة المحكمة والأفكار المبتكرة فنحن لا نستبعد أي عنصر من العناصر المحققة للنصر ، وإن كنا نستطيع أن نقول أيهم أهم وأيهم الأهم ، فهنا يجب أن يحدث تكامل وتجميع للعناصر ، وليس إنقاص أو تشتيت أو تفريق .

إذن لا غنى عن العلم والخبرة .... فمن أين حصل عليها رسول الله ؟

ينبغي أن نوضح أولا أن العلم والخبرة والمعرفة وسائل أو طرق أو أساليب نتبعها أو نسترشد بها لتصل بنا إلى نتيجة مرجوة أو مبتغاة . أو قل إنها طرق ووسائل وأساليب لترقية العقل أو صقله أو إكسابه القدرة والاستطاعة على حسن التصرف ، أو فتح أمامه سبلا متعددة للحركة والتصرف ، أو إمداده بالبدائل الكثيرة والمتعددة - وأيضا - تمكينه من اختيار أفضل وأحسن البدائل التي تساعد وتساهم في تحقيق الهدف في أسرع وقت وبأقل جهد أو كلفة .

وإن لم يحقق العلم والمعرفة والخبرة هذه النتائج فلا قيمة لهم ، وكثيرا ما وجد العلم والمعرفة والخبرة ولم نر أي نتيجة ، فليس من اللازم اللاذب أن يكون لكل علم ومعرفة وخبرة نتيجة ، كذلك ليس من اللازم اللاذب أن يكون هناك نتيجة لكل علم معرفة وخبرة .

وتفسير ذلك يرجع إلى الشخصية .

obeikandi.com

هنـاك شخصـيات في غنى عـن العلم والخـبرة . لـيس لأنهـا ليست في حاجـة إليهـا . ولكـن لأنهـا وهبـت طبيعـة خاصـة . تلـك الطبيعـة الخاصـة وصلت بهـا وفي أحيان كثيرة تجاوزت ما يصل إليه الشخص بالعلم والخبرة . فالعلم والخبرة يـزودا ن شخصية الإنسان بخصائص وسمات ما . تلك السمات والخصائص هي التي تفرق بين الإنسان العالم الخبير وبين غيره مما لم يحصل على تلك الأمور. تلك الخصـائص والسمات هناك شخصيات تحصل عليها بغير تلك الطرق . خلقت بها وصلت إليها بطريقـة مـا . بغير تلـك الطـرق المتعـارف عليهـا . هـذا الشيء تجـده بـين الحشرات والطيور والحيوانات .

فهن يدركن أمورا أو يسلكن سلوكا ما أو يتصرفن تصرفا ما . تلك الأمـور أو السلوك أو التصرف معقد بصورة كبيرة بحيث ينالك العجب . كيف لـ. ' ت الكائنات أن تتصرف على تلك الصورة وهي لم تنل قسطا من التعليم أو المعرفة أو حتى الخبرة .

وقـد حللنـا – نحـن البشـر – تلـك المعضلة – بالنسبة لنـا بـأن قلنـا إن تلـك الكائنـات تتصـرف بـوحي من الفطرة او الغريزة . هـذه الفطرة أو الغريـزة تغني عـن كل تعلم ومعرفة وخبرة . بل أن الذي تعلم وعرف ومارس الخبرة يعجز أن يتصرف على مثالهن ؛ لأن الـذي تعلم وعرف وخبر قد تخونه تلك الأمور . أو تتخلى عنـه في بعض المواقف أو يسئ استعمالها أو يخطئ في التصرف أو .... أو.....

لأن العلم والخبرة لم تنزل من كيانه منزلة الطبع والسليقة . وإنما هي أشياء مكتسبة . وتظل مكتسبة . أي طارئة على شخصيته . وهناك فرق هام بين من يتصرف بوحي الفطرة والغريزة . ومن يتصرف وفقا لما تمليه عليه خبرته وعلمه .

أن الأول لا يملـك أن يبـدل أو يغـير أو يحـول أو يوقـف إمـلاءات الفطـرة والغريزة . أو أن يقلل من حدتها أو سورتها . كذلك ليس هناك من سلطان عليها حتى صاحبها . فهي تصدر عنه كما يصدر الضوء عن الشمس . والنور عن القمر

والأريج عن الزهرة ، بينما الثاني يناقض هذا تماما في كل شئ ، فقد يتصرف العالم الخبير تصرف الجاهل العاطل من كل خبرة ، وقد يتعرض لضغوطات ومؤثرات تجعله يغفل أو ينسى أو يغير أو يبدل ويحول ... إلخ .

ومع ذلك فالمعتمد والمعترف به عندنا نحن البشر هما العلم والخبرة ، وليس شئ آخر ، لأن أمر الفطرة أو الغريزة لا يتوافر وجوده إلا في أحاد الناس كالأنبياء والرسل والقواد والزعماء ، أما الملايين فالأمر معهم يرجع إلى العلم والخبرة والإنسانية لا تستطيع أن تقيم بنيانها العلمي على ما لا يتوافر إلا في أحاد الناس ولا يوجد في الملايين ، ولكن وجوده في الأحاد وعدم وجوده في الملايين لا ينفيه بل يؤكده ويثبته .

○ الأمر بالنسبة لمحمد ﷺ :

وليس معنى أن محمدا رجل أمي ، لم يتلق علما كغيره ، لأنه لم يقرأ والقراءة هي الوسيلة الرئيسة في تلقي وتحصيل العلم ، ليس معنى أنه لم يحصل على العلم بالطرق المتعارف عليها أنه جاهل أو عطل من أي علم أو معرفة ، فلديه من السمات والخصائص والخلال والمواهب ما يمنحه العلم والمعرفة والخبرة ، بل أكثر بكثير ، فالعلم والخبرة المكتسبة لها حدود ، محدودة بزمانها ومكانها ومصدرها وبحالة المرسل لها وبحالة المستقبل لها ، ووليدة العقل والمنطق أو هي خاضعة له وهذان – أيضا – لهما حدود ومستويات ، الأمر مع محمد تجاوز كل تلك الأمور وربما تكون هذه هي الحكمة من وراء جعله لا يقرأ ، حتى لا يشغل بما يمكن أن يتلقاه من علم ومعرفة ، عما هو مركوز في فطرته وثابت في طبعه ، أو أن يحجب ما أكتسبه ما هو فطري ، أو يقلل ما هو تطبع في شخصيته عما هو طبيعي ، فمحمد لم يحصل على العلم والمعرفة من مصدر بشري ، كيف وهو المصدر لكل علم ومعرفة ؟ ومحمد لم يكن في حاجة لأنه هو المنبع ، ومع ذلك فقد فتح عقله وفكره لكل ما في زمنه من علم ومعرفة ، لتكون متواصلة ومتجاوبة ومتفاهمة ومتفاعلة مع قضايا

ومشكلات ومآزق زمنه ، أو قل أن تلك الشخصية اشترت أجمل وأفضل وأحسن ما في رياض العلم والمعرفة ، واصطفت واختارت ماله نفع وجدوى للإنسان ، وما أخذه طبقه بعيدا عن الهوى والمصلحة الشخصية ، فكل ما فعله كان رائده النفع للإنسانية ليس في حاضرها فحسب ، بل أيضا في مستقبلها ، ليس القريب ولكن البعيد ، بل ما ينفعها طالما كانت موجودة فوق تلك الأرض .

والعلم والمعرفة مع محمد ، ليس كالعلم والمعرفة مع غيره ، فكثيرا بل دائما ما أثرت شخصية العالم على علمه ، وتدخلت نوازع وميول الشخصية في تحجيم درجة الإفادة من هذا العلم ، بل أن التاريخ يحدثنا أن كثيرا من العلماء قد أضروا البشرية بعلمهم أكثر مما نفعوا .

وقد كان محمد متواضعا متسامحا متفتح العقل والوجدان ، محبا للحياة وللبشر والخير والجمال ، يقدر القيمة الإنسانية ، لا يزدري منها حتى العيوب والنقائص ، بل يعاملها برفق وشفقة ، محاولا جبر هذا الضعف ، مقدرا المواهب مشجعا أي مقدرة ، محتفلا بأي عبقرية ، فلم يكن علمه ومعرفته – التي لا نظير ولا مثيل لهما – يحجبان من حوله أو يقللان من شأنهم ، لأنه كان يتوج تلك المعرفة وهذا العلم خبرة ودراية عجيبة ونادرة بطبائع النفوس وسبر لأغوارها ومعرفة لعدنها ، فكان يفتح المجال أمامها ويقوم بتشجيعها ورعايتها ودفعها وحضها لذلك جمع محمد حوله أنواعا وأصنافا ودروبا شتى من النوابغ والعبقريات في جميع المجالات التي تحتاجها أي دعوة أو رسالة " أحاط بالنبي عليه السلام نخبة من كبار الرجال مختلفون في الأعمار والأقدار ، مختلفون في البيئات والأحساب مختلفون في الأمزجة والأخلاق ، مختلفون في ملكات العقول وضروب الكفايات مختلفون في فهم الدين وبواعث الإسلام فكان اختلافهم هذا آية من أصدق الآيات على رحابة الأفق وتعدد الجوانب في نفس ذلك الإنسان ، وكان علمنا بكل رجل من أولئك الرجال مزيدا من العلم بعظمة هاديهم وسيدهم وموجه كل منهم في وجهته

التي هو أصلح لها وأقدر عليها، وهم يلتقون أول الأمر وآخره في ذلك الينبوع الفياض من تلك الفطرة العلوية التي فطرها الله لهداية الأمم وقيادة الرجال. بل لقيادة القواد الذين يروضون الأمم والرجال.

وما من عظيم من هؤلاء العظماء إلا كان تقدير النبي إياه بقدره الصحيح آية على عرفانه الشامل بخصائص النفوس، وسبره العميق لأغوار الطبائع والأفكار"[159].

○ **استراتيجية مبكرة :**

لكل دولة ولكل إمبراطورية أمنها القومي. أي تلك المساحة أو الحدود خارج مناطق نفوذها الفعلي والتي تكون مؤمنة ولا تمثل خطرا لا في الحاضر ولا في المستقبل. ولا تكون مؤمنة إلا إذا كانت بعيدة عن هيمنة وسيطرة أي قوة غريبة أو عدو قد يمثل خطورة أو تهديدا من أي نوع على الدولة أو الإمبراطورية.

فلا تستطيع أي دولة أو إمبراطورية أن تعيش داخل حدودها مكتفية بتوفير وسائل الأمن والسلامة غاضة نظرها عما يحدث خارج تلك الحدود؛ لأن كل الأخطار والتهديدات التي تمس وجود الدولة أو الإمبراطورية آتية من خارج الحدود ومن مواقع بعيدة جدا، قد لا يفكر أحد أنها تمثل خطرا أو تهديدا.

هذا الإجراء من سمات الفكر الاستراتيجي في أعلى مستوياته. وبقاء الدول والإمبراطوريات على قيد الحياة والوجود مرتبط بتبني هذا الفكر، وتحلل وزوال الدول والإمبراطوريات حادث وواقع لا محالة إذى أهمل هذا الفكر ولم يقم بتنفيذ تلك الإجراءات والخطط والتحركات التي يمليها أو يحتمها هذا الفكر.

فهل كان محمد – ﷺ – يفكر هذا التفكير؟

وهل اتخذ من الاجراءات والخطط والقرارات ما يتفق وهذا الفكر؟

١٥٩- عبقرية خالد – عباس محمود العقاد – صفحة (٦٩) .

obeikandl.com

وإذا حدث ذلك ، فمن أين لمحمد هذا الفكر وهو لا يتأتى إلا لمؤسس دولة أو منشيء إمبراطورية ، وقد توافرت له التجارب والمحاولات والمعالجات مع سابق خبرة مستمدة من التعليم أو القراءة أوسار على نهج سابق له في هذا المضمار .. وكل هذا لم يتوافر لمحمد ؟

الأمر كان مع محمد فطري أو حدسي ، أملته الظروف والوقائع والأحداث مع ما توافر لمحمد من صفاء ذهن ونظر ثاقب وإحساس بالمسئولية وتحمل تبعات دوره كقائد وزعيم .

فحينما هاجر من مكة إلى المدينة ، ورأى أن المدينة بكل ما وفرته له من أمن واستقرار وحماية ، تصلح أن تكون قاعدة صلبة وحيوية ينطلق منها الإسلام والمسلمون ، وأدرك أن أي دعوة في بداية عهدها – لكي تستقر وتستقلظ ونـ ـ ي ثمارها – لابد أن يتوافر لها عنصر الأمن ولن يستطيع أن يوفر لها عنصر الأمن إلا بالقضاء على مصادر الخطر والتهديدات من حول المدينة ، وهي تلك القبائل من العرب والأعراب المحيطة بالمدينة ، فهي إما أن تغير على المدينة ، أو تعاون أو تتعاون مع غيرها ، فبدأ بتنظيم السرايات والغزوات كلما سمع على نية أو تهييء إحداها للإغارة على المدينة. ودخل في حروب مع بعضها منتصرا،والبعض قامت بينه وبينها معاهدات للدفاع المشترك ، أو عدم التعاون مع الآخرين عليه. ولم يغفل محمد عن أهم خطر يهدد الدعوة وهي في مهدها ، وهو الخطر اليهودي ، فهم يمثلون – بأنفسهم – خطرا وتهديدا على الإسلام ، أو من خلال تعاونهم أو تحريض المكيين والقبائل الأخرى ، فكان الرسول يتربص بهم حتى استأصلهم من الجزيرة العربية كلها .

وبقيت مكة تمثل التهديد الأكبر للمسلمين والإسلام ، وبعد حروب ومعاهدات واتفاقات ونقض لتلك المعاهدات من جانب المكيين ، تم لمحمد فتح مكة .

فهل استنفد الفكر الإستراتيجي أغراضه بعد فتح مكة . وأصبح الإسلام والمسلمون في المدينة وفي غيرها في أمن وسلام ؟

الرسول كان يرى الأمن القومي للمسلمين والإسلام يبدأ من المدينة ويمتد إلى جميع فضاءات العالم ، وهو لم ير الأمن توفره مناطق يسيطر ويهيمن عليها المسلمون من خلال الغزوات والجيوش والانتصارات والفتوح ولكن الذي يوفر الأمن للمسلمين هو الإسلام نفسه . فالأماكن والبلدان والدول التي ينتشر فيها الإسلام هي مناطق أمن وأمان للمسلمين . بدليل أنه كان هناك تعاليم لقواده أثناء توجههم لغزو قوم أن ينتظروا موعد الصلاة . فإذا سمع الأذان وإقامة الصلاة انصرف المسلمون عن القوم بدون غزو .

إذن الذي كان يوفر الأمن لا مناطق مسيطر عليها ولا جحافل الجيوش إنما الإسلام نفسه فكل الغزوات والمعارك والحروب التي خاضتها جيوش الإسلام ليس من أجل السيطرة على موارد أو احتلال أراضي أو إخضاع شعوب وأمم وجماعات لقوة مهاجمة أو غازية . وإنما لفتح طريق لتلك الأمم للدخول في الإسلام وإعطائها الفرصة لتختار- بكل حرية واقتناع . بدون جبر أو إرغام أو اضطهاد أو عسف أو ظلم – أي الأديان . فإذا دخلت في الإسلام واعتنقت مبادئه . فلها ما للمسلمين وعليها ما على المسلمين . ورب سائل يسأل : إذا كان الإسلام حرر الأمم والدول من حكامها وأخذ المسلمون مكانهم في الحكم والسيطرة . فما الفرق ؟

الفرق أن الإسلام لم يخضع تلك الأمم والشعوب لسيطرة حاكم أو لهيمنة فئة . وإنما طلب منها بكل حرية واختيار أن تدخل في حكم الله . وهذا ليس فيه إجبار أو إرغام . فإن شاء الناس أن يبقوا على ما هم من نصرانية أو يهودية أو أي ملة أخرى فلهم ذلك ؛ لأن هناك أساس من أهم أسس الإسلام . ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ البقرة: ٢٥٦

obeikandi.com

الفصل الحادي عشر

الفاتح

" إذا كانت عظمة المقصد ، وقلة الوسائل ، وضخامة النتيجة – تمثل المقاييس الثلاثة لعبقرية الرجل .. فمن ذا الذي يجرؤ على أن يقارن بمحمد – من الوجة الإنسانية – رجلا من عظماء رجال التاريخ المعاصر ؟... إن أشهر أولئك لم يهزوا إلا أسلحة ، وقوانين وإمبراطوريات ، ولم يؤسسوا – إذا أسسوا شيئا على الإطلاق – سوى قوى مادية غالبا ما تنهار قبلهم ....أما هذا الرجل فقد هز أسلحة ، ودساتير وامبراطوريات ، وشعوبا ، وممالك ، وملايين من الرجال على ثلث المعمورة .... ثم أنه زاد فهز أسلحة مذابح المعابد ، والألهة ، والديانات ، والأفكار ، والمعتقدات . والأرواح .. وأسس في كتاب كل حرف فيه قد غدا قانونا ، قومية روحية تشمل شعوبا من كل لسان ولون .... وأوحى بطابع لا يمحى لهذا الوطنية الإسلامية ، كراهية الألهة الزائفة ومحبة الإله الواحد المنزه عن المادة ...هو نبي ، وهو فيلسوف، خطيب ، مشرع ، محارب ، فاتح افكار وعقول ، مقيم لشريعة عظيمة حية ، مؤسس لعشرين إمبراطورية أرضية ولأمبراطورية روحية ...ذلكم هو محمد .... أي رجل أعظم منه في كل المراقي التي تقاس فيهاالعظمة الإنسانية ؟ ..."

٥ د : إيفادي فتري مايرفيتش

((عضو المركز الفرنسي للبحث العلمي – باريس))

obeikandi.com

obeikandl.com

حينما ننظر إلى شخصية محمد - ﷺ - ومكونات تلك الشخصية وسماتها ومواصفاتها، وكيفية تعاملها مع العالم حولها، وهذا الأسلوب الراقي والسامي الذي تبنته واختارته، ليكون طريقها في الانفتاح على العالم ... نتعجب كيف يتأتى لتلك الشخصية أن تجنح إلى الحرب والقتال ؟!

نعم، إن الحرب فرضت عليه، ولم يكن هناك مناص من أن يحمل السيف للدفاع عن المسلمين تارة، والدفاع عن العقيدة تارة أخرى، وأيضا للدفاع عن حرية الاختيار للشعوب والأمم التي أمر أن يعرض عليها الإسلام؛ لتختار بملء إرادتها وكامل حريتها، ويخلصها من هذا الجبروت والطغيان والظلم الذي كان يمثله حاكم ظالم أو سلطة غاشمة، لا تريد لشعوبها أن تعرف أو تدرك أو تعي أو تفهم غير ما يراد لها. فالشعوب بالنسبة لهؤلاء كالسوام، وكالعبيد يسيرونها كيفما يشاءون وحسبما يريدون، ويعتبرون أن هذا حقهم، وآفة الحكام الطغاة في كل عصر أنهم يعتبرون الظلم والاستبداد والطغيان والجبروت حقا من حقوقها التي تدافع عنه وتريق في سبيله الدماء، وتزهق دونه الأرواح والمهج، ويرون في الشعوب التي تطالب بحقها في العدل والعيش والحياة الحرة الكريمة، أنهم شعوب عاصية متمردة خارجة عن القوانين، يحق أن ينزل بها أنكى وأشد أنواع العذاب من تنكيل وسجن وقتل وسحق للآدمية وامتهان للإنسانية، جزاءا وتأديبا وعقابا على تطاول تلك الشعوب على أسيادها، وتجرأ من تلك الأمم على آلهتها.

مع كل تلك المبررات التي سوغت وأجازت السيف للرسول، نجد أن شخصية الرسول لا تتفق ولا تتواءم ولا تتلاءم مع أساليب الحرب والقتال، وما تحفل به من قسوة وغلظة وعنف ودماء وأشلاء.

فلا الحرب تناسب شخصية الرسول.

ولا شخصية الرسول تتناسب مع الحرب.

وفي نفس الوقت هناك حتمية للحرب والقتال.

ليس هذا فحسب بل هناك أمر بالقتال من الله :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ الحج: ٣٩ .

وحينما ننظر إلى شخصيات الأنبياء بصفة عامة ، نرى أن خيار الحرب في ذيل قائمة اختيارتهم ، هذا إن لم يسقطوه من الحسبان والاعتبار ، فهم قد أتوا ليهدوا ويرشدوا ، ووسائلهم في ذلك الموعظة الحسنة والإقناع : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) ﴾ النحل: ١٢٥

أتوا ليعالجوا المرضى بأمراض الكفر والفسوق والعصيان ، وهم – الأنبياء – أدرى الناس بمواطن الضعف الإنساني ، وأن المرض والضعف يدران العطف والشفقة أكثر مما يثيران الكراهية والمقت .

إذن هناك مكونات شخصية لا تناسب ولا تتناسب مع الحرب .

وهناك حتمية وإلزام للحرب ، بل هناك أمور وقضايا لا تحسم إلا بالحرب .

على هذا هناك أمران لا ثالث لهما :

- إما أن تتغير الشخصية وتتبدل لتناسب وتتناسب مع الحرب .
- وإما أن يبحث عن طرق وأساليب لحسم الأمور والقضايا والمشكلات والأزمات بغير الحرب – والتي في نفس الوقت لا تحسم إلا بالحرب – وعدم حسمها بالحرب قد يؤدي إلى تفاقم الأمور وتعقيد القضايا ، بل قد يكون فيه تهديد لوجود وبقاء الدعوة ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ الحج: ٤٠

لذلك فهذا الأمر مستبعد لأن كل الخطط والمشاريع تستدعيها مصلحة الدعوة في المقام الأول .

إذن تغير الشخصية ليس واردا .

واستبعاد الحرب ليس واردا أيضا .

فلتكن حربا تتناسب وشخصية النبي ، وفي نفس الوقت تحقق مصلحة الدعوة ، ولن تكون الحرب بهذا النوع والكيفية إلا إذا كانت حربا مقدسة ، يقودها ويديرها نبي ، ولها مواصفات يضعها النبي ويلزم الآخرين بها ، وتلك الحرب لن يكون لها من الآثار ما للحرب من هيمنة وسيطرة المنتصر ، وإذلال وخضوع المنهزم ولن ترفع أقواما وتعز شعوبا ، وتخفض أقواما وتذل شعوبا ، وإنما هدفها الأول والأخير الاقناع وتأصيل مبدأ الحرية ، وهذا في حد ذاته من أعظم مبادئ الدعوة الإسلامية وهو كفالة حرية المختلف معها

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ الكافرون: ١ ـ ٦

ومن وصاياه ﷺ : "اغزوا باسم الله في سبيل الله ؛ قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا وليدا وإذا لقيت عدوك من المشركين فادفعهم إلى ثلاث خصال ، فأتيهن ما أجابوك فأقبل فيهم وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ولا يكون لهم في الغنيمة والفئ شئ إلا أن يجاهدوا مع المسلمين فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم".

- الغزو باسم الله .
- الغزو في سبيل الله .
- تحديد نوعية الكافرين ... وهم الكفار.
- محاذير القتال ، بدون غل ، بدون غدر ، بدون تمثيل.

- قانون الحرب : إذا كان عدوك من المشركين أعرض عليهم ثلاثة أمور، وهنا يظهر بجلاء الغرض والمقصد الحقيقي للحرب ، ليس قتلا وأشلاءا واستعلاءا ، مبدأ الحرية مضمون ومكفول ، الحرية في الاختيار ، وتحمل مسئولية هذا الاختيار، ونلاحظ هنا تقرير مبدأ الحرية لعدو مشرك ، أولا الدعوة إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، ولا بأس عليهم في هذا فهم سيصبحون من نسيج الأمة ، فلهم ما للمهاجرين .
- فإن رفضوا ، فهم كأعراب المسلمين ، لا يكون لهم في الغنيمة شئ ؛ لأن الغنيمة والفئ حق للمجاهدين ، والجهاد حرية ، وليسوا مجبرين عليه ، لا يريدون الجهاد فليبقوا كأعراب المسلمين .
- فإن رفضوا هذا الوضع – هنا أيضا مبدأ الحرية – فقد اختاروا – هم الذين اختاروا وليس المسلمون – الحرب والقتال .

" لم ينتشر الإسلام بالحرب ولا بالسيف ولا بأي أسلوب من أساليب القوة والقهر ، بل أن مشروعية الجهاد يتلخص حكمها في الدفاع عن الدين وتأمين الطرق أمام الدعوة الإسلامية وفي الدفاع عن النفس والوطن ، فهو جهاد في سبيل الله ، لا صلة له بأساليب القهر والسطو والاستعمار " [١٦٠]

لو استعرضنا جميع الحروب التي خاضها البشر ، منذ بدء الخليقة حتى الآن فلن نجد حربا روعى فيها القيم والمبادئ الإنسانية ومحاولة حقن الدماء وتلافي المآسي والأضرار التي تنتج عن الحرب مثل حروب الإسلام ، ألم يقل الرسول – ﷺ – إن حرمة دم المسلم لأشد عند الله من حرمة الكعبة ؟ويقول : ((لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل مؤمن بغير حق)) رواة ابن ماجة .

١٦٠- الأمن في الإسلام – د. أحمد عمر هاشم – صفحة (٢١)

وكثرت وصايا وتعاليم وأوامر الرسول لقادة جيوشه أن يجنبوا معنى الحرب والقتال عن غرائز الانتقام أو الثأر أو التشفي ، وأن ينزهوا الجهاد عن الأغراض المادية . فالحرب والقتال والجهاد في سبيل الله ولا سبيل بعده " لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ولا كبيرا ولا فانيا ولا معتزلا بصومعة ولا تقربوا نخلا ولا تقطعوا شجرا ولا تهدموا بناء " . وتكاد لا تخلو غزوة من غزوات الرسول أو معركة خاضتها الجيوش بدون أن تكون هناك تعاليم نبوية بل هي أوامر ملزمة لا يجد المقاتل المسلم مناصا من الانفكاك منها . وأكثر ما كان يغضب الرسول حينما يجد امرأة أو شيخا مقتولا في ميدان من ميادين المعركة .

والمعاني والمقاصد والدلائل مشرقة وضاءة في يوم فتح مكة . فطبائع الأمور والمعهود حينما تتم فتح مكة أن يكون المكيون أسرى حرب يقتل الرجال وتسبى الذراري والنساء . وكان هذا الخاطر يحول بذهن المكيين . ألم يكن هناك معارك وقتال ودماء بين المكيين والمسلمين ؟ ألم يجرون الحديد والنار إلى المدينة ؟ ألم يألبوا العرب واليهود ضد المسلمين ؟ ألم يقتلوا من المسلمين الكثير ؟ ألم يقفوا في وجه الرسول والدعوة الإسلامية ؟ .

وهاهي جيوش المسلمين تدخل مكة من كل حدب وصوب رافعة رايات العزة والنصر . فحق للمسلمين أن يشعروا بنشوة النصر ويذيقوا أعداءهم مرارة الذل والهزيمة . وحق للرسول أن يدخل مكة مجللا بأكاليل المجد والغار تحوطه أناشيد النصر وأهازيج الظفر . وعلى يساره وعلى يمينه أركان حربه . ويترك جنوده تعيث فسادا ودمارا وحرقا ونهبا في مكة . أليس هذا قانون الحرب ؟ .

أليس هذا ما يخوله قانون الحرب للمنتصر ؟ .

نعم . ولكن المسلمين لم ينتصروا . والرسول لم ينتصر !.

وإنما النصر كان لدين الله . والتي ارتفعت وأعزت هي كلمة الله .

انظر لعظمة الشخصية حينما تتفتح أمامها معارج الشرف والنبل والرقي والسمو .

لم يمتط رسول الله صهوة جواده ، وكان في الإمكان أن يفعل ذلك ، وطبيعة الأمور تحتم ذلك ، القائد الأعلى للجيوش وهي تدق أبواب عاصمة ومعقل أعرق وأقوى وأمنع المدن في الجزيرة العربية ... أم القرى .

ركب ناقته .... المشهد يدل على الوداعة والتسامح والرحمة والرفق .

لم تكن هناك مشاعر الفخر والتيه والفخر بالنصر تملأ قلب الرسول ، حتى وإن شعر الرسول بهذا ، فهذا حقه ، بعد أن ترك أحب البلاد إليه بالأمس ، وقد دفعوا بمن يتبعه ليقتله ، ورصدوا مكافآت عظيمة لذلك ، وأزاقوا الرسول والمسلمين الكثير من الآلام والعذاب والمعاناة ... فمن حقه اليوم أن يضمد تلك الجراح ، وأن يشفي هذا الغليل ، وتذوق نفسه حلاوة النصر .

لا ... كل تلك المشاعر لم تجد مكانا في قلب الرسول ، أو لم يشأ الرسول أن يعطي لها حيزا من مشاعره ، بل لم يفكر لحظة في تلك الأمور .

فإذا كان ذاق والمسلمون الكثير من العذاب والمعاناة ، فقد كان هذا في سبيل الله ، وإذا انتصر وظفر بأعدائه أو خصومه هنا فبفضل الله ومنته .

إذن يجب أن ينسب الفضل والإحسان لله فقط .

دخل رسول الله - ﷺ - باب مكة - والعين والقلوب والعقول معلقة به - راكبا ناقته خاضعا منحنيا حتى لامست أطراف لحيته رحال ناقته .... هذا مشهد الرسول .

أما مشهد المسلمين - الجيش - فالسيوف في أغمادها والسكينة والهدوء يهيمنان على الجنود ، العيون تدمع حينما تحتضن ربوع مكة ونواحيها ، والقلوب تخفق قد أذابها الحنين والشوق إلى مكة وأهلها ، هناك أيادى تتصافح وأجساد تتعانق ، حلاوة وأنس اللقاء قد أزال الكثير ممن الكراهية والحقد والغضب والثورة . الشمس تطل على المشهد من عليائها صافية هادئة دافئة ، ونسيم رقيق يحمل الخزامى من بعض البساتين القريبة ، وأصوات متهدجة متضرعة قد شفها الحنين وأترعتها السعادة والسرور .

خرج أهل مكة عن بكرة أبيهم ، ملتفين برسول الله ، من لم يكن قد آمن فقد آمن ، من كان يشك فقد تبدل شكه إلى يقين الآن ، من لم يكن يحبه فقد أحبه من كان يكرهه ويمقته فقد تبدل كرهه ومقته إلى إجلال واحترام .

" وأصبحت ((أم القرى)) وقد قيد الرعب حركاتها ، واسترخت تجاه القدر المنساق غليها فاختفى الرجال وراء الأبواب الموصدة ، أو اجتمعوا في المسجد الحرام يرقبون وهم واجمون ، على حين كان الجيش الزاحف يتقدم ، ورسول الله على ناقته ، تتوج هامته عمامة دسماء ورأسه خفيض من شدة الخشوع لله ، لقد انحنى على رحله وبدا عليه التواضع الجم حتى كان عثنونه يمس واسطة الرحل .

إن الموكب الفخم المهيب الذي ينساب به حثيثا إلى جوف الحرم ، والفيلق الدارع يحف به ينتظر إشارة منه فلا يبقى بمكة شيء آمن ، إن هذا الفتح المـ ليذكره بماض طويل الفصول : كيف خرج مطاردا ؟ وكيف يعود اليوم منصورا مؤيدا ! وأي كرامة عظمى حفه الله بها في هذا الصباح الميمون ! وكلما استشعر هذه النعماء إزداد لله على راحلته خشوعا وانحناء . ويبدو أن هناك عواطف أخرى كانت تجيش في بعض الصدور .

فإن ((سعد بن عبادة)) زعيم الأوس ، ذكر ما فعل أهل مكة ، وما فرطوا في جنب الله ، ثم شعر بزمام القوة في يده فصاح : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشا .

وبلغت هذه الكلمة مسامه الرسول – ﷺ – فقال : ((بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة ، اليوم يوم أعز الله فيه قريشا)) وامر ان ينزع اللواء من سعد ويدفع إلى ابنه ؛ بمخافة أن تكون لسعد صولة في الناس .

وسار رسول الله – ﷺ – فدخل مكة من أعلاها ، وأمر قادة جيشه الا يقاتلوا إلا من قاتلهم ، فدخلت سائر الفرق من أنحاء مكة الأخرى " ١٦١.

١٦١- فقة السيرة – الشيخ محمد الغزالي – صفحة (٣٢٧- ٣٢٨)

obeikandl.com

الختام

قليلة – أو نادرة – تلك الكتب التي تصادف بدايات مشجعة ومحفزة للكاتب أن يكتب ، ولكن في إكمالها أو إتمامها أو ختامها يحار في كيفية الإكمال والإتمام والختام . فهناك آلاف الأسباب التي تدفع دفعا إلى الكتابة عن محمد – ﷺ – ومع ذلك فعندما تقترب من النهاية أو الختام ، لا تجد سببا واحدا لإكمال ما كتبته أو وضع خاتمة له ؛ لأنه يظهر سؤال عويص بحق ... فإذا كان في الختام يلخص الكاتب ما أنجزه أو خلاصة ما توصل إليه أو ما أضافه من جديد لموضوع الكتاب أو لصاحب سيرة الكتاب ، فحينئذ وعندئذ لا يجد الكاتب فيما كتبه ما يمكن أن يسمى إنجاز أو إضافة ، وليس هذا راجعا إلى هوان أو تفاهة ما كتب ولكن لاتساع وعمق وشمول عظمة وجلال وقدر صاحب السيرة ... مثل الكاتب في ذلك مثل الذي يقصد المحيط ويأتي بقطرة ، ويظن أن معه شيئا يمثل المحيط .

لذلك فإن سيرة محمد ستظل سجلا مفتوحا يكتب سطوره الكاتبون على مر العصور ، ولا أظن أنهم سيصلون في يوم من الأيام إلى كتابة الصفحة الأخيرة .

وستظل الأمم تقرأ ما كتب ويكتب وسيكتب عن محمد ، ولا أظن أنهم سيصلون إلى قناعة أنهم استنفدوا الغرض والمقصد والهدف من دراسة والبحث في شخصية محمد والوصول إلى تفسير وجلاء جوانب ونواحي عظمة وجلال ورقي وسمو تلك الشخصية . ولعل البعض يعتقد أننا نبالغ في إضفاء الكثير من المشاعر العاطفية غير المنطقية او العقلية على شخصية محمد ، وحجتهم في ذلك : أن كل ما وصول إليه محمد وكل ما حققه ليس الفضل خالصا إليه ، ولكن الفضل كل الفضل إلى الله – عز وجل – الذي أيده بعونه وبالقرآن ، وإن أي شخص يؤيد بهذين سيصل – لا شك – إلى ما وصل إليه محمد !

وحجتهم تلك نتفق معهم في جانب منها ونختلف معهم في جانب آخر.

أما ما وصل إليه محمد وما حققه بفضل وعون وتوفيق الله ، فهذا ما نتفق فيه ولا أظن أن هناك من يماري في ذلك .

أما أن أي شخص كان سينهض ويؤدي ما قام به محمد فهذا ما نختلف معهم فيه ، لأن الله عز وجل لم يصطف ويختر محمدا إلا لأنه قد تجمعت صفات وسمات ومميزات لم تتجمع في أحد غيره ، وعلم الله – عز وجل – أن هذا الإنسان بما جمعه من صفات وخلال مؤهل وجدير أن ينهض بأداء أعظم وأجل رسالة من السماء إلى أهل الأرض ، وبتبليغ أرقي وأسمى دعوة للإنسانية .

إذن الله لا يؤيد إلا من استحق التأييد .

والله لا يعين إلا من هو جدير بهذا العون .

والله لا يوفق إلا من بذل من الجهد والنصب ما يتساوى وهذا التوفيق .

ويوم أن علم وأيقن محمد أن الله قد اصطفاه ليكون بشيرا ونذيرا ، آلى على نفسه ونذر نفسه لتلك الرسالة ، وأنه لا يسير على تلك الأرض ولا يتنفس ولا يحيا إلا ليبلغ ما أؤمر بتبليغه ، وقد يصل به الأمر أن يضحي بنفسه – مع أنه لم يكلف بذلك – في سبيل أن يبلغ الرسالة .

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾الكهف: ٦

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾الشعراء: ٣

لقد أدرك محمد أنه بتلك الدعوة – وليس بغيرها – وبهذا الدين – وليس بغيره – سينصف الإنسان كما لم ينصف من قبل ، أيما كان جنسه وموطنه ، وأن تلك الدعوة تضع الإنسان في موضعه الصحيح كما أراده الله أن يكون ، موحدا مكرما عزيزا شريفا ، يليق بأن يكون خليفة له في هذه الأرض ، وأن تلك الدعوة

ستضع نهاية لشقاء وبؤس وعذاب الإنسان على تلك الأرض ، وستحرره من جميع وكل صور وأشكال العبودية التي كان يحمل إصرها على مدى الآف السنين ، والأهم أنها ستصحح وجهته إلى الله الواحد الأحد ، وتهديه إلى خالقه بعد أن ضل عنه ضلالا بعيدا " رسالة محمد عليه السلام رسالة إلهية ، قوامها أن الله حق وهدى ، وأن الإيمان به جل وعلا مطلوب لأنه حق وهدى ، هذا الإيمان أعلى وأقدس من كل إيمان ، لأنه إيمان بالحق والهدى ، لم تكن زعامة محمد على قومه مناط تلك الرسالة ، لأنه جاء بها بشرا كسائر البشر ، عليه من أمانة الهداية ما على الإنسان للإنسان ، زعيما كان أو غير زعيم ، ولم تكن منفعة الأمة العربية مناط تلك الرسالة لأنها إيمان برب العالمين ، ولا فضل فيها لعربي على أعجمي ، ولا لقرشي على حبشي إلا بالتقوى ، ولم تكن مخاضاة لوعود ، لأن الإسلام لم يعد أحدا من العالمين بغير ما وعد به الناس كافة في جميع البقاع والأرضين "[١٦٢].

وحينما أيقن محمد عليه السلام أنه آخر الأنبياء والرسل ، توافر لديه شعور لم يتوافر للأنبياء من قبله ، فكل الأنبياء والرسل كانوا يعلمون بشكل أو آخر أنهم حلقة في سلسلة ، سبقهم آخرون وسوف يأتي بعدهم آخرون ، وأنهم لزمان معين ومحدد ، وأنهم لقوم دون قوم أو لفئة دون فئة إلا محمد فقد كان يعلم أنه الخاتم المكمل ، المتمم ، وأن ما أتي به أو ما أرسل به سيظل وسيبقى وسيدوم إلى أن تقوم الساعة ، هذا الشعور الذي ملأ أفئدته عليه السلام ، أن دعوته ورسالته ليست خاصة بزمان معين أو محدد ، وليست لقوم دون قوم ،بل هي لكل الأزمنة ، ولكل الناس هذا الشعور كان له قدر كبير وعظيم في تشكيل شخصيته الإنسانية ، بل أكاد أقول أنه المحور الرئيس الذي دارت عليه أو حوله شخصيته ،فأدى رسالته كما لم يؤدها أحد وبلغ دعوته كما لم يبلغها أحد ، وتحققت فيه وبه البشرية والإنسانية والنبوة

١٦٢- مطلع النور – عباس محمود العقاد – صفحة (١٥٢-١٥٣)

والعبودية كما لم تتحقق في أحد من الأنبياء . فإذا كان للأنبياء والرسل مكانة ومنزلة عظيمة عند الإنسانية . فهم مصابيح الهدى وهم شموس الرشاد . بهم ومعهم ارتفعت وارتقت البشرية عن جنس الدواب . ومن خلالهم تلمس الناس بأرواحهم نعم ومنن التوحيد . حينما قدح الأنبياء زند جوهر الجبلة الإنسانية لتبحث عن حقيقتها وسر وجودها . وبالتالي تبحث عن دلائل وعظمة الخالق الأعلى . فإن صورة النبي قبل محمد تختلف عنها بعد محمد . قبل محمد كانت صورة النبي تتسم بالكثير من المرارة والحزن والأسى . بسبب أن ما جاءوا من أجله أو ما كانوا يتمنونه لم يحدث .ما بدأوه لم يكتمل . ما حلموا به لم يتجسد حقيقة على الأرض ما وهبوا وما نذروا أنفسهم لم يتم إنجازه . أو تم ولكن ليس على الصورة التي كانوا يريدونها . أما مع محمد – ﷺ – فقد اعاد لها أو منحها – الصورة – كل شموخها وجلالها وعظمتها وكبريائها وعزتها وقوتها . منذ اللحظة الأولى أقسم على أن يتم هذا الأمر . وإلا يهلك دونه . وكفاح وجهاد ونضال الرسول وتحمل وصبر الرسول معروف حتى وصل إلى تلك المكانة والمنزلة العظمى والتي قال الله في حقه:

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾النساء ٤١

ومن قال الله – عز وجل – في حقه هذا . فماذا يملك أحد أن يقول بعد ذلك؟!

ولكن نحن نكتب عن محمد – كما قلت في أحد فصول الكتاب – لا لنضيف إليه شيئا . ولكن لنأخذ منه أشياء . نقتبس منه . نهتدي . نسترشد . فالانسانية – اليوم – في حاجة ماسة أن تدرس وتبحث وتقف طويلا طويلا أمامه . غاضة الطرف . منكسة الهامة . معفرة الجبين . أن فرطت أو لم تعمل بما في ميراثه من العلم والحكمة والأخلاق والتعاليم .والإنسان في حاجة ملحة أن يعرف ويعلم ويدرك أن هناك إنسانا قد جاهد جهادا مريرا . وكافح كفاحا عظيما . وتحدى اليأس

وقاوم الحزن والخور والضعف ، وحارب جحافل وجيوش الظلم والظلام ، وانتصر على أعداء الحياة ، ليجعل للوجود قيمة ،وللإنسان عزة وكرامة .

فإذا كانت الكتابة عن شخصية مثل شخصية محمد – ﷺ عسيرة – فإن الأشد عسرا أن تختم هذا الكتاب .

وكأن قدر الإنسانية أن تظل تلهث وتجري سراعا وراء سيرة محمد – عليه السلام – غير مدركة – بعد ذلك – إلا ما يتناسب مع قدرتها وطاقتها وسعتها ، وكل ذلك يقصر على أن يكون نظيرا أو كفئا لشخصية سيد الأنبياء وأمير رسل الله .

obeikandl.com

سيرة ذاتية

الاسم، محمود محمد محمود القلينى

عضو اتحاد الكتاب بالقاهرة - عضوية عاملة رقم ١٩٧٧ .

الهاتف، ٠٠٢٠٤٥٢٢٢٠٠٣٩

النقال، ٠٠٢٠١٠٦١٤١٤١٢٤

البريد الالكتروني، *elkellenymahmoud@yahoo.com*

الأعمال المنشورة :

١- **إنهم يذهبون** : (قصص قصيرة) دار الشعب بالقاهرة -١٩٨٢.

٢- **الدجال والشيطان** : (رواية) مركزمعروف بالأسكندرية -١٩٨٥.

٣- **إخناتون والكهنة** : (مسرحية) الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة-١٩٩٥.

٤- **محنة الإمام أحمد بن حنبل**: (مسرحية) الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٩٧.

٥- **مصرع الخراسانى** : (مسرحية) الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة٢٠٠٢.

٦- **بوظا فى مجلس الشعب**: (مسرحية) الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة.

٧- **غائب لا يعود** : (مسرحية) الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة .

٨- **الفكر الإسلامى ومستجدات العصر**: (كتاب) المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ٢٠٠٥ .

٩- **عش حياتك سعيدا** : (كتاب) مكتبة بستان المعرفة بكفر الدوار - ٢٠٠٥.

١٠- **النساء فقدن عروشهن** :(كتاب) مكتبة العلم والإيمان بالمنصورة ٢٠٠٦.

١١- **العمرية. في رحاب عمر بن الخطاب**:(كتاب) دار العلم والإيمان بدسوق ٢٠٠٧.

١٢- **أمير الصحافة العربية** : (كتاب) مكتبة بستان المعرفة بكفر الدوار٢٠٠٩ .

١٣- **شخصية موسى النبى** : (كتاب) مكتبة بستان المعرفة٢٠١١ .

١٤ -**الإسكندرية عناقيد العشق والغضب**:(روايه) مكتبة بستان المعرفة ٢٠١١.

١٥- **الثورة في وجدان المصريين**: (كتاب) مكتبة بستان المعرفة ٢٠١٢.

١٦- **الباحثون عن الله**: (كتاب) دار العلم والإيمان بدسوق٢٠١٣.

١٧- **الخروج من الجلد**:(رواية)مكتبة بستان المعرفة٢٠١٣.

١٨- **بلد راكبها عفريت** : (مسرحية) الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠١٠.

الجوائـــز :

١- جائزة التأليف المسرحى من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن مسرحية محنة الإمام أحمد .

٢- جائزة التأليف المسرحى من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن مسرحية إخناتون والكهنة .

٣- جائزة التأليف المسرحى من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن مسرحية مصرع الخراسانى .

٤- جائزة الدراسات النقدية من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن دراسة بعنوان (الذاتية والقيم الوجودية فى أدب إبراهيم عبد القادر المازنى).

obeikandl.com

٥- جائزة الدراسات النقدية من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن دراسة بعنوان (قيم ومعايير فى أدب يوسف إدريس) .

٦- جائزة المقالة النقدية من المجلس الأعلى للثقافة عن دراسة على قصة (الطريق) لنجيب محفوظ.

٧- جائزة من نادى أبها بالمملكة العربية السعودية عن مسرحية محنة الإمام أحمد بن حنبل ١٤١٧هـ

٨- جائزة من نادى القصة بالقاهرة عن رواية بعنوان (قوس قزح) ٢٠٠١.